شكيب أرسلان

مفكرا وسياسيا

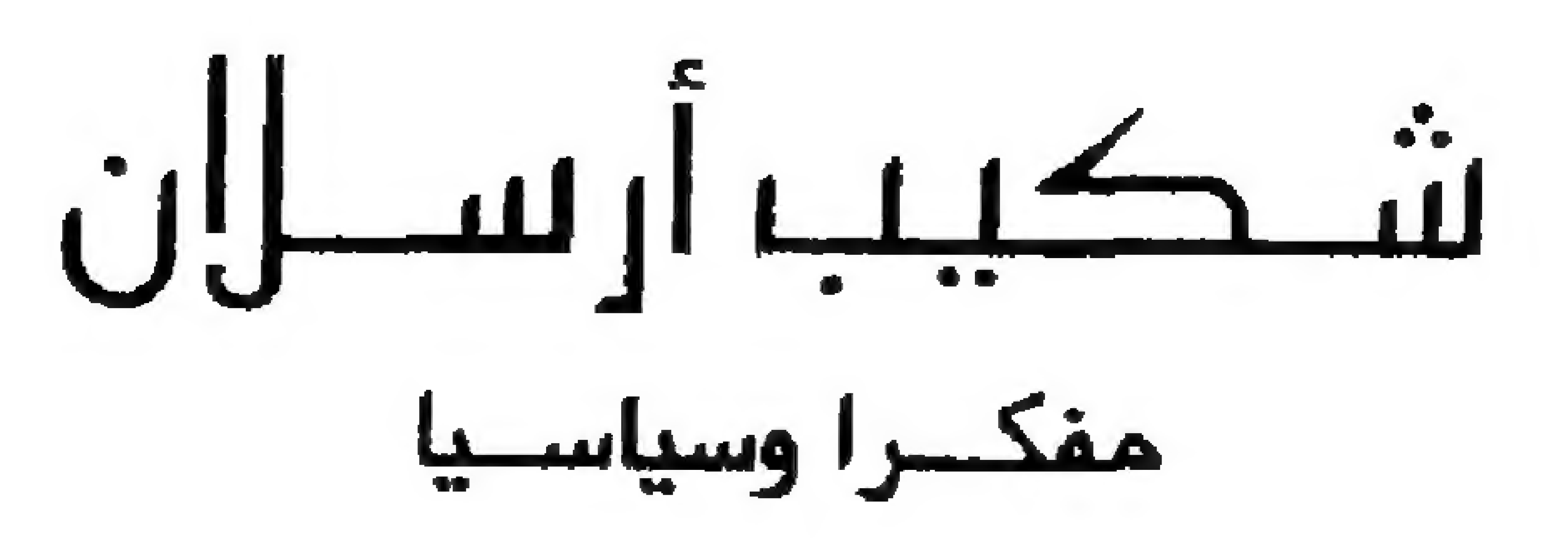
د. بوشوشة بن جمعة

المغاربية للطباعة والإشهار

تبادل ٢٠١٠

وزارة الثقافة و المحافظة على التراث – مصلحة الاقتناء

تونس


شكيب أرسلان

مفكرا وسياسيا

شكيب أرسلان
مفكرا و سياسيا

تأليــف : د. بوشوشة بن جمعة
عنــوان الكتاب : شكيــب أرســـلان مفكــرا وسياســيا
تصميم الغــلاف : أسماء كافي
الطبعــة : الأولى 2008
المطبعـــة : المغاربيّة للطباعة والإشهار
سعر النسخــة : 12 دت
ر.د.م.ك. : 978-9973-0-0257-0

د. بوشوشة بن جمعة

شكيب أرسلان

مفكرا وسياسيا

المغاربية للطباعة والإشهار

مقدّمة

إن اختيار هذا البحث على الصيغة التي ورد عليها"شكيب أرسلان: مفكّرا وسياسيا"يعود أساسا إلى تضافر عدّة عوامل تفاعلت لتحفزنا على خوض مغامرته.

فتمثّلنا شخصية شكيب أرسلان جاء ثمرة تأمّل، واستقراء في حقلي الفكر والسياسة في العالم العربي- الإسلامي، بدءا من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى موفىّ النصف الأوّل من القرن العشرين. هذه الحقبة التاريخية الزاخرة بالحركات الفكرية- الإصلاحية الساعية إلى إقامة صرح نهضة عربية إسلامية معاصرة، والمليئة بالأحداث السياسية الجسام التي جدّت على الساحة العالمية عامّة، وبالمنطقة العربية على وجه أخصّ، إذ في غضونها تمكّنت الدول الأوروبية من بسط نفوذها على أغلب الأقطار المشرقية والمغاربية، وفشلت الجامعة الإسلامية فتنبّه الوعي القومي العربي، وبرزت فكرة الاستقلال عن الخلافة العثمانية المنهارة-الرجل المريض-، والتي صاحبتها الدعوة إلى الوحدة العربية، كما جدّت أثناءها الحرب العالمية الأولى التي انتهت بمزيد تقسيم الأقطار العربية بين الدول الأوروبية العظمى، وإعلان عصبة الأمم الوصاية البريطانية على فلسطين، وانهار أثناءها حكم سلاطين آل عثمان، وامّحت رسوم خلافتهم بقيام الحركة الكمالية، ثمّ كان ارتقاء بعض الدول العربية المستعمرة إلى الاستقلال... وأخيرا كان اندلاع الحرب الكونية الثانية...

ولقد شهد الأمير شكيب أرسلان(1869-1946)كلّ هذه الحركات الفكرية -الإصلاحية، والوقائع السياسية العالمية منها والإقليمية، وتفاعل مع كلّ ما أفرزته من أوضاع يتصدرها كلّ من التخلّف ومحاولة الانعتاق منه، والاستعمار والسعي إلى التحرّر من قيود سيطرته وقد سمح له حضوره المكثّف في ساحة الثقافة العربية المعاصرة، وحركيته الدائبة في حقل النضال السياسي بأن يكون نمطا متفرّدا بين أعلام الفكر وزعماء السياسة في عصره، يعسر على قارئ آثاره وكذلك دارسها إضفاء سمات محدّدة له أو حتّى استكناه معالم شخصيته الملغزة-مقوّمات وأبعادا، لجمعه بين شواغل فكرية متنوّعة الأجناس، غزيرة العطاء، وفيرة الفائدة، وبين حركية نشاط سياسي لا تفتر ولا تنقطع.

فمفكرا نظم الشعر حدثا، وامتلك ناصية البيان فقلّد إمارته، وأحيي نفائس التراث العربي الإسلامي وعصّرها، وتناول أسفار تاريخ العرب والمسلمين القديم فاستقرأ خفايا أحداثه، وسبـر دلالاتها كاشفا لبني جنسه العرب، وبني ملّته المسلمين مآثر حضارتهم وأمجادها التليدة الضائعة حتّى يعتبروا بها في إقامة صرح نهضتهم الحضارية المعاصرة التي يجب أن تكون في نظره امتدادا لما بلغه الأسلاف من شأو حضاري، واستيعاب لما أدركه الغربيون في العصر الحديث من تقدّم و رقيّ.

أمّا سياسيا فإنّه وعى حدثا واقع الاستعمار الذي يعيشه وطنه لبنان، وبقية الأقطار العربية الإسلامية لعمق وعيه السياسي، إذ كان دائب المطالعة للصحف العربية، والمتابعة لكلّ ما يجدّ على الساحة العربية والعالمية من وقائع سياسية ممّا أهله ليكون ضمن روّاد مقاومة الاستعمار الغربي بالبلاد العربية-الإسلامية، سواء أثناء وجوده بوطنه لبنان أو عند اغترابه عنه منفيا إلى أوروبا من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية، حيث اتخذ من مدينة جنيف السويسرية مقرّا لإقامته، ومن مكتبه بها مركز استعلامات سياسية يتلقّى كلّ ما يجدّ مشرقا ومغربا من وقائع، ويصدر-في الآن نفسه-حملاته الصحفية الساخطة على سياسة الدول الأوروبية العظمى في البلاد العربية الخاضعة لسيطرتها، كما لا يتوانى عن إرسال التعليمات الضرورية إلى زعماء السياسة، وحركات التحرير دفعا لمسار نضالهم السياسي، كلّ هذا ينضاف الى تنقلاته الدائبة واتّصالاته المستمرة بأبرز أعلام السياسة الغربيين شارحا لهم قضايا البلاد العربية المستعمرة بالإضافة إلى ما كان يلقيه من خطب في المحافل الدولية و الهيآت الرسمية، ممّا دفع بأحد كبار الضباط الفرنسيين أن ينصح حكومة بلده بقوله: "عندما تقع حرب أوروبية ينبغي قبل كلّ شيء، أن يزحف الجيش الفرنسي إلى جينيف، ويقبض على شكيب أرسلان".(1)

كلّ هذا النشاط الفكري، والحركية السياسية أضفيا على شخصية الأمير شكيب أرسلان سمة التفرّد والإلغاز في عصرها وبين معاصريها لما أثارته من حولها من جدل، وأفرزته في شأنها من تباين مواقف، فهناك من ناصرها اقتناعا بمصداقية نشاطها الفكري ونضالها السياسي، وهناك من ناصبها العداء فحمل عليها وألصق بها عديد التهم التي جعلتها موضع شبهات من طرف بعض الفئات العربية من جهة والأجنبية من أخرى، الأمر الذي جعل شكيب يكون محلّ مطاردة وتفتيش للاقتصاص منه من أكثر من دولة: ففرنسا تطارده

لاتهامها له بالعمالة لألمانيا، ومناهضته سياستها الاستعمارية بكلّ من سوريا ولبنان في المشرق، وتونس والجزائر والمغرب، في المغرب العربي، بالحملة عليها عبر الصحافة والاتّصال بزعماء التحرير وتوجيه حركاتهم، والمساهمة في إثارة شعوب هذه البلدان ضدّ ممارساتها التعسفية المقنّعة بالتمدّن والحضارة، وتركيا تطارده لدعوته إلى العروبة، وتنكره لحكامها، وحملته على سياستهم العربية، وانغلترا تطارده لدفاعه عن قضايا استقلال فلسطين ومصر، وهذه الأخيرة تطارده وتمنع عليه دخولها والنزول بها لاعتقاد الملك فؤاد بأنّ شكيب على اتصّال بالخديوي عبّاس حلمي الذي كان يسعى في كنف السرّية إلى استعادة عرش مصر مجدّدا.

ولئن أثارت شخصية شكيب أرسلان كلّ هذا الجدل في حياتها، وشغلت كلّ أوساط معاصريها الفكرية منها والسياسية، العربية والأجنبية على حدّ سواء لحركيتها الدائبة الفعّالة، فإنّ جذوة ذكراها قد خبت، واكتنف الإهمال والنسيان سيرة صاحبها من قبل الجيل الجديد من المثقفين عامة والباحثين على وجه أخصّ. لذا وفاء منّا لما أسداه الأمير شكيب أرسلان للفكر والسياسة العربية-الإسلامية في العصر الحديث مشرقا، ومغربا، سعينا إلى إيفائه حقّه علينا باختيار شخصيته الفكرية والسياسية موضوعا لبحثنا عسانا نرفع عنه ما أصابه من غبن خاصّة وأنّ الكتب التي ألفت حوله، هي إجمالا قليلة لا تتماشى بالمرّة والمنزلة التي كان يحظى بها في عصره، وبين معاصريه العرب منهم والأجانب. وهي مؤلفات تعكس تنوّع اهتمامات أصحابها، وتعدّد مقاصدهم من ورائها. فمنهم من تناول الجانب الأدبي واللغوي والأسلوبي من شخصية الأمير شكيب أرسلان، كما كان الشأن بالنسبة لأثري الشيخ أحمد الشرباصي: "أمير البيان: شكيب أرسلان، و"أدب أمير البيان"(2)، ومنهم من سعى إلى الإلمام بعديد جوانب شخصية شكيب الفكرية منها والسياسية على غرار الشيخ أحمد الشرباصي نفسه في أثره: "شكيب أرسلان: داعية العروبة والإسلام"(3)، حيث تناول حياته ومصادر فكره وعروبته وإسلامه وأخلاقه وصفاته صحافيا وخطيبا ومؤرخا... ومنهم من رام إيراد سيرة شكيب الذاتية والتعريف بآثاره وصفا وتحليلا مجملا كما كان شأن الدكتور سامي الدّهان في أثره: "شكيب أرسلان: حياته وآثاره(4)، بينما نجد من عمد إلى الجمع والتوثيق كالدكتور سعود المولي في كتابه: "شكيب أرسلان: مختارات نقدية في اللغة والتاريخ والأدب"(5)، والذي ضمّنه عديد المقالات المتناثرة لشكيب في حقول اللغة

والتاريخ والأدب قدّمها مبوّبة ومرتّبة.وقد نسج على نفس المنوال محمد علي الطاهر الصحفي في كتابه: "ذكرى الأمير شكيب أرسلان(6)، والذي جمع فيه وضمّنه كلّ ما قيل وكتب عن الأمير شكيب أرسلان بمناسبة وفاته.

غير أنّ هذه الكتب على ما فيها من فائدة أحيانا، غالبا ما نجد مضامينها ضئيلة خلافا لعناوينها البرّاقة أو أحجامها الكثيفة لافتقادها النظرة النقدية والمنهج التأليفي مما جعلها تتسّم بالتعميم وتسقط في السطحية مثلما هو الشأن بالنسبة لمؤلفات الشيخ أحمد الشرباصي الثلاثة السالفة الذكر، والتي على ضخامة حجمها فإنّ حظّ التحليل والاستنتاج فيها قليل.ولعلّ صاحبها قد ارتاح إلى المادّة الوثائقية الغزيرة التي توفّرت له من كتب شكيب أرسلان المطبوعة وحتّى المخطوطة وسائر مؤلفاته الصحفية المنشورة منها، والتي لم تنشر وكذلك مراسلاته الخاصّة لأصدقائه، فأبى إلاّ أن يوردها على علاتها.وهي على ما تشتمل عليه من مادّة خام فإنّ قيمتها وثائقية أكثر منها علمية، وبذلك فإنّها تعتبر نماذج من الكتب الضعيفة علميا ونقديا يغلب عليها طابع الجمع والتوثيق.وما ذكرناه عن مؤلفات الشيخ أحمد الشرباصي هذه يصدق على كتب كلّ من سامي الدّهان وسعود المولى ومحمد علي الطاهر التي اتّسمت–هي الأخرى– بالجمع والتعميم وندرة الاستقراء والاستنتاج.

وما ذكرناه من مجموعة هذه المؤلفات التي تناول فيها أصحابها شخصية الأمير شكيب أرسلان يصحّ على المقالات الواردة في الدوريات والجرائد العربية التي رمنا الاستضاءة بها والاستفادة منها وقد استهوتنا عناوينها، حتّى إذا ما نظرنا فيها مستجلين قيمتها العلمية وجدناها –في أغلب الأحيان– لا تخرج عن المتواتر من مبذول الكلام، والمتداول من التفكير، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر مقال الدكتور محمد شيّا تحت عنوان: "مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان"(7).وهو مقال لا يعدو أن يكون كلاما عاما، قليل التحليل والغوص عن الأسباب والمسبّبات، سريع الاستنتاج الانطباعي الفاقد للحجّة المقنعة والدليل المدعّم بالبرهان إلى جانب طغيان الطابع التوثيقي على مادّته.

هذا ولم تسلم الفصول الواردة في الدوريات الأجنبية من هذه المآخذ المنهجية إذ تبيّنا من خلال إطلاعنا على بعض ما تسنّى لنا العثور عليه من هذه الفصول الأجنبية التي كتبها المستشرقون الأجانب عن الأمير شكيب أرسلان، أنّها لم تخرج–هي الأخرى–عن إيراد سيرة شكيب أرسلان الذاتية بتتّبع مراحل حياته بصفة عرضية تفتقد الاستقراء والتعمّق، وعلى سبيل المثال

لا الحصر الفصل الذي كتبه المستشرق: ليفيـــس بروفانســـال(Levis provincal) تحت عنوان:" الأمير شكيب أرسلان:"1869-1946"(8)، وقد قصره على تتّبع معالم سيرة شكيب الذاتية منذ الولادة حتّى الوفاة بصفة مجملة غلبت عليها الروح السردية.

وصفوة القول أنّ هذه الفصول التي كتبت عن الأمير شكيب أرسلان سواء في اللّسان العربي أو الأعجمي يكرّر بعضها بعضا في سرد معالم سيرته الذاتية وتناول جوانب محدودة من حياته العملية في حقل الفكر وعالم السياسة بصفة تغلب عليها السطحية، ويسمها التعميم، وتفتقد إلى روح البحث العلمي وما تقتضيه من استقراء وتمحيص واستنتاج.

لكلّ هذا، وأمام غياب دراسة علمية منهجية تتناول بالاستقصاء والتحليل والنقد السمات المميّزة لشخصية الأمير شكيب أرسلان فكرا ثقافيا ودينيا وسياسة نظرية وعملية فإنّنا اخترنا هذا البحث على الصيغة التي ورد عليها "شكيب أرسلان: مفكرا وسياسيا" اقتناعا منّا بأنّه سيمثّل إسهاما علميا فعّالا في استكناه معالم هذه الشخصية: الفكرية منها والسياسية، وما كان لها من إسهامات رائدة وفعّالة في مسار الثقافة العربية—الإسلامية، وبذلك فإنّ جدّة هذا البحث وطرافته تكمنان في محاولتنا استكمال جلّ النقائص التي تضمنتّها الكتابات التي تناولت شخصية الأمير شكيب أرسلان وسيرته الذاتية.

ثمّ إنّ ورود هذا البحث على صيغة" شكيب أرسلان: مفكرا وسياسيا" مثار للحيرة. ومبعث على التساؤل لفصلنا"المفكر" عن "السياسي" شكلا في مستوى الصياغة ومنهجا بتخصيص قسم مستقل لكلّ منهما إذ إلى أيّ حدّ يمكن الفصل بين الفكر والسياسة أو بين السياسة و الفكر؟

إنّنا—والحقّ يقال—تعمّدنا الفصل بين الفكر والسياسة بل افتعلناه تيسيرا للبحث، وتوضيحا للمنهج، حتّى يتسنّى لنا دراسة مجالات إبداع شكيب أرسلان الأدبي والفكري وأشكال نضاله السياسي، وما كان لها من دور في دفع مسار الفكر والسياسة في العالم العربي الإسلامي المعاصر.

كلّ ذلك، ونحن ندرك جيّدا أنّ كلا من الفكر والسياسة يشكلاّن وحدة متلاحمة متكاملة، وكلا لا يتجزأ، ووجهين لعملة واحدة تعامل بها شكيب أرسلان مع معاصريه سواء كانوا من أبناء جنسه العرب أو غرباء عنه أجانب، وبذلك فإنّ علاقتهما— في الجوهر—علاقة جدلية، تكاملية يتفاعل فيها كلّ منهما مع الآخر فيؤثر فيه ويتأثر به، ويوّجهه ويتوجّه به، وفضلا عن ذلك فإنّ

عدّة تساؤلات تطرح كإفراز لهذه العلاقة الجدلية بين الفكر والسياسة: كيف تؤثر السياسة في الفكر؟وكيف يؤثر الفكر في السياسة؟ما هي الجوامع المشتركة؟ وفيم تتمثل مواطن التباين؟ثمّ هل يحصل من هذا التفاعل بين الفكر والسياسة تطوّر في سلوك شكيب أرسلان المفكر و السياسي؟

وصفوة القول: هل أنّ شكيب أرسلان سياسي مفكّر أم مفكّر سياسي؟ وإن كان ذلك كذلك ففيم تكمن صلة الوصل بين شكيب المفكر و شكيب السياسي؟

إنّ طبيعة هذا البحث الذي يسعى إلى استقصاء فكر شكيب وسياسته تقتضي منّا توخي منهج استقرائي تحليلي لما تسنّى لنا العثور عليه من كتابات شكيب على تنوّع موادّها كتبا كانت أم فصولا، كلّ ذلك حتّى نتوصّل إلى استجلاء معالم فكره: مصادر وأبعادا وسمات سياسته المميّزة نظرية ومراسا. وما حفّ بهما من ملابسات شكلت مقوّماتهما، وأضفت عليهما طابع التفرّد في عصرهما لمزاوجة شكيب بين الإبداع الفكري والنضال السياسي. فكان علما من أعلام الفكر العربي المعاصر، وزعيما سياسيا يستنير بعميق تجربته وثاقب رأيه زعماء السياسة في عصره ملوكا كانوا أو رؤساء أو زعماء حركات تحرير مشرقية و مغاربية.

وقد عمدنا إلى تقسيم هذا البحث إلى أربعة أبواب، خصّصنا أوّلها لاستكشاف شخصية شكيب أرسلان المفكر من حيث نشأته الثقافية ومصادرها، ومعالم فكره الثقافي والديني، وتناولنا في ثانيها ما كان له من علاقات كثيرة، متينة الأواصر مع أبرز رجالات الفكر والأدب في عصره كالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والسيد جمال الدين الأفغاني، والسيد محمد رشيد، رضا وأمير الشعراء أحمد شوقي وغيرهم ممن كان لهم الأثر البليغ في تكوين شخصيته، وبلورة فكره وتحديد اتجاهاته واختياراته الثقافية، بينما عمدنا في الباب الثالث إلى تناول شخصية شكيب من خلال الكشف أشكال نضاله السياسي نظرية ومراسا، مبرزين العوامل التي حفزته على الاشتغال بالسياسة، وحدّدت مواقفه من قضايا أقطار أمته العربية - الإسلامية في سبيل التحرّر والاستقلال، ثمّ تخلصنا في الباب الرابع إلى الكشف عن علامات نضاله السياسي مشرقا ومغربا وما كان له من علاقات صداقة دالّة وعداء مع ساسة عصره العرب منهم والأجانب.

كلّ هذا، ورأينا أن نتّوج هذا البحث بفصل ختامي يكون بمثابة المحاولة النقدية لإسهامات شكيب أرسلان في مسار الفكر والسياسة العربية الإسلامية المعاصرة.

أمّا فهرس هذا البحث فقد خيّرنا أن يكون في شكل ثلاثة ملاحق، يتناول أوّلها: التعريف بآثار شكيب أرسلان مرتّبة حسب تاريخ ظهورها، في حين يتعلّق ثانيها بالتعريف بمراجع البحث مرتّبة حسب ألقاب مؤلفيها، بينما يخصّ ثالثها أسماء الإعلام المذكورين في البحث مرتبه ترتيبا أبجديا حسب الألقاب.

و لما كان هذا العمل في الأصل رسالة جاميعة، نلنا بها شهادة التعمق في البحث عام 1985، من كليّة الآداب و العلوم الإنسانية، بالجامعة التونسية، لا يسعنا إلاّ أن نتوجه بخالص الشكر لأستاذنا منجي الشملي الذي تولّى الإشراف عليه عرفانا منّا لكلّ ما قدّمه لنا من توجيه و عون في سبيل إنجازه. وإلى الأستاذين محمد اليعلاوي. وفرحات الدشرواي اللذين تفضلا بمناقشته، وأبديا فيه سديد الآراء التي أخذنا بها في مراجعته، وإخراجه على هذه الصورة التي انتهى إليها.

الهوامـــــش

1) الشرباصي، أحمد: شكيب ارسلان داعية العروبة والإسلام. بيروت، دار الجيل، ط2، 1978، ص42.

2) الشرباصي، أحمد:
- أمير البيان شكيب أرسلان، (جزآن)، القاهرة، 1963
- أدب أمير البيان: القاهرة، الدار القومية للطباعة و النشر، 1964.

3) الشرباصي، أحمد: شكيب ارسلان داعية العروبة والإسلام. بيروت، دار الجيل ط2، 1978، ص42.

4) الدهّان، سامي: شكيب أرسلان حياته و آثاره، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1976.

5) الولي، سعود: شكيب أرسلان مختارات نقدية في اللغة و التاريخ و الأدب، بيروت، دار الكلمة للنشر، ط1، 1982

6) الطاهر، محمد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، القاهرة(ضمّ كلّ ما قيل أو كتب عن الأمير في تأبينه بعد وفاته)مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه بمصر، ط1، 1947.

7) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، مجلّة: الفكر العربي، عدد 11 سبتمبر-أكتوبر، السنة الثالثة، 1981.

8) Provencal (Levis): «L'émir Shakib Arsalan :1969-1946» Cahiers de l'orient contemporain. Vol.IX et X.4ème année 1er et 2ème trimestre 1947. Centre d'études de l'Orient Contemporain de l'institut d'études islamiques de l'université de Paris pp.5.19.

الباب الأول

شكيب أرسلان المفكّر

الفصــل الأوّل

نشأة شكيب أرسلان الثقافية

و مصادر فكـره

إنّ البحث في نشأة شكيب أرسلان الثقافية واستقصاء مصادر فكره واستقرائها -قبل التطرّق إلى دراسة معالم هذا الفكر وأبعاده-يعدّ مسألة بالغة الأهمية،ولا تخلو من عسر،ذلك أنّ الكشف عن نشأته،ومصادر تكوّنه فإبداعه يسمح لنا بادراك جذور الفكر الأرسلاني على تعدّد أوجه نشاطه،الثقافية منها والدينية،إضافة إلى التوصّل إلى معرفة العوامل المتنوّعة التي ساهمت في تكوين معالم هذا الفكر،وتشكيل مقوّماتها الأساسية،وتحديد أبعادها،وإكسابها- في الآن نفسه -سمة الفاعلية و التفرّد في مسار الفكر العربي- الإسلامي المعاصر.

1- نشأة شكيب أرسلان الثقافية

إنّ قراءة استقرائية لكتابات شكيب أرسلان الفكرية في حقول الشعر والأدب والتاريخ والتحقيق والترجمة والدين سمحت لنا باستكشاف عوامل ثلاثة ساهمت بفاعلية في نحت معالم الفكر الأرسلاني تنشئة وتكوينا فإنضاجا.وهي:البيئة العائلية،ثمّ بيئة بيروت الثقافية،وأخيرا حياته العملية وما تميّزت به من أسفار و تنقلات.

ورغم يقيننا بتفاعل كلّ هذه العوامل مع بعضها البعض فإنّنا سنتناول دراسة كلّ منها على حدة تيسيرا للبحث و توضيحا للمنهج.

1-1- البيئـة العائلية

إنّ البيئه الأرسلانية التي نشأ في أكنافها شكيب أرسلان هي التي هيّأته- بالدرجة الأولى-كي يكون مثّقفا غزير العلم،واسع المعرفة،وذلك بتوفيرها له المناخ الملائم لتحصيل المعارف و الإقبال عليها،فآل أرسلان عائلة سرية،تليدة المجد السياسي والفكري في مسار التاريخ العربي-الإسلامي،إذ كان أبوه حمود(1)مجيدا للعربية،حاذقا للتركية،واسع المعرفة بالأدب والشعر-اللذين كانت له فيهما مساهمات عديدة لثراء مكتبته العربية من جهة،وشغفه

بالمطالعة من أحرى. فضلا عن بالغ استفادة شكيب من كنوز التراث العربي— الإسلامي التي كانت تشتمل عليها مكتبة والده، فقد أحاطه هذا الأخير بكامل رعايته حيث انتدب له معلما هو الشيخ مرعي شاهين سلمان لتعليمه القراءة والكتابة، كما خصّص له معلما آخر يدعى أسعد أفندي نادر ليقرئه القرآن الذي حفظ منه الكثير، ثمّ أدخله بعد ذلك إحدى المدارس الأمريكية بقرية الشويفات أين قرأ الإنجيل واطلع على مزامير داود مع شيء من الجغرافية والحساب، وألحقه فيما بعد بمدرسة الحكمة ببيروت التي مكث يدرس بها مدّة سبع سنوات(1886-1897)والتحق بعدها بالمدرسة السلطانية.

ولقد كان لهذه الرعاية الفائقة التي لقيها شكيب أرسلان من عائلته الأثر العميق في انبثاق مواهبه الشعرية منذ الحداثة، حيث نظم الشعر ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وفي إقباله على مطالعة فرائد الفكر العربي: أدبا وشعرا وتاريخا.

1-2- بيئة بيروت الثقافية

كانت السمة المميزة لأجواء بيروت الثقافية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الحركية وتنوّع النشاط الفكري إذ كانت تزخر بمشاهير أيّمة الفقه وأعلام الأدب والشعر وفطاحل اللغة الذين استقطبت حلقات دروسهم ومجالس علمهم ومنتديات أدبهم وشعرهم ومناظرات فقهم ولغتهم الكثير من طلبة العلوم والمعارف من كلّ الأمصار والأصقاع على اختلاف الأجناس والمذاهب والملل والنحل. كلّ هذا ينضاف إلى ما كانت تزخر به بيروت من مدارس ومعاهد علم وكليات وحركية إعلامية خصبة جسّدتها الصحف والمجلاّت المتنوّعة التي كانت تنقل هذه الحركية العلمية— الأدبية—بما تفرزه من إبداعات— عبر صفحاتها — فكانت مرآة بيروت الثقافية.

وقد وجد شكيب أرسلان في حركية بيئة بيروت الثقافية و خصوبة نشاطها الفكري—والأدبي ضالته المنشودة لفكره التوّاق إلى العلم والمعرفة، ومواهبه الفطرية المتحفزّة للبروز لما كان يمتاز به من نبوغ مبكر وولع شديد بالتحصيل والدرس ممّا حفزه على الإقبال على روافد العلم والمعرفة ينهل منها سواء في فصول الدراسة بمدرسة الحكمة ببيروت، فالمدرسة السلطانية أو من خلال حضوره ما كان يعقد في المجالس المتنوّعة النشاط التي كان يرتادها. وقد مكّنته من الاتّصال بالصفوة المختارة من أعلام الفكر والأدب كالشيخ عبد الله البستاني(1854-1930) وروّاد النهضة والإصلاح كالأستاذ الإمام الشيخ محمد

عبده(1266هـ-1323هـ)،فاقتبس من علومهم ونهل من معارفهم ما وسعه خاطره،مما أكسب ثقافته سمة التنوّع والثراء،وساهم بفعالية في تفجير مواهبه الأدبية،وأضفى على فكره سمة التفرّد بين معاصريه الذين كانوا ينسبون قصائده لهذه المرحلة إلى أستاذه الشيخ عبد الله البستاني.فكان شكيب يرّد على هؤلاء شعرا بقوله:

و لقد يلوح البدر قبل تمامــه ٭ و يفوح عرف الورد في الأكمام
أنا شاعر لكن بتقصيري و إن ٭ أقف الزمان على ثناك ملامي (1)

ثمّ أخذ ينظم الشعر تباعا،فتنشره له الصحف إلى أن أقرّ له الناس بنبوغه المبكّر وموهبته الشعرية الفذّة التي مكنّته من إصدار ديوانه الأوّل:"الباكورة" في غضون سنة 1887 ولم يتّم بعد السابعة عشرة.

و نعتقد أنّ هذا النبوغ الشعري المبكّر قد حوّل إليه أنظار معاصريه من رجال الفكر والأدب والشعر داخل وطنه لبنان و خارجه،والذين انعقدت بينه وبين الكثير منهم أواصر صداقات متينة بطريقة مباشرة أو حتّى عبر المراسلة، أفاد منها شكيب كلّ الإفادة في مرحلة التلقي و التكوين.

ولعلّ إلى جانب الدور الأساسي الذي لعبته العائلة الأرسلانية في تنشئة شكيب أرسلان الثقافية والمساهمة الفعّالة التي اضطلعت بها بيئة بيروت الثقافية في تعميق تكوينه الثقافي،و توسيع معارفه و صقل مواهبه يجدر بنا أن نبرز الدور الهام الذي لعبته أسفاره وتنقلاته في إثراء فكره.

1-3- الأسفــار و التنقلات

تميّزت حياة شكيب أرسلان العملية بتعدّد الأسفار و كثرة التنقلاّت بين مختلف الأقطار الشرقية والغربية.وسواء كانت هذه الأسفار تدخل في إطار المهمّات الرسمية أو السياحة فإنّ شكيب أرسلان قد أفاد منها كلّ الإفادة. فتعمّقت ثقافته.واتّسعت معارفه ونضج فكره.فقد كان يبادر عند نزوله بأيّ مدينة بزيارة مكتباتها قصد استكشاف ما تزخر به من كنوز التراث العربي القديم علوما وآدابا.ففي زياراته لمصر.واسطنبول،وألمانيا،و النمسا،و فرنسا والبلقان.والحجاز وروسيا والأندلس،كان يأخذ نفسه بالإطلاّع على كنوز المخطوطات العربية النفيسة والنادرة.المتناثرة في المتاحف والمكتبات،والتي تؤلف ثروة الأمة العربية الأدبية والعلمية والحضارية بصفة عامّة،فيستفيد منها.ويسعى إلى إفادة بني قومه العرب وبني ملّته المسلمين بتحقيقها لهم، والتعريف بها وبقيمتها بينهم من خلال ما يضيفه إليها من حواشي وتعاليق

وشروح لمبهماتها وغوامضها.وفضلا عن هذه العوامل الثلاثة التّي مثّلت الأسس التي انبنت عليها تنشئة شكيب أرسلان الثقافية يجدر بنا أن نستقصي المصادر العربية والأجنبية القديمة والحديثة التي ساهمت متفاعلة في نحت معالم الفكر الأرسلاني، وتشكيل مقوّماته، وتحديد اتجاهاته.

2- مصادر الفكر الأرسلاني

تتميّز المصادر التي استقى من مضّانها شكيب أرسلان مقوّمات فكره ومبادئ منهجه.دلالات وأبعادا بكونها عربية أصيلة من جهة وأجنبية معاصرة من جهة ثانية:

2-1- المصادر العربية

تنقسم المصادر العربية التي ساهمت في تكوين فكر شكيب أرسلان، وإثرائه وبلورة معالمه.وتحديد اتجاهاته وأبعاده إلى قسمين أساسيين،لكلّ منهما سماته المفيدة وإن كانا في الجوهر يتكاملان من حيث دورهما الوظيفي في نحت مقوّمات الفكر الأرسلاني:

أ- المصـــادر التراثية

بكّر شكيب أرسلان منذ حداثته إلى الاغتراف من مصادر التراث العربي الإسلامي على تنوّع مضانّها في اللّغة والأدب و التاريخ والاجتماع والفقه فطالع أمّهات الآثار التي جادت بها قرائح السلف في شتّى الحقول المعرفية وتأثّر بأساليب أصحابها.فأثرى فكره بما احتوته من مضامين.وأمعن النظر فيها فحصا وتمحيصا وكان يعيد قراءة بعضها في عديد المناسبات لما يكتشفه فيها كلّ مرّة من متعة فكر و غذاء روح.

فقد أقبل شكيب أرسلان على مطالعة رسائل أبي إسحاق الصابي(313هـ-384هـ) وأنعم فيها النظر مرارا لما وجده في مضّانها من إفادة و متعة دفعتاه إلى تحقيقها والتعليق عليها ونشر جزء منها سنة 1898.وإنّنا لنلمس آثار أبي إسحاق في أسلوب شكيب أرسلان الذي ترسّمه في بيانه و سجعه خاصّة عند إنشاء مقدّمات كتبه.

وأقبل على مطالعة آثار الأديب عبد الله ابن المقفع(106هـ-142هـ) دون استثناء.فقرأ" الدرّة اليتيمة"التي أبى إلاّ أن يقوم بتحقيقها.والتعليق عليها. ونشرها في غضون سنة1910.حتّى يفيد بها العرب والمسلمين لما تضمّنته من علامات تكشف عن عبقرية مبدعها.إذ هي:"حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لبّه.وحماطة قلبه.وأن يجعلها دستور إنشائه ومثال احتذائه"(2).ثمّ

طالع "كليلة ودمنة"، و"الأدب الصغير"، و"الأدب الكبير"، بل ولشدّة إعجابه بهذه الآثار شكلا ومحتوى عمد إلى حفظ مختارات منها إذ يقول: "حفظت لعهد الحداثة شيئا من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع كما أنّ جميع ما كتبه ابن المقفع يصحّ أن يكون مثالا يحتذى سواء في " كليلة و دمنة" أو في أدبه الصغير والكبير"(3).

وفضلا عن كلّ ذلك، فقد أقبل شكيب على مطالعة كتابات أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: (775م-868م) "البخلاء" و"البيان والتبيين" و"الحيوان" لفصاحة بيانها، وثراء مضامينها، وتنوّع مواضيعها، مما يعكس خصب قريحة صاحبها ونبل أبعاده من ورائها. فقد جمع فيها بين الإفادة والإمتاع بقوله: "كتب الجاحظ عمدة كافية في هذا العلم وبلغة جازية في إشباع من فهمها كلّ الفهم."(4)

واطّلع على موسوعة أبي الفرج الأصفهاني (284هـ-356هـ) المسمّاة بـ "الأغاني"، والتي شملت كلّ العلوم وضمّت كلّ الآداب والفنون وكانت جمّة الفوائد، كثيرة الإمتاع لشكيب الذي تحدّث عنها مثنيا بقوله: "...وطالعت الأغاني الذي من فاته الإطلاع عليه فقد فاته أكثر جمال اللسان وكان معذورا في ضيق الذراع وقصر الباع"(5).

وأنعم النظر في رسائل أبي بكر الخوارزمي (928م-993م) فأعجب بها، وتجاوب ومضامينها وتأثّر بأساليبها، فحفظ منها منتخبات صار يستظهرها دون تكلّف لرشاقة أسلوبها، وأقبل على مقامات بديع الزمان الهمذاني (969م-1007م) والحريري (1055م-1122م) ورسائلهما يطالعها ويستفيد منها كلّ الاستفادة لثراء لغتها، وفصاحة بيانها، وبديع أسلوبها مما حفزه على حفظ مختارات منها لأنّه رأى أنّ حفظها يساعد الأديب المبتدئ -مثله- على إثراء مخزونه اللغوي، وتهذيب أساليبه التعبيرية.

وإضافة إلى هذه المصادر التراثية العربية الإسلامية لأساطين الفكر والأدب واللغة فقد شملت قراءات شكيب أرسلان جلّ المصادر التراثية التاريخية لابن الأثير (585هـ-637هـ)، وياقوت الحموي (1179-1229م)، وابن عساكر (550هـ-620هـ). وشمس الدين الذهبي (ت738م). وأبوشامة، وابن شدّاد، وابن النديم (ت385هـ). وابن خلكان، (608هـ-681هـ)، وابن قاضي شهبة، وشمس الدّين بن طولون (880-953هـ) وصلاح الصفدي (696-764هـ) وابن جبير، في رحلته، وابن سعد، في طبقاته الكبرى والطبري (224هـ-310هـ)، في تاريخه وغيرهم

كثير ممن لا يسعهم حصر.

وتتويجا لهذه المحاولة الاستقصائية—الاستقرائية لقراءات شكيب أرسلان التراثية. يجدر بنا أن نكشف عن إعجابه بالعلامة المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون(1332م-1406م)واستفادته من كتاباته لطرافة فكر صاحبها وطلاوة أسلوبه. ويصوغ هذا الإعجاب في مقدّمة تعليقه على تاريخ ابن خلدون قائلا: "...ولقد كان لمحرّر هذه السطور من أوّل ما بلغت سنّ الحلم ولوع خاص بمقدّمة ابن خلدون العبقري العظيم، إلا أنّي كنت أطالعها المرّة بعد المرّة، و في كلّ مرّة أجد لها طلاوة لا تمثّل. وأكتشف فيها أسرارا جديدة لم تكن انكشفت لي في الأوّل وأشرف منها على آراء طريفة، ومباحث لطيفة، كنت أحاول عبثا العثور عليها في غير هذه المقدّمة التي لا تخلق ديباجتها...

لم يكن إعجابي بما في كلام ابن خلدون من مبادئ سامية و أقوال سديدة و أنظار فريدة يعزّ وجودها في كتب غيره من أساطين الحكمة بأقلّ من إعجابي ببلاغة عبارته و رصانة أسلوبه وجلالة تقريره...

ولعلّ عشقي أسلوب هذا الإمام في كتابة التاريخ وغرامي بطريقته في تحليل النوازل وتقرير طبائع العمران قد ترك في ملكتي أثرا بلغ من العمق أنّه قلما يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري. والإفضاء بجلاجل نفسي وخوانس صدري ..."(6). غير أنّ شكيب أرسلان فضلا عن غوصه في مضانّ التراث العربي—الإسلامي القديم على تنوّع موادّها. وحسن تمثّله لها أبى إلاّ أن يجمع إلى ثقافة أسلافه الأصيلة ثقافة معاصريه من العرب في شتّى حقول العلم والعرفان. كلّ ذلك حتّى يكسب فكره سمة التكامل الثقافي بمزاوجته بين الأصالة التراثية والمعاصرة الثقافية.

ب- قراءات شكيب في الفكر العربي الحديث و علاقاته بأعلامه

بدأ اطّلاع شكيب أرسلان على معالم الفكر العربي المعاصر من خلال إقباله المبكر على متابعة الصحف والمجلات العربية الصادرة ببيروت أو الواردة إليها من عديد العواصم العربية لما كانت تزخر به من مقالات ثرية متنوّعة في الأدب والشعر واللغة و التاريخ والإصلاح الديني والاجتماعي و السياسي.

وفضلا عن ذلك فقد انكبّ منذ حداثته على مطالعة كتابات معاصريه من الأدباء والشعراء واللغويين والمؤرّخين إلى جانب المفكرين من روّاد النهضة والإصلاح فتأثّر بهم. وسعى إلى ترسّم مسالك أدبهم واتجاهات فكرهم أغراضا وجماليات أساليب. إضافة إلى ربطه وعددا منهم علاقات صداقـــة متينة زادت

فكره خصبا، ومواهبه لقاحا ونضجا.

فقد أقبل في سنّ مبكرة على النظر في كتابات المصلح والمؤرّخ واللغوي: أحمد فارس الشدياق(1801-1887)يستفيد مما اشتملت عليه مضانّها من علوم ومعارف جعلته يتأثّر به في بعض كتاباته التاريخية مثلما كان شأنه في كتابه: "غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط".(7) وقد عني فيه- شأن الشدياق- بالحديث عن الكتابات والحفريات والآثار ونقل عنه الكثير من المعلومات المتعلّقة بمالطا من كتابه"الواسطة في أحكام مالطة"، و روى منه الكلمات التي يلفظها أهل مالطة لعصره، وتأثّر به كذلك في كتابه" الحلل السندسية في الأخبار والآثار أندلسية"(8)في دفاعه عن العرب وحضارتهم في أوروبا بإبراز ما كان لهم من مجد حضاري، غير أنّ شكيب لم يقف تأثّره عند فكر أحمد فارس الشدياق فحسب بل تجاوزه إلى الأسلوب، حيث نستشف من أشعاره الأولى وترّسله نفحات من سرد الشدياق وألفاظه، ولا غرابة في ذلك إذ كان يفضّله عن بقية أدباء عصره.

وأقبل شكيب على مطالعة أشعار محمود سامي البارودي(1838م-1904 م) التي وجهه إليها الأستاذ الإمام محمّد عبده.قد فأعجبَ بها وحفظ منتحبات منها وتاق إلى لقاء ناظمها الذي جمعته به فيما بعد أواصر صداقة حميمة جسّدتها مساجلاتهما الشعرية.

وفي غضون هذه المرحلة بالذات أقبل على مطالعة أشعار عبد الله فكري (ت 1889م). التي لقيت صدى طيبا.في فكره ووجدانه.فانعقدت بينه وصاحبها صداقة متينة جسّدتها مساجلاتهما الشعرية.

وكان يتابع ما كان ينظمه الشاعر ابراهيم اليازجي(1947- 1906م)الذي كانت له معه مناقشات عديدة في مسائل لغوية متنوّعة إضافة إلى المساجلات الشعرية التي تمت بينهما.

كلّ هذا. ولا بدّ من إبراز الدور الفعّال الذي قام به رواد النهضة والإصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني (1254هـ-1314هـ)والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا (1865-1935م)في تكوين الفكر الأرسلاني مباشرة عن طريق الالتقاء أو غير مباشرة عن طريق التراسل ومطالعة ما كانوا ينشرونه من مقالات في الصحف والمجلات العربية.

وقد استفاد شكيب أرسلان فضلا عمّن ذكرناهم من أعلام الفكر والأدب العربي المعاصر من الكثير من الأعلام الآخرين. الذين لا يسعهم الحصر ويضيق

دونهم الذكر. كلّ ذلك لأنّه تميّز منذ حداثته بشغفه اللامحدود بالقراءة والذي يؤكده قوله: "ما أحببت طول حياتي في وقت، مثل الوقت الذي أطالع فيه. هناك يعزّ الفراق"(9). وتؤكد زوجته هذا الإقبال اللامتناهي على المطالعة في معرض حديثها عنه قائلة: "...إنّ حياته كلها كانت قراءة وكتابة ولم يكن عنده وقت للجلوس مع أبنائه أو للمشاركة في تعليمهم"(10) ويكشف شكيب عن سلوكه المتطرف في الإقبال على الكتب في عديد رسائله إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا. والتي يشكو له فيها آلام عينيه بسبب إدمان القراءة: ويصف له ما كان يستعمله من وسائل علاج للتخفيف منها، إلاّ أنّه وقد استقى غزير العلوم والمعارف مما طالعه من زاد السلف التراثي، وزاد معاصريه الحديث فإنّه رأى أنّ الإطلاع على مصادر الثقافات الأجنبية شيء ضروري لتحقيق التكامل والتوازن لفكره الذي يكون بهذه الكيفية متجذّرا في تربة الأصالة العربية — الإسلامية و آخذا في الآن نفسه بأسباب المعاصرة الثقافية الغربية.

2-2- المصادر الأجنبيـة

تعلّم شكيب أرسلان مبادئ اللغة الفرنسية بمدرسة الحكمة ببيروت أثناء مرحلة التلقي. ثمّ سمحت له زياراته إلى فرنسا بإثراء زاده منها، وتسنّي له حذقها وامتلاك نواصيها عند استقراره نهائيا بأوروبا منفيا من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية بسبب نضاله السياسي، فاستغل إقامته بديار المنفى في مطالعة الكثير من إبداعات المفكرين والأدباء الفرنسيين القدامى منهم والمحدثين. فطالع لفولتير(1694-1778) ولراسين(1639-1699) وغيرهما من أعلام النهضة الفرنسية الحديثة كما قرأ لبلزاك(1799-1850) وشاتوبريان (1769-1848) وأناتول فرانس(1844-1924) وغيرهم من أدباء فرنسا وشعرائها.

ولقد سمحت له سعة ثقافته الفرنسية أن ينتخب بعض الروائع الأدبية والفكرية واللغوية والتاريخية فينقلها إلى اللسان العربي حتى يفيد بها بني أمته العرب فعمد إلى ترجمة رواية "وقائع آخر بني سراج" للأديب شاتوبريان (11) وكتاب "درابر" الآختلاف بين العلم والدين"، وكتاب" أناتول فرانس في مباذلة "لجان جاك بروسان(12)... وينضاف إلى هذه الترجمات عديد البحوث والمقالات التي نقلها عن المفكرين الفرنسيين وأثرى بها كتاباته.

ولم يقتصر على العكوف على مطالعة هذه المصادر فحسب بل كانت له عديد الاتصالات بمفكري فرنسا وأدبائها وشعرائها و علامائها المعاصرين له.

وفضلا عن امتلاكه اللغة الفرنسية فقد سمحت له سفراته المتكرّرة إلى ألمانيا بتعلّم اللغة الألمانية والاطلاع على عديد مصادر أعلام فكرها أدبا و شعرا من ذلك اطلاعه على أشعار شاعر الألمان الأكبر "غوته"(1749-1832م)والتي أعجب بها شديد الإعجاب فبوّأ ناظمها مكانة مرموقة،حيث يتحدث عنه بقوله:..."أكبر شاعر ألماني،ومن أكبر شعراء الكرة الأرضية وفخر اللغة الألمانية والمتكلمين بها وندر أن يكون قلب أحد شغف بحب الجمال والحق ما شغفه قلب جوته."(13)

وفي غضون إحدى زياراته لألمانيا أبى إلاّ أن يؤدي زيارة إلى بيت غوته ألهمته الأبيات التالية التي أثنى فيها على هذا الشاعر،وأفصح عن عميق إعجابه به،بقوله:

"مذ قيل: هذا بيت غوته زرته	إذ كان للشعراء كعبة القصّاد
هو سيّـد الشعراء عند قبيلـــــه	منه بجيد الدهر عقد فرائــد
طأطأت رأس قريـحتي في بابـه	و لكم رأت عتباته من ساجد
إن لم يكن من أمتي و عشيـرتي	فالناس في الآداب تتواحــــد
"أو فإنّنا نسب يؤلف بينـــــنا	أدب أقمناه مقام الوالدة"(14)

ولمّا أتقن شكيب أرسلان اللغة الألمانية بادر إلى ترجمة كتاب المؤرخ الألماني" كيللر" الذي ألفه عن " غزوات العرب في سويسرا."

وتعلّم شكيب اللغة الانغليزية فطالع عديد آثار مفكريها القدامى والمحدثين.غير أنّه لم يقتصر على هذه المطالعات الغزيرة والمتنوّعة في الفكر الغربي بل سعى الى إنشاء أواصر صداقات عديدة مع أعلامه الذين أثّروا في فكره من ذلك العالم الهولندي الأصل الأمريكي المولد والنشأة الدكتور كرنيليوس فانديك،الذي تحدّث عنه في مضان ترجمته لكتاب العلامة درابر"اختلاف العلم والدين"بقوله:"...أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك الذي كان لي عليه تردّد كثير،وكان له نحوي ميل شديد،وكنت ممن يستضيء بآرائه"(15) .

وهكذا فقد نهل شكيب أرسلان من ينابيع الفكر الغربي ما لم يتسنّ لغيره، واستفاد من مصادره كلّ الاستفادة سواء القديمة منها أو الحديثة مما سمح له باستقراء معالم هذا الفكر و أبعاده إلى درجة لا يضاهيه فيها أحد إذ يقول:"...ولا أقول أنّي قرأت كلّ ما كتب الأوروبيون عن الشرق و الشرقيين

وأحطت بهذه المسألة علما،ولا أحد يقدر أن يدّعي هذه الإحاطة،ولكنّي قرأت بدون شكّ في هذا الباب ما يندر أن يكون تيّسر مثله لغيري."(16).

وصفوة القول انّ الفكر الأرسلاني هو ثمرة بيئته العائلية التي نشأ في كنفها. وبيئة بيروت الثقافية التي تفاعل مع أجوائها الحركية وكذلك أسفاره وتنقلاته المتواصلة عبر البلاد الشرقية والغربية.كلّ ذلك أكسب فكره سمات المعرفة الواسعة والمتنوّعة للمصادر العربية.والأجنبية القديمة منها والحديثة. إضافة إلى تعدّد علاقاته مع أعلام الفكر في عصره و التي فتقّت نبوغه المبكّر.

الهوامـــش

1) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، بيروت، دار الطليعة للطباعة و النشر، الطبعة الأولى، 1969، ص27.

2) ابن المقفع، عبد الله، الدرّة اليتيمة، تحقيق و تصحيح الأمير شكيب أرسلان، بيروت المطبعة الأدبية، ط1، 1893، القاهرة، مطبعة الجامعة، ط2، 1910، المقدمة.

3) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الأول، القاهرة، 1963، ص141، نقلا عن رسائل مصطفى صادق الرافعي، ص9، وكذلك عن مقال، في "المؤيد"، بتاريخ 3 فبراير 1912.

4) نفس المرجع: ص141.

5) نفس المرجع: ص 141

6) ابن خلدون، عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تعليق شكيب أرسلان، الجزآن الأول و الثاني، القاهرة، مطبعة النهضة، الطبعة الأولى، سنة 1355 هـ-1936 م. المقدمة، ص: ن.س.

7) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة و إيطالية وجزائر البحر المتوسط، القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه بمصر، الطبعة الأولى، سنة 1352 هـ-1933م.

8) أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية، القاهرة، المطبعة الرحمانية، (3 أجزاء)، 1936-1939.

9) الشرباصي، أحمد: الأمير شكيب أرسلان، داعية العروبة والإسلام، ص238.

10) نفس المرجع: ص 238.

11) شاتوبريان: آخر بني سراج، (رواية)، ترجمة شكيب أرسلان، القاهرة، مطبعة المنار، الطبعة الثانية، سنة 1343 هـ-1925 م-وقد أضاف إليها شكيب أرسلان ملحقا من ثلاثة أقسام:

- خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، تأليف شكيب أرسلان.
- أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر-لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس-تحقيق شكيب أرسلان.
- إثارة تاريخية سلطانية: أربعة كتب سلطانية صادرة عن أبي الحسن

- علي بن أبى النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة. تحقيق شكيب أرسلان.

12) بروسان، جان جاك: أناتول فرانس في مباذله، مع كتاب لنقولا سيفور في أناتول فرانس، ترجمه و قدّم له وعلق عليه شكيب أرسلان، القاهرة، المطبعة العصرية، الطبعة الأولى. 1345هـ-1926 م.

13) نفس المصدر: ص258

14) نفس المصدر: ص 258-259

15) ستودارد. لوثروب: حاضر العالم الإسلامي. (أربعة أجزاء)، ترجمة عجاج نويهض. تعليقات شكيب أرسلان. القاهرة، المطبعة السلفية، 1925، الجزء الأول. ص 142. الطبعة الثانية، بيروت، مطبعة دار الفكر. 1947.

16) أرسلان. شكيب. مجلة المجمع العلمي العربي. المجلد 11، ص 451.

الفصـل الثانـي

تجربة شكيب أرســلان الشعرية
بين النظرية و الممارســة

إنّ نضج ملكة شكيب أرسلان الشعرية وتفتّقها في سنّ مبكرة لأمر يثير الحيرة ويبعث على التساؤل عن العوامل الكامنة وراء بروز هذه العبقرية الشعرية الفذّة التي اعترف بها معاصروها بعد تردّد، وصدّقوا ما كانت تجود به من شعر عربي جزل، سليم الوزن، فصيح العبارة، متين التركيب، عذب الإيقاع.

لقد تضافرت مجموعة من العوامل التي ساهمت بفعالية في قدح موهبته الشعرية و صقلها و توجيهها، يتمثّل أبرزها في :

أ- تأصّل موهبة الشعر في الأسرة الأرسلانية ذات النسب العربي، والحرص الشديد على الحفاظ على التراث العربي أدبا و شعرا، إذ كان والده حمود أرسلان أديبا شاعرا له العديد من المنظومات الشعرية، وكان أخواه نسيب (1)وعادل(2)شاعرين مجيدين. و لقد كان نسيب دائب الحثّ لأخيه شكيب على نظم الشعر، و من أكبر المشجعين له على المضي فيه قدما.

ب- حفظ شكيب أرسلان- منذ حداثته- الكثير من عيون الشعر العربي القديم، والعكوف على مطالعتها، خاصّة وقد وجد في مكتبة والده الثرية خير معين له على ذلك لما كانت تزخر به من نفائس التراث القديم: الجاهلي منه والمخضرم والمولد.

ج- أثر أستاذه الأديب اللغوي الشيخ عبد الله البستاني في توجيهه إلى قراءة عيون الشعر القديم، خاصة وقد كان من المعجبين بشعر الفحول، البارعين في تقليده، فجعل شكيب يحتذي به فيما ينظمه من أشعار كان يصلحها له ويقدّمها.

د- أثر أمير الشعراء في عصره محمود سامي البارودي في صقل موهبته الشعرية وتهذيبها وإنضاجها من خلال مطالعته لشعره الذي أعجب به أيما إعجاب فحفظه كلّه وسعى إلى محاكاته إذ كان يعتبره شاعره المفضّل.

هـ- أثر بيئة المشرق العربي الثقافية التي كانت تشهد في نهاية القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين بداية النهضة الأدبية الحديثة. حيث برز شعراء ولعون بالشعر العربي القديم مطالعة وحفظا ومحاكاته نظما أمثال عبد الله فكري (ت1889م). وجميل صدقي الزهاوي(1863-1936). وأحمد شوقي(1868-1932) وحافظ إبراهيم(1872-1932)، وإسماعيل صبري (1854-1923م) وخليل مطران(1871-1949)ومن هم في مرتبتهم أو دونهم من شعراء العراق ومصر. كما صدرت في هذه الأثناء الكثير من الدواوين الشعرية ونشطت المراسلات والمساجلات الشعرية بين شعراء لبنان والعراق ومصر. وفضلا عن كلّ هذا فقد كانت الصحف المرآة العاكسة لهذه الحركية الأدبية بنشرها ما كان ينظمه الشعراء، ونقلها أخبار مجالسهم ومساجلاتهم.

وهكذا نستخلص من كلّ ما تقدّم أن نماء موهبة شكيب أرسلان الشعرية ونضجها يعودان أساسا إلى تضافر عدّة عوامل متفاعلة أهلته ليصبح علما شعريا بارزا بين أعلام الأدب و الشعر في عصره منذ حداثته.

1- التعريف بآثار شكيب أرسلان الشعرية

لقد أثمرت تجربة شكيب أرسلان الشعرية التي امتدّت على مدى يقارب النصف قرن أثرين. تمثّل" الباكورة" أولهما، في حين يمثل" الديوان" ثانيهما. وتكمن أهميّة تعريفهما في كشفها عديد المعالم الهامّة المميّزة لمسيرته الشعرية منذ الحداثة حتّى الشيخوخة.

1-1- الباكورة :(1884- 1887)

نظم شكيب أرسلان أشعار هذا الديوان الذي أطلق عليه اسم" الباكورة" في حداثته. عهد تلقيه العلوم والمعارف بكلّ من مدرسة الحكمة ببيروت والمدرسة السلطانية. وقد تواصل نظمه له ثلاث سنوات من سنة 1884 وهو في الرابعة عشر من العمر إلى حدود سنة 1887 و قد بلغ السابعة عشر.

وقد قام بنشره في نفس هذه السنة بالمطبعة الأدبية ببيروت ولم يعد نشره مجدّدا إلاّ سنة 1935. حيث ألحقه بديوانه بعد أن أجرى فيه الكثير من التعديلات في عناوين القصائد ومقدّماتها، كما قام بحذف قصائد بأكملها وإسقاط عديد الأبيات. دافعه في ذلك إبقاء ما يراه جديرا. فجاء هذا الديوان "الباكورة" مشتملا على 32 قصيدة في 1278 بيتا شعريا. وقد كشف شكيب عن الحوافز التي جعلته يقوم بهذه العملية الانتقائية لأشعار"الباكورة" الأصلية في المقدّمة بقوله: ".. فهذا أثر مما سمح به الخاطر والعمر في أوّل أطواره وجواد

القريحة في بدء مضماره...على أنّه لمّا كانت الباكورة مجموع منتخبات ومقتطف أنموذجات اقتضى أن أودعها أحاسن قصائدي و أطوي الباقي على غرّه...انتخبتها وليس من مقصدي نشر ديوان ولا التلبس بحالة من هذا الشأن بل إجابة لطلب بعضِ الأخوان كنت اعتذر إليهم بأنّها من عهد الطلب وهزّة الاقتبال والطرب و تطفل الحديث على الأدب بل عبث الوليد إذا شبّ.

فلمّا لم أر لعرضهم حدّا؛و لم أجد من إجابتهم بدّا اقتصرت على هذه الأنموذجات و أحسبني تطاولت جدّا فإن صادفت من الإقبال محلاّ و لاقت قبولا فذاك وإلاّ:

فقـد تزّيـا بالهـوى غير أهلـه . و يستصحب الإنسان مالا يلائمـه(3)

وقد قام شكيب بإهداء"باكورة" أشعاره هذه إلى أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده اعترافا له بفضله عليه،وإجلالا لعلومه ومعارفه،وتخليدا لصادق الودّ الذي طبع علاقته به.وقد جسّد هذا الإهداء في قصيدة قريض عدّد فيها شمائل الشيخ الأخلاقية و ميزاته الفكرية و صفاته العملية،مطلعها:

لـو هـاج مثل الفضل خاطر شـاعر ألقيت بين يدي سـواك بـواكـري

أو لو وجدت بمثل فضـــلك عـاذلا كان الكمال إذا سلوتـك عاذري(4)

ولم يخضع شكيب أشعار" الباكورة" إلى تقسيم أو ترتيب أو تصنيف وإنّما أوردها متتابعة،فجاءت متداخلة الأغراض لتنوّع المناسبات التي نظمت فيها. فكانت صورة عاكسة لحياته العملية —من ذلك الكثير من القصائد التي أنشدها في محافل أقامتها كلّ من مدرسة الحكمة ببيروت والمدرسة السلطانية،فضلا عن قصائد أخرى خصّصها لتقريض أساتذته ومعلّميه كأستاذه الإمام الشيخ محمد عبده،والسيد جمال الدين الأفغاني،ومدح عدد من أعلام عصره كعلي باشا باي تونس وتهنئة البعض الآخر منهم إلى جانب تأبينه عددا من أصدقائه وإخوانه كالشيخ العلامة سليم البستاني فضلا عن بعض الغزليات المصطنعة لكونها ليست وليدة تجارب عاطفية حقيقية وإنّما هي ثمرة الصنعة والخيال.

وصفوة القول أنّ أشعار الباكورة تقليدية الأغراض والأساليب يظهر فيها بجلاء تقليد شكيب أرسلان لفحول الشعر العربي القديم في معانيهم و أساليبهم ومفرداتهم وعباراتهم والكثير من أخيلتهم وصورهم الشعرية التي ترشح بنفحات الجاهلية والحياة العباسية،كلّ هذا ينضاف إلى تقليده أعلام الشعر التقليدي في عصره لشدّة إعجابه بهم أمثال:محمود سامي البارودي وعبدالله فكري باشا وخليل مطران و حافظ إبراهيم و أحمد شوقي و غيرهم.

1-2-الديـــوان :(1887-1935)

ضمّن شكيب أرسلان هذا" الديوان" أشعاره التي نظمها طيلة حقبة زمنية قاربت النصف قرن إذ تراوحت بين سنة 1887،التي نشر فيها "الباكورة" إلى حدود سنة 1935.التي أصدره فيها عن مطبعة" المنار" للسيّد محمد رشيد رضا.الذي أبى-وقد تلقى مواد شكيب أرسلان الشعرية التي جمع شتاها-إلاّ أن يصحّح ملازمها و يقف على طبع القسم الأكبر منها لعميق الإخاء والودّ اللذين يكنّهما لصاحبها.

وقد قام بتصدير هذا" الديوان"صديق شكيب أرسلان و عشير صباه الشاعر خليل مطران بمقدّمة أطرى فيها شعر شكيب ومكانته الرفيعة بين أعلام عصره من الشعراء بقوله:"...حضري المعنى.بدوي اللفظ.يحبّ الجزالة حتّى يستسهل الوعورة فإذا عرضت له رقّة ألان لها لفظه،فتلك زهرات نديّة، مليّة.شديدة الرياء.ساطعة البهاء كزهرات الجبل"(5)

و تجدر الإشارة إلى أنّ تجشّم شكيب أرسلان مشاق البحث عن أشعار ماضيه المشتتّة هنا وهناك في مضّان الصحف والمجلات العربية-رغم كثرة شواغله السياسية-لم يكن وليد رغبة منه في إظهار فصاحة بيانه و نشر اسمه للمفاخرة.خاصّة وقد بلغ أواخر العمر-بل كان وليد حوافز أخرى يكشف لنا عنها في المقدمة و يجملها في ثلاثة:

1 - صدّ افتراءات الأعـداء

لم يسلم شكيب أرسلان منذ بدء ظهوره في الساحة الفكرية والسياسية من مكائد الأعداء الذين ما فتئوا يكيدون له وينسبون له ما لم يقل سعيا إلى تشويه منزلته لدى معاصريه.لذا فكما ألف أثره سيرة ذاتية لدرء افتراءات الأعداء السياسية فقد عمد إلى جمع أشعاره حتّى يصدّ مكائدهم.فتكون هذه الأشعار شهادة لنفسه ممّا عسى أن يلحقها من إساءات بعد مماته إذ يعتقد أن الشعر لقائله كالولد لناجله.فأخشى من بعد انصرافي من هذه الدنيا أن ينسب إليّ ما لم أقله ويلحق الناس بخاطري ما لم ينجله،ويعزى إليه من قداح الفكر ما لم يحبه.فلقد وقع لي من هذه الأماثيل جمّ في أثناء حياتي، فكيف تكون الحال بعد وفاتي والشاهد حينئذ يكون قد صار بعيدا،والتثبّت إذّاك يصبح مفقودا، وكما أنّه يجوز أن ينسب إليّ ما لم أقله يجوز أيضا أن ينسب كلامي إلى سواي وأن يختلف الناس في ملكي له بما قد أهملته من دعواي"(6).

2-تسجيل وقائع العصـر

كان شكيب أرسلان متعلّقا بكلّ وقائع أسلافه التي خلّدها التاريخ متفاعلا مع كلّ ما يجدّ في عصره من أحداث.فرأى أن يوظّف شعره لتسجيلها إيمانا منه بأنّ"نشرها حصّة من التاريخ يتميّز فيها من اعتدل عمّن اعتدى.ويعرف من ضلّ ممن اهتدى.فلم يزل الشعر وهو الخيال المجسّم أحسن فيه للحقائق،ولم تزل الوقائع التاريخية تأخذ من الوزن والقافية أثبت المواثق وكم من واقعة تاريخية نشدها المؤرخون في أقوال المنشدين وكم من رجل لم تخلده التواريخ وجعله الشعر من الخالدين"(7).وبذلك جعل شكيب أرسلان من الشعر وثيقة تاريخية لما يجدّ في عصره من أحداث.

3- تخليد علاقاته بأعلام عصره

لّما كان شكيب أرسلان عديد الأصدقاء والأخوان والأتراب الذين جمعته وإياهم علاقات وطيدة لحقب متفاوتة فإنّه أبى إلاّ أن يخلّد معالم هذه العلاقات شعرا اعترافا منه بمكانتهم من نفسه.وهو ما يفصح بقوله:"...إنّه كان لي أصدقاء و أتراب وإخوان ترافقني عليهم الحسرات إلى التراب...ممن كانوا غرّة في جبين الدهر.وكان ذكرهم عبيرا يأخذ منه ألذ زمن ما يأخذ الروض من الزهر وأفرغ الله عليهم سجال عفوه ورضوانه بروحه وريحانه فقد أحببت أن أبثّ أرواحهم الزكية الوجد الذي أجده من فراقهم وأن أنشئ بعد طيّ أجسادهم ما أعرف من محاسن أخلاقهم فأكون وفيتهم بعض حقوق الوفاء و أديّت إليهم من الأمانة ما فيه للنفس شفاء"(8).

وعلى خلاف ديوان "الباكورة" فقد أخضع شكيب هذا الديوان لمنهج تجلّى في أربعة أقسام جعلت أشعاره ترد مرّتبة ومصنّفة حسب الأغراض.فحوى أوّلها المراسلات التي دارت بينه وأمير الشعراء في عصره محمود سامي البارودي عندما كان هذا الأخير منفيا في جزيرة سيلان إثر الثورة العرابية.وقد غلب عليها تقريض كلّ منهما للآخر نسبا وأخلاقا وموهبة شعرية.

وخصّص ثانيها للمساجلات الشعرية والمفاكهات الأدبية التي جرت بين شكيب أرسلان وجماعة ممن اتّصل بهم أو تصادق معهم أو داعبهم مثل عبدالله باشا فكري،وإسماعيل باشا صبري.ومحمد بكري جاسم،وخليل بك مردم،ومحمد كرد علي- كما تضمّن مدحية لخديوي مصر-آنذاك- توفيق ومجموعة من قصائد التكريم لأعلام الشعر في عصره كحافظ إبراهيم وخليل مطران وأحمد شوقي وعبد الحميد الرفاعي...

وأفرد القسم الثالث لرثاء العلماء والأدباء والكبراء الذين كانت له معهم علاقات وطيدة وذكريات حبيبة إلى نفسه، راسخة في ذاكرته من بينهم أحمد فارس الشدياق(1801-1887م)، وعبد الله باشا فكري(ت.1889)، وأمين بك فكري (ت. 1898)، وإبراهيم اليازجي(ت. 1906)، ونسيب أرسلان(ت1927) وأحمد باشا تيمور(ت.1930). وعبد القادر الشيبي كبير سدنة البيت الحرام وعين من أعيان مكة، وأمير الشعراء أحمد شوقي بك(ت.1930)، والمناضل عبد السلام بنّونة من أعيان تطوان بالمغرب الأقصى(ت.1934).

وقد تضمّن القسم الرابع والأخير مدائح شكيب أرسلان للسلطان العثماني ونصرته للخلافة العثمانية فضلا عن بعض القصائد الملحمية النفس التي رام فيها تسجيل بعض الوقائع التاريخية كالحرب الطرابلسية وأحداث واقعة حطين، وأمجاد العرب ومآثرهم بأرض الأندلس"الفردوس المفقود".

2- معالـــم النظرية الشعريـة لدى شكيب أرسلان

إنّ محاولة الكشف عن آراء شكيب أرسلان الشعرية واستجلاء مواقفه النقدية من صناعة الشعر والإلمام بها، عملية لاتخلو من عسر، بسبب تشتّت مقالاته الأدبية والنقدية التي ضمنّها أراءه في فنّ الشعر شروطا وأغراضا وأشكالا في عديد الصحف والمجلات العربية التي يعزّ منالها لقدمها زمنيا، وكذلك في عدد من آثاره التي أضحى وجودها نادرا لعدم تجديد طبعها كما هو شأن أثره الهام"شوقي أو صداقة أربعين سنة"والذي ضمّنه الكثير من آرائه في صناعة الشعر.

وتكمن أهمّية تناول آراء شكيب أرسلان الشعرية و مواقفه النقدية بالبحث والاستقراء في أنّها تكشف عن خصائص الجانب الأدبي-الجمالي من شخصيته الثقافية — الفكرية.

2-1- حـــدّ الشعر

إنّ ضبط تعريف محدّد للشعر وموحّد كان و لا يزال من القضايا التي يكثر في شأنها الخلاف، ويشتّد الجدل بين الأدباء والشعراء والنّقاد لتباين المقاييس التي يعتمدونها في تعريف الشعر، والتي يغلب عليها الانطباع لاتّصال فنّ الشعر بالوجدان الذي يختلف من فرد إلى آخر، مما يجعل الاتفاق حول تعريف موحّد للشعر يكون أمرا عسير المنال، فكيف عرّف شكيب أرسلان فنّ الشعر؟

لقد وجد شكيب أرسلان عسرا في ضبط تحديد دقيق، جامع مانع للشعر، الأمر الذي جعله يقدّم مجموعة من التعريفات عساها تحدّد ماهية الشعر.

فيبرز أنّ "الشعر مظهر المرء في أسمى خواطر فكره وأسمى عواطف لبّه و أبعد مرامي إدراكه"(9).وهو"رؤية الإنسان الطبيعية بمرآة طبعه"(10)،ثمّ إنّه "شعور عام وحسّ مستغرق يأخذ المرء بكليته و يتناوله بجميع خصائصه حتّى يروح نشوان خمرته أسير رايته ويريه الأشياء أضعافا مضاعفة و يصوّرها بألوان ساطعة و حلي مؤثرة تفوق الحقائق"(11).

ولئن تميّزت صيغ هذه التعريفات بالتعميم والاختصار والغموض فإنّ شكيب أرسلان قد قارب الإصابة في تعريف آخر بيّن فيه مقوّمات العملية الشعرية بقوله : "الشعر كلام يلقي بلسان الإحساس،ونطق ينزل عن وحي المخيلة،وأوصاف يقضي بها الشوق"(12)،و بذلك فإنّ الشعر في إدراك شكيب أرسلان هو ثمرة تفاعل كلّ من الإحساس و التخيّل و الوجدان.

2-2- حقيقـة الشعـر

يعتبر شكيب أرسلان الشعر فنّا لا يجيده كلّ النّاس لأنّه هبة إلاهية ينفخها الله فيمن يشاء من عباده،وقوّة روحية يفيضها عليه،ولذلك يرى شكيب أنّ الشعر لا يحسنه إلاّ من توفرت فيه"السليقة الفائقة،والطبيعة الصافية،يكاد قائله يتجرّد من عالم المادّة بقوّة نفسه وشفوف حسّه،ويلحق بالملاء النوراني في مضاء عزمه و ورى زنده وسرعة فكره ولو كانت الكهربائية شخصا لكانت هي الشاعر."(13)

و هكذا فإنّ حقيقة الشعر لدى شكيب أرسلان ان هي إلاّ فكر سام يصوغه الشاعر صياغة فنيّة ثمّ يبثّه فيما بعد للمتقبّل،ومعنى بكر يبتكره ليطرب به السامع ولفظ جزل يؤثر به في وجدان الإنسان و فكره.

2-3- أدوات الصناعة الشعرية

يرى شكيب أرسلان أنّ للشعر أدوات يتحتّم توفّرها لدى كلّ من يريد ممارسته و خدمته،و أبرزها:

1- الطبـع و الموهـبة

يعتبر شكيب أرسلان أنّ الشعر الحقّ هو الذي يصدر عن طبع وموهبة شعرية إذ هو "هبة من الله"(14)،ويكون وليد استعداد فطري من صاحبه، وثمرة معاناة حقيقية عاشها وتجربة تمرّس بها لأنّ الرغبة في نظم الشعر وقوله والغرام به لا تكفي لأنّها تسقط صاحبها في التقليد،وتحمله حتّى على السرقة الأدبية،لذا لابدّ من موهبة مبدعة تجعل الشاعر يأتي بالجديد من المعاني، والطريف من الأساليب،باعتبار أنّ "صاحب الصنعة إنّما يتقدّم فيها إذا كان

راغبا لا متكلّفا. و مغرما لا متبرّما. و كان مجتهدا أن يبدع فيها لأجل الإبداع ولأجل سبق غيره من الصنّاع(15). ولذلك فإنّ كلا من الطبع و الموهبة يلعب دورا مهمّا في تجسيد عملية الإبداع الشعري التي تستوجب فضلا عنهما:

2- الشاعريـــة

يعتبر شكيب أنّ الشعر ليس نتاجا باردا بقدر ما هو ثمرة شاعرية خصبة كامنة في وجدان صاحبه تفرزها انفعالات ذاته في تفاعلها و محيطه البشري والطبيعي ويرى أنّها ضرورية في تجسيد عملية الإبداع الشعري لكونها تصوّر خوالج النفس في مختلف أحوالها وتقلباتها. فإذا ما "تغلغل الشاعر في أنحاء النفس. وأحناء القلب وهام في لا أودية الانفعال وأخذ يؤدي من هنا ما يلقيه إليه. مضاعفا هوى ملح وشوق هاف. وحبّ شاغف وتمنّ واصب وتوسّع هالع ورغبة ورهبة وإيمان كإيمان العجائز ثمّ آب من أودية احساساته وأعطاف فراساته بذلك إلى سامعيه أشجى وأرقص وأبكى وأحرق وألاوى وأنضر وأذوى وأيأس وأرجى وأفقر وأغنى وأسعد وأشقى وبلغ من كلّ مقام الغاية القصوى وجذب بأفنان سدرة المنتهي"(16).

ثمّ يكشف شكيب عن شروط الشاعرية ومقوماتها عند حكمه على أحمد شوقي بأنّه استوفى جميعها. في قوله: "هي النسيج الرقيق المتين والاسلوب الرشيق الرصين. واللغة العربية الفصحى التي لا تؤتى من جهة والمعنى المتناهي في الدقة. اللابس من اللفظ أجمل حلّة. و الانسجام المطرد من الأول إلى الآخر في سبك متوارد"(17). وبذلك فإن الشعر الحق في تصور شكيب أرسلان إن لم يكن صادرا عن شاعرية فإنه يكون نوعا من النثر غريبا عن فن الشعر.

3-الحـــال الشعريـــة

يعتقد شكيب أرسلان أنّ الشاعر لا يستطيع النظم متى شاء بل لا بدّ له من أن يكون في حالة نفسية تسمح له بقول الشعر. يعبّر عنها "بالحال الشعرية" التي تلهمه القول. ويؤكد على أهميتها في عملية الإبداع الشعري بقوله "...ومن أهمّ ما يغفل عنه الناس. وهو من أحقّ الحقائق أنّ نفوس الأدباء. لها أوقات صفاء وأوقات كدر. وأنّها في أوقات الصفاء قد تبرم قوانين وتخلق معاني لا تتأتّى لها في جميع الأحايين. وربّما لاح في فكر الأديب خاطر في إحدى السويعات لو استرسل لأتى فيه بالعجائب على حين أنّه إذا أنشده في وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء. لوجد زنده فيه صلدا ورأى أنّه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه. و يطمع أن يقتنص تلك

الشوارد التي كانت بين يديه فإذا هي الآن لا تطيعه. ومنها ما ذهب غير معاود ومنها ما عصي... فإنّ الأفكار من جملة حظوظ الدنيا. تهبّ أحيانا وتركد أحيانا. فإذا هبّت مرّة وجب اغتنامها ولم يجز إهمالها على نيّة أن يعاد إليها مرّة أخرى وإنّ الأفكار نظير الأقدار وليس في مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كلّ حين. وقد تفيض على الرؤوس أشعة إذا ولت تعذّر استردادها."(18)وبذلك يجعل شكيب أرسلان من الحال الشعرية منبع إلهام الشاعر. وعليها يتوقّف قوله الشعر الذي يكون بمثابة التنفيس عن خوالج الوجدان والتعبير عن سوانح الفكر مما يكسبه سمة الصدق و التأثير في المتقبّل و جعله يتفاعل ومعانيه ولكن شكيب يرى ألاّ بدّ للشاعر في هذا الطور من عملية الإبداع الشعري من:

4 – مراعــاة مقتضى الحــال

يعتقد شكيب أرسلان أنّ الشاعر– وهو يعيش حالة المخاض الشعري– يكون حرّا في صياغة المشاعر التي تلح على وجدانه وفكره حسب المذهب الذي يراه ملائما. كما يؤكد على حرية الشاعر في صياغة تجليات الحال الشعرية التي يعيش معاناتها بقوله: "..وللشاعر سعة المذهب والتفنن في شعوب القول بحسب ما تقتضيه المطالب، فهو ملك الكلام. يتصرّف فيه كيف يشاء. فيه تجسيم المجرّد وتجريد المجسّم. وتشبيه المجرّدات بالمحسوسات. وتلطيف المحسوسات إلى درجة المجرّدات. فتارة يجسّم المجرّد حتّى يكاد يحسّ وتقع عليه الأيدي وتنعكس أشعة نوره على العين وتهتزّ دقائقه فتهتزّ طبلة الأذن. وطورا يهفهف به الملموس ويهلهل حتّى يشفّ شفوف البلور ويسطع من ورائه النور"(19).

وهكذا فإنّ شكيب أرسلان يرى لزوم تصرّف الشاعر في فنون القول بحسب ما تقتضيه المطالب والأحوال حتّى يوفق في تبليغ رسالته الشعرية إلى المتقبّل. فلا الإغراق في الغموض والرمز يخدم هذه الرسالة، ولا التبسيط إلى حدّ الإسفاف والابتذال يضمن لها جدواها المنشودة إذ يخرجها من مصاف الفنّ الشعري الراقي إلى نوع من النثر المعهود الذي لا يثير في السامع أيّ إحساس ولا تفاعل فتنعدم لذلك عملية التواصل بين الشاعر باثا والسامع متقبلا. وتضيع أهداف العملية الشعرية التي تتحوّل إلى نوع من الثرثرة اللفظية المفرغة من كلّ معنى.

كلّ هذا ويبقى الشاعر قاصرا عن تضمين شعره كلّ ما يختلج في وجدانه من انفعالات، وما يعتمل في فكره من سوانح أفكاره، وذلك لقصور الألفاظ عن

تأدية حالات النفس اللامحدودة. ويؤكد شكيب هذا المعنى بقوله: "...و أنّي للشاعر أن يتغنّى لسانه بكلّ ما يتغنّى به جنابه. و أين الثريا من يد المتناول ؟ فإنّ اللغة رموز محدودة. وإشارات مخصوصة. وهي تطمح أن تعبّر عمّا في النفس البشرية. والنفس البشرية عالم بنفسه: "(20)

2-4- وظيفـة الشعـر

لئن اعتبر شكيب أرسلان الشعر فنّا خالدا في تراث الحضارة الإنسانية الثقافي فلسببين رئيسيين:

1- حفظه اللغة رغم تقادم العهود. وتتالي الأجيال إذ يمثّل المخزون اللغوي المتوارث الذي لا تصيبه عاديات الزمان.

2- تسجيله تواريخ الأمم. ومقوّمات تراثها الحضاري: عادات وتقاليد ومعتقدات وطقوسا. فإنّ كانت الأمم تفنى وتتعاقب فإنّ الشعر من أبقى الآثار الآدمية لأنّه ليس معلما يؤثّر فيه تقادم العهود بل قول يتمكن من وجدان الإنسان ويرسخ في فكره. وتتناقله الأجيال فيما بينها فيكتب له الخلود الذي يعكس أنّ الشعراء كائنات تتفرّد عن البشر العاديين وتكاد تلتحق بالملإ النوراني لهذا فـ"لا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الفقه أو شيئا آخر من مناحي الحياة فوق الشعر. بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأوّل وأن تدور حياته من حوله. فجميع المشاغل تكون له فضلة ويكون الشعر هو العمدة. (21)

2-5- السرقـات الشعـرية

تحدّث شكيب أرسلان في السرقة الشعرية-شأن النقاد القدامى والمحدثين – وعلّلها بأنّها من باب توارد الخواطر إذ" قد تتوارد الخواطر كما يقع الحافر على الحافر. وكثيرا ما يقول شاعر بيننا يظن نفسه غير مسبوق إلى معناه ثمّ يعثر عليه في أثناء استقرائه فيعجب لهذا التصادف. ولكنّ الناس الذين يطلّعون على القولين يسارعون إلى الحكم بأنّ الأحدث قد أخذ عن الأقدم والحال أنّه لا يكون المتأخّر قرأ في هذا شيئا للمتقدّم. وربّما لا يكون سمع باسم الشاعر الذي جاء بيته مشابها لبيته. ومن لك بعد ذلك بإقناع الناس بأنّ هذا التشابه بين الكلامين إنّما هو مجرّد توارد خواطر كما قالوا في بيت امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم . يقولون: لا تهلك أسى وتجلّد

و بيت طرفه:

وقوفا بها صحبي على مطيهم . يقولون: لا تهلك أسي وتجلّد

فالعلماء لم يقولوا إنّ أحدهما سرق عن الآخر.ومثل هذا كثير في الشعر العربي و إن كنت لا ألفي كون المسروق أيضا كثيرًا ما سرق منه عمدا أو ألبس ثوبا غير ثوبه الأوّل،ومنه ما نطق به الشاعر رشحا لمحفوظ كان قد نسيه وظنّ أنّه ورى زنده.

فهذا النوعان اللّذان لا شكّ في وجودهما لا ينفيان وجود التوارد المحض على معنى واحد دون أن يكون اللاحق ذا علم بما قال السابق."(22)

و هكذا فإنّ شكيب أرسلان و إن كان يقرّ بوجود السرقة الشعرية المتعمدّة فإنّه يؤكّد على ظاهرة توارد الخواطر التي تنفي السرقة.

3- ممارسة شكيب أرسلان الشعرية

إذا ما استقرأنا أشعار شكيب أرسلان سواء في"الباكورة" أو" الديوان" وقفنا عند خاصية أساسية ميّزت معالم تجربته الشعرية،و تتجلّى في تقليده لفحول الشعر العربي القدامى الجاهلين منهم والإسلاميين ولأعلام الشعر التقليدي في عصره على حدّ سواء،لشدّة إعجابه بقديم الشعر وعميق تأثّره به: مضامين وأشكالا،وبهذا تفسّر محاكاته له في كلّ أطوارمسيرته الشعرية.

3-1- في خصائص المضمون الشعري

لقد حاكى شكيب أرسلان فحول الشعر العربي القدامى في الأغراض الشعرية التي نظموا فيها:فمدح بما كانوا به يمدحون،و رثى بمثل ما كانوا به يرثون،وتغزّل مثلما كانوا يتغزلون،و لكنّه ترفع عن الهجاء فلم يهج مثلما كانوا يهجون.

1- المدح

أوقف شكيب أرسلان مدحه على الإشادة بمكارم أخلاق السلطان العثماني عبد الحميد،ومحامد خلقه ومناصرة سياسته والتغنّي بالخلافة العثمانية،وقد بدأ مدائحه له وللدولة العثمانية منذ حداثته،عندما كان تلميذا في مدرسة الحكمة ببيروت،حيث اختتم القصيدة التي ألقاها في حفلها بمخاطبة السلطان بقوله:

(...)كفى عصركم فخرا وعزّا إذا ادّعى   أمير الورى عبد الحميد المعظمـــا
ليجهد في إسترجاع رونق شرقنـــــا   و تجديد ما من مجده قد تهدّ مــا
فلا زال في عصر الخلافة قائمـــــا   لما أناد من أمر العباد مقوّمـــــا
يثني عليه الخافقان بعدلـــــــــه   ثناء جميلا بالدعــاء مختـــمّا(23)

و يواصل مدحه للسلطان العثماني عبد الحميد في قصيدة أخرى أنشدها في حفل أقامته المدرسة السلطانية بمناسبة اختتام سنتها الدراسية(1887) فيخاطبه بقوله:

سلام على السلطان،أمّا مراحــه   فنفع،وأمـــّا شغلـه فالعظـائـم
سليل بني عثمان،أمّا جـــداؤه   فغيث،وأمــّا عزمـــه فلهـاذم
...يعيد لنا عزّ الخلافة عهـده   ويغتبط الإسلام إذ هـــو سالـم
تضيء على الدنيا مطالع شكـره   وتعطر فيه بالدعاء الخواتـــم(24)

وظلّ شكيب أرسلان يمدح السلطان العثماني ودولته في بقية سني حياته،وقد سجّل مدائحه له في القسم الرابع من ديوانه الذي عنونه:" في المدائح السلطانية و شؤون السياسة العثمانية"،فيخاطبه في أسلوب تأليه:

فحبّك ذا شرعي و عرفي و مذهبي » ومدحك ذا فرضي ووتري وواجبي(25)

و لقد أثارت هذه المدحيات السلطانية الكثير من النقاد على شكيب أرسلان لكونه يمثّل في نظرهم الاتجاه الرسمي في شعره السياسي متناسيا مظالم السلطان عبد الحميد ورجال حكومته الذين لم يتوجه إليهم بنصح أو إرشاد. وذهب بعضهم إلى اعتباره يطلب الزلفى ويلتمس الجائزة من خلالها،ولكنّ شكيب أرسلان يردّ عن هذه الإفتراءات بتأكيده على أنّ هذه المدحيات إن هي إلاّ تعظيم لخلافة الإسلام وسلطان المسلمين.وهي ليست لشخص الخليفة بقدر ما هي رمز لما يمثله،ثمّ يبرز أنّه من عادة الملوك في الشرق والغرب أن يصطفوا شعراء لهم يشيدون بذكرهم ليصان وقار ملكهم حتّى و إن لم يكونوا بذلك المدح أهلا لأنّ هذا المدح"إنّما هو للمقام لا للمقيم،وأنّ المقام إنّما هو رمز الأمّة وعنوان الملّة.ثمّ قد شاءت الأقدار في أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدعوة الإسلامية بأجمعها،وأن تغلظ شوكة الأجانب الغربيين بين أيديها ومن خلفها وأن تحيط بكثير منها،وتأخذ على أيدي ملوك الإسلام،فلا تبقي لهم سوى الرسوم والألقاب،ويتغلغل نفوذ الأجانب في هذه الحكومات المغلوبة على أمرها فتصير الأمة التي في مثل هذا الموقع–وقد أخذ الأجانب بخناقها–تتطلّع إلى أميرها الأصلي،وتعزّز من مقامه،وتضاعف من إجلاله بناء على أنّه رمز استقلالها الوحيد.فالمبالغة في إجلال هذا الرمز إنّما هي المبالغة في حفظ الاستقلال نفسه"(26)،ولكن حجّة شكيب هذه تبدو ضعيفة إذ بم يفسّر مدحياته للخليفة العثماني ودولته العليلة عندما كانت هذه الأخيرة في أوج قوتها؟

وقد حاول شكيب أرسلان تبرئة مدحياته العلية من التكسّب المادّي غير أنّه وقع في شيء من التناقض إذ من جهة يستقبح مدحيات التكسّب بقوله: "...وأمّا أنا فقد كان أكثر فراري من الشعر خشية أن يظنّ فيّ مزاولته تكسّبا لا تأدّبا وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب"(27)ولكنّه يسوّغ من جهة أخرى مدح الشعراء لمن يعطونهم لأنّ "النفوس مطبوعة على حبّ من أحسن إليها"(28) حسب رأيه.

و في رأينا فإنّ هذه المدحيات تندرج ضمن مذهب شكيب أرسلان السياسي الداعي إلى الجامعة الإسلامية في ظلّ الخلافة العثمانية.

ولئن جهد شكيب أرسلان في تبرئة نفسه من التكسّب المادّي بشعره فإن استقراءنا لأشعاره في "الباكورة"و"الديوان" يكشف لنا عن تكسّب طريف وهو التكسّب الأدبي،الذي يبرز لنا بجلاء في سعيه الدائب منذ حداثته إلى التراسل والتساجل وأشهر أعلام الشعر في عصره كمحمود سامي البارودي وعبد الله فكري،وأحمد شوقي،وغيرهم ممن اقتدى بهم في مسيرته الشعرية،فأكتسب مودّتهم التي أكسبته ما كان ينشده من مجد أدبي.

2- الرثـــــاء

تميّز شكيب أرسلان الشاعر بكثرة مراثيه لإخوانه وأصدقائه ومعارفه على اختلاف منازلهم الاجتماعية علماء كانوا أو أدباء أو كبراء،وذلك لغزارة علاقات المودّة والإخاء التي جمعته بجانب مهمّ من أعلام الفكر والسياسة في عصره،ولما طبع عليه من وفاء نادر لأصحابه وإخوانه" فإذا فجعه الدهر في واحد منهم لجأ إلى القريض يبثه عواطفه و يشكو إليه تباريحه."(29).

ففي" باكورة" أشعاره نجده يرثي حرم واصا باشا متصرّف لبنان(1886) وكذلك أحد أعزائه،وأحد الأعيان الفقهاء،والعلاّمة الإمام محيي الدين الباقي وأستاذه سليم البستاني صاحب جريدة "الجنّة"،ومجلّة"الجنان".

أمّا ديوانه فقد جاء مشتملا على قسم خاص بمراثي العلماء و الأدباء والكبراء من أصدقائه وإخوانه الذين جمعته بهم علاقات مودّة خالصة.وتضمن 19 مرثية وردت في739 بيتا شعريا رثى فيها كلاّ من إمام اللغة الشيخ أحمد فارس الشدياق،ومحمود بك،ووالده نعوم باشا متصرّف جبل لبنان،والشاعر عبدالله فكري،ونجله أمين بك فكري،وأمير الشعراء في عصره محمود سامي باشا البارودي،والعلامة اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي(ت1904)،ومحمد بك فريد رئيس الحزب الوطني(ت.1919)،وابن عمّه الأمير توفيق مجيد أرسلان

(ت.1919)ونجل خديوي مصر عباس حلمي الأمير عبد القادر(ت.1919) وعين من أعيان بيروت أحمد مختار بيهم (ت.1920)،والشيخ عبد العزيز جاويش،وكامل بك الأسعد عين أعيان جبل عاملة،ومبعوث بيروت إلى مجلس النوّاب العثماني،وأخيه نسيب أرسلان،وفقيه العلم والوجاهة اللغوي العلامة أحمد باشا تيمور،وعبد القادر الشيبي كبير سدنة البيت الحرام،وعين من أعيان مكة،وأمير الشعراء أخيه القديم ووليه الحميم أحمد شوقي بك،وصديقه الحميم الحاج عبد السلام بنونة عين من أعيان تطوان بالمغرب الأقصى (ت1935).

وممّا لاشكّ فيه أنّه قد رثى غير هؤلاء في قصائد لم يثبتها بالديوان،ولكنّها وردت في عديد الصحف المشرقية،كرثائه لمصطفى صادق الرافعي(1880-1937م).

وتتميّز مرثيات شكيب بإيقاعها الغنائي الشجي المؤثر لكونها صادرة عن وجدان متفجّع لأحبّة عزّ عليه فراقهم،فاتّسمت بحرارة العاطفة،وصدق العبارة في تعدادها لمكارم أخلاقهم،و الإشادة بمآثرهم،ممّا جعل معاصريه يستحسنونها ويتناشدونها لإعجابهم بها،وهو الإعجاب الذي صاغه أحدهم في قوله:"... والواقع أنّ دموعه الشعرية قد بينّت لنا كيف يحافظ الصديق المثالي على مودّة صديقه إذ يفي له أصدق وفاء في القرب و النزوح."(30)

3- الغــــزل

لمّا شغل الغزل حيّزا هامّا من شعر فحول الشعراء القدامى الجاهليين منهم والمخضرمين والإسلاميين فقد أبى شكيب أرسلان إلاّ أن يتغزّل مثلهم بحسان لم يعرفهن ولم تجمعه بهنّ علاقات عاطفية حقيقية،فتغنّى بالوجوه الحسان ووصف الخدود في حمرتها،والقدود في رشاقتها،والجمال في فتنته،وشكا وجد الشوق،وضنى الأرق،ولوعة الفراق،وهجر الحبيب،ولام الرقيب،وردّ على العاذل،شأنه في كلّ ذلك شأن شعراء الغزل القدامى،و لكنّه يختلف عنهم في أنّ غزله فني لا واقعي،يقول في إحدى غزلياته التي يميّزها التعفّف:

حتّام تجذبني القدود و أجنــــح	و يصدّني عنها الصــدود و أجمع
و يهيّجني شوق الحسان و أدمعي	أبدا على سفح المعاهــد تسفــــح
فاضت دموعي بعد فيض شؤونـها	و عهدت عين الدمع ليست تـنزح
و بقيت فيما بين لذع صبابـــــة	يكــون و برح دائـم لا يبـــــرح
أحيي الليالي آملا أن تنجلــــي	صبــحا و ليــس بأمثل ما تصبـح

و لقد أتوق إلى الكرى فلربّما طيف الحبيب بزورة قد يسمح
فلئن يكن ذاك الغزال محرّما و صلي فحسبي في الكرى ما يسمح
(...)يا من يعذّبني و يحسب أنّني لعذابه طوال الزمان مرشّح
يسطو عليّ و لا يرقّ فعنده قلب و لكن بالحديد مصفّح
دلهتني في ذا الغرام فها أنا قشّ و لكن بالفراق ملوّح
فإلى م تهرجني و قد كاد الصبا يذوي و رطب غصونه يتضوّع
ما كنت أيّوب الصبور و إن يكن بالصبر معنى اسمي بفارس يسرح(31)

وبذلك نلمس رقة غزل شكيب وشفافيته، في محاكاته لغزليات فحول الشعر العربي القديم العذريين خاصة إذ يخلو من الصور الإباحية التي تغلب على أشعار الإباحيين كعمر بن أبي ربيعة، و مسلم بن الوليد و غيرهما.

4- الفخر

لئن مدح شكيب أرسلان السلطان العثماني و دولته بغرر المدائح فأجاد، وقرض العلماء والأدباء والكبراء فأبدع، ورثى الأصدقاء والخلاّن فأثّر، وتغزّل بالحسان فتفنّن، فإنّه-وهو في شرخ الشباب-أبى إلاّ أن يفتخر بنفسه نسبا وحسبا ومجدا ومكارم أخلاق متشبّها بأبي الطيب المتنبي في نخوته وتعاليه، بقوله:

و إنّي من القوم الذين هم هم إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب
عتاق المعاني قد تسامت جدودهم على الشمّ ممن أنسل الشيخ يعرب
لهم نسبة في أقعس المجد عرقها لها منزل فوق السماك مطنّب
بدور إذا الهامات بالبيض عمّمت ليوث إذا الهامات بالبيض تضرب
بحور إذا الارزاء ألقت جرانها غوث إذا الأعوام في القوم تجدب
فيلصل حقّ بالبيان و تارة فياصل إذا دار الأصمّ المكعّب
لهم حسب يحكي الشموس و ضوحه يزاحم منه منكب الشمس منكب(32)

وقد نظمّ شكيب أرسلان-فضلا عن هذه الأغراض-قصائد متنوّعة الموضوعات ومتفرّقة، أفرزتها مناسبات طارئة حفزته على النظم كتهانيه لبعض أصدقائه بزفافهم، وللبعض الآخر بختان أبنائهم وغير ذلك، ولئن كانت هذه هي خصائص المضمون في تجربته الشعرية فما عسى أن تكون خصائص الشكل؟

3-2- خصائص الشكل الشعري

كان شكيب أرسلان يقيم وزنا كبيرا للقالب الذي يصبّ فيه أغراضه،

ويعرض معانيها لأنّه يعتبر أنّ "أفصح الكلام هو ما تضمّن المعنى المعروف لا المعنى الغامض. ولكن العبرة في القوالب"(33)التي يختارها الشاعر ليفرغ فيها معانيه الشعرية. و تندرج في هذا السياق عنايته بالصورة الشعرية التي يجهد نفسه في تهذيب معانيها وصقل عباراتها بعد أن يكون قد أستلهمها من فحول الشعر العربي القديم:

إن تـأتـنـي عفوا فكم هذّبتهـا   من سخف لفظ أو روي ناظر(34)

وكان يولي الألفاظ كلّ عنايته من خلال انتقائه لها من المعجم البدوي الذي استغلّ مفرداته القدامى في صياغة أشعارهم. فنلمس معالم حياة الجزيرة الطبيعية والبشرية في جاهليتها وعهود إسلامها الأولى. حيث نجده يتحدّث- رغم تحضّره عن"العيس". و"الحادي". و"السري". و"الظغائن". و"التأويب"، . و"الأسناد". و"الانجاد". و"الخضارم". و"القائف". و"المتالع"، و"اللوى"و"العقيق" و"الكثبان". وكأنّنا نقرأ شعرا لأحد شعراء الجاهلية أو كأنّه يحيى في عمق الجزيرة العربية في أقدم العصور. ولعلّ المغالاة في استعمال البدوي من الألفاظ يعود في جوهره إلى شدّة حنين شكيب إلى مقوّمات الأصالة العربية. ومعالمها التي فقدت في عصره وبين معاصريه الذين ما فتئ يستنهض هممهم لإحيائها.

كما طغت الأساليب البديعية على أشعار شكيب خاصة في الباكورة لشدّة إعجابه بها وامتلاكه نواصيها. فنجده يعمد في نظمه إلى الإكثار من الجناس والمطابقة والتورية والاستعارة وغيرها من فنون البيان وكأنّنا به يحنّ إلى اللغة العربية في صفاء عبارتها. وبلاغة بيانها وإعجاز بنائها.

وقد عمد في صياغة أشعاره إلى النظم في البحور التقليدية .وخاصة الطويل والكامل اللذين جاءت عليها معظم منظوماته.

كلّ هذا يجعل من تجربة شكيب أرسلان الشعرية. تجربة اتّباع أكثر منها تجربة إبداع. بتعمّده محاكاة فصول الشعر العربي القديم في أغراضهم كما في أخيلتهم. في صورهم وإيقاع قصائدهم كما في معاجمهم الشعرية الضاربة في البداوة. و التي يستمدّون منها ملفوظاتهم. ويصدر في ممارسته الشعرية عن معرفة عميقة تكشف عن امتلاكه مقوّمات المنظومة النظرية في صناعة الشعر.

الهوامـــــش

1) أرسلان، شكيب: الباكورة. بيروت. المطبعة الأدبية. 1887

2) ديوان الأمير شكيب أرسلان. وقف على ترتيبه وطبعه السيد رشيد رضا. القاهرة، مطبعة المنار. مقدمة الباكورة. ص135.

3) نفس المصدر: ص 93

4) نفس المصدر: ص 4. من تقديم خليل مطران

5) نفس المصدر: ص 1

6) نفس المصدر: ص2

7) نفس المصدر: ص2

8) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان. (جزآن). القاهرة. 1963. الجزء الأول، ص328

9) نفس المرجع: ص 328

10) نفس المرجع

11) نفس المرجع

12) نفس المرجع، نقلا عن مقال لشكيب أرسلان بعنوان. "صيغة الشعر". نشره مصطفى لطفي المنفلوطي. في محاضرته سنة 1912. الجزء الأول. ص327.

13) نفس المرجع

14) أرسلان، شكيب: شوقي أوحداثة أربعين سنة. القاهرة. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه بمصر، الطبعة الأولى. 1355 هـ/1936 م. ص21

15) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان. الجزء الثاني. ص328

16) نفس المرجع: ص332

17) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان. الجزء الأوّل. ص 363.

18) نفس المرجع: ص329

19) نفس المرجع: ص329

20) نفس المرجع: ص333

21) نفس المرجع: ص 280-281 نقلا عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة الأهرام، عدد23 مايو1939، بعنوان "خواطر على توراد الخواطر".

22) أرسلان، شكيب: الباكورة، ..ص 138.

23) نفس المصدر: ص 141

24) نفس المصدر: ص 92
25)أرسلان، شكيب: شوقي أو صداقة أربعين سنة، ..ص24.
26) نفس المصدر: ص 25
27) نفس المصدر: ص 26
28) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الأول، ص350، نقلا عن "الرسالة"، 22 ديسمبر 1947
29) انظر بهذا الصدد جريدة: "منبر الشرق"، (المصرية)، الصادرة بتاريخ 13 مايو 1955
30) الشرباصي، أحمد أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الأول، ص305، نقلا عن مقال نشر لمجلة: "الرسالة"، بتاريخ 22 ديسمبر 1947
31) أرسلان: شكيب، الديوان-الباكورة-ص 174-175.
32) نفس المصدر: ص143
33) أرسلان، شكيب، شوقي أو صداقة أربعين سنة
34) أرسلان شكيب: الديوان-الباكورة- ص 143-144

الفصل الثالث

توظيف شكيب أرسلان للتراث العربي الإسلامي

شغلت قضية توظيف التراث العربي– الإسلامي في بناء صرح النهضة العربية الإسلامية المعاصرة، حيّزا هامّا من اهتمامات شكيب أرسلان الفكرية لوعيه الحادّ منذ حداثته بخطورة الدور الحضاري الرائد الذي يمكن للتراث أن يلعبه في تحقيق ما ينشده العرب والمسلمون من رقي وتقدّم في العصر الحديث. تتزاوج فيهما مقوّمات الأصالة التراثية من جهة ومستجدات الحضارة الغربية المعاصرة من أخرى.

ولعلّ حرص شكيب أرسلان الشديد على البحث عن كنوز التراث التراث العربي–الإسلامي، الأدبية والفكرية والعلمية يعود في جوهره إلى عميق تأثره بتعاليم أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده أثناء تلقيه عنه العلوم والمعارف بمدرسة الحكمة ببيروت وملازمته له فيما كان يعقده من مجالس علمية ومنتديات فكرية، وما كان يقوم به من إحياء لنفائس من التراث العربي الإسلامي الذي يعتبره مفتاح النهضة العربية–الإسلامية المنشودة في العصر الحاضر، والتي لا سبيل إلى تجسيدها إلاّ بربط الحاضر بالماضي والمزاوجة بين المعاصرة والأصالة.

ولشدّة إعجاب شكيب أرسلان بمقوّمات فكر أستاذه الإصلاحي فإنّه لم يتوان على ترسّم معالمه بالإقبال–هو الآخر–على البحث عن كنوز العرب والمسلمين التراثية وإحيائها حتّى تضطلع بأدوارها الحضارية الرائدة في إقامة صرح نهضة عربية–إسلامية معاصرة كما كان شأنها في تحقيق رقي السلف وتقدّمهم، وبذلك فإنّ اهتمام شكيب أرسلان بقضية التراث يندرج ضمن مسار فكري عام درجت عليه المدرسة الإصلاحية. التي يتزعمها كلّ من الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. و جمال الدين الأفغاني. و محمد رشيد رضا.

ثمّ إنّ شغف شكيب أرسلان بقضية التراث العربي–الإسلامي. وما يمكن أن يساهم به في دفع مسار النهضة العربية الإسلامية المعاصرة. يعود إلى توجسّه

خيفة من تحوّل اهتمام جانب هامّ من مفكّري عصره عن الثقافة العربية الإسلامية إلى الثقافات الغربية الفرنسية منها والأنغليزية خاصّة والتي انكبوا على النهل من روافد علومها و معارفها وقد انبهروا بها وما فتئوا يجلّونها ويمجدّونها و يدعون العرب والمسلمين إليها.

كلّ هذا جعل شكيب أرسلان يكون شديد الغيرة على تراث العرب والمسلمين الثقافي والحضاري يطلبه أينما كان. ويبحث عنه حيثما اتّجه إذ كان لا ينزل بلدا مشرقيا أو أوروبيا إلاّ وسارع إلى البحث في خزائن مكتباته عن نفائس التراث العربي-الإسلامي. وانكبّ على مطالعتها. ونسخ ما يراه مفيدا منها لتحقيقه والتعليق على مضانّه وشرحها بإسهاب إفادة لمعاصريه ومساهمة منه في إضافة لبنات جديدة في بناء صرح النهضة العربي-الإسلامية المنشودة في العصر الحاضر.

فأثناء زيارة قام بها إلى مدينة استنبول في غضون سنة 1890 سارع إلى الإطلاع عمّا تشتمل عليه خزائن مكتباتها من كنوز المخطوطات العربية-الإسلامية التي راح ينهل منها ساعات فراغه. وينسخ ما يبدو له مفيدا منها ويعلّق عليه تعليقات ثرية ثمينة. ثمّ يقدّمه مباشرة إلى المطبعة. ويجدر بنا أن نعرّف بنماذج من المخطوطات العربية التي قام شكيب أرسلان بتحقيقها قبل أن نخلص إلى استقراء وظائف التراث في وعيه.

1- التعريف بآثار شكيب أرسلان المحققة

يتميّز تعامل شكيب أرسلان مع مخطوطات التراث العربي-الإسلامي بالتنوّع. إذ منها الأدبي-اللغوي كما هو الشأن بالنسبة لأثر الكاتب عبد الحميد بن المقفع"الدرّة اليتيمة"ورسائل أبي اسحاق الصابي"ومنها الديني-الفقهي كما هو شأن أثره محاسن المساعي في مناقب الأمام أبي عمرو الأوزاعي" (88هـ-157هـ)

1-1- الدرّة اليتيمة

عثر شكيب أرسلان على مخطوط " الدرّ ة اليتيمة" في إحدى خزائن مكتبة بني جامع بمدينة إستنبول عند زيارته لها في غضون سنة 1890. وقد نسخه بخط يده. وطبعه لأوّل مرّة في بيروت سنة1893. ثمّ ثانية في المطبعة الأدبية ببيروت سنة1897 فثالثة سنة1910. ثمّ أعيد طبعه عديد المرّات إثر هذا التاريخ.

ويكشف شكيب أرسلان أنّه اختار تحقيق أثر "الدرّة اليتيمة" هذا" لما فيه

من بلاغة وحكمة وحجّة.مما لم يتضّمنه كتاب قبله"(1).وينوّه بقيمة هذا التحقيق الذي لا يقلّ شأنا عن تأليفه و إنشائه بقوله: "...فقد يكون من فضل المرء في حسن انتقائه ما يربو على فضله في حسن إنشائه إذا كان من الاختيار ما هو أنطق بالفضل وأدلّ على العقل على حدّ قول القائل:

قد عرفناك باختيارك إذا كا   ن دليلا على اللبيب اختياره (2)

ويطنب في الثناء على مؤلف هذا الأثر عبد الله ابن المقفع بقوله: "و لعمري لو استفرغ مجتهد وسعه في إهداء أرباب الأقلام طرفة تعجبهم فقصاراه نشر كلام مثل ابن المقفع"(3).

ثمّ يقدّم ترجمة ابن المقفع التي استقاها من كتاب" وفيات الأعيان" للعلاّمة المؤرّخ ابن خلكان(608-681 هـ).وإثرها يبدأ كتاب ابن المقفع بثناء هذا الأخير على السابقين لطرقهم كلّ أبواب العلم.ثمّ يشير إلى أنّه سيذكر في هذا الكتاب شيئا من أبواب الأدب مشتقا من حكم الأولين كالحديث عن الأخلاق والآداب اللازمة للإنسان والسلطان على حدّ سواء.والآداب اللازمة لمن يصحب الملوك والأخلاق اللازمة للصديق.

1-2 - المختار من رسائل أبي اسحاق الصابئ(4)

عثر شكيب أرسلان على رسائل أبي اسحاق الصابي في خزانة بني جامع إحدى خزائن الكتب بدار الخلافة باستنبول فنسخها بخط يده.وقسّمها إلى جزأين،نشر أوّلهما في المطبعة العثمانية في بعبدا بلبنان سنة 1898.ومات قبل أن ينشر الجزء الثاني.

وقد جاء على غلاف الجزء الأوّل أنّه قد نقّحه.و علّق على حواشيه جناب الأمير شكيب أرسلان أحد أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية.

ويعود اختيار شكيب أرسلان تحقيق هذه الرسائل إلى إعجابه بمتانة أسلوب صاحبها،وفخامة لغته،وقوّة تراكيبه فضلا عمّا تميّزت به موضوعاتها من فنون الترسّل بين الخلفاء والسلاطين لترتيب أمور الولايات والممالك وأحوال الثغور والشفاعات والمعاتبات والعهود وكتب الأمان؛وما يكون من غير ديوان الخلافة وما يرسله الصابي من إخوانيات أو رسائل في التعزية والرثاء والتهنئة.

كلّ هذا جعل شكيب أرسلان يبوئ أبا إسحاق الصابي منزلة هامة من نفسه فيثني على إعجاز بيانه بقوله: "وإنّ كلّ من أصاب من الأدب ذروا وعرف للقلم بربا وللمداد جربا ليصبو إلى بيان الصابي،وينتشي بإنشائه العالي

فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها ما يعزّ الإتيان بمثل بدائعه على رائعها وتخفر عذارى خطبه دون خاطب كرائمها."(5)

ويكشف شكيب أرسلان عن معالم منهجه في تحقيق هذا الأثر بقوله: "علّقت عليه ما يناسب من شرح الوقائع،وذيّلته بما يلزم من تفسير الغريب تتميما للفائدة و إجزالا للعادة ووقوفا بالقارئ على أسرار الكلام و أنحائه،وما يطوي من الحكم والنكت في أثنائه،خصوصا وأنّ اكتناه الأسباب ضروري لتفهّم المسائل،وأنّ معرفة الوقائع التاريخية تزيد في حلاوة الكتب و الرسائل."(6)

ثمّ يورد شكيب ترجمة أبي إسحاق الصابي التي أخذها عن أبي منصور الثعالبي وغيره،ويستطرد فيسرد أخبار الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز ليتخلص إلى الرسائل الديوانية الخاصة.

ويبدو لنا شكيب في تعليقاته على هذه الرسائل وشروحه لغوامضها بحواشي ضافية،الأديب والمؤرخ واللغوي لاعتماده على المعاجم والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار وكتب التاريخ،و الطريف في كلّ هذا جرأته على مناقشة أبي إسحاق الصابي في بعض المسائل.

1-3- محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي(7)

عثر شكيب أرسلان على هذا الأثر أثناء تنقيبه في خزانة الكتب الملوكية ببرلين بألمانيا على نفائس من التراث الثقافي العربي-الإسلامي.

ولم يكن اسم مؤلفه مذكورا وإنّما ورد في آخره ذكر اسم ناسخه زين الدين بن التقي الدين بن عبد الرحمان الذي يذكر أنّه نسخه سنة 1048م،ثمّ أخذ شكيب صورته بالفوتوغرافيا وقام بنسخه وتنقيحه وتعليق حواشيه وتصديره، ثمّ نشره بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.ولكن لا نجد ما يدّل على زمن طبعه باستثناء إشارة تفيد فراغه من وضع مقدّمته سنة 1933.

وبعد ظهور هذا الكتاب كتب إليه صديقه علال الفاسي أنّه وجد في فهرس دار الكتب المصرية أنّ مؤلف هذا الكتاب هو شهاب الدين أحمد ابن علي بن محمد بن علي بن أحمد المعروف بابن حجر الكناني العسقلاني الشافعي(ت ذي الحجة 852 هـ) وفرغ من تأليفه في محرّم من سنة 850 هـ.

ويكشف شكيب أرسلان عن حوافز اختياره تحقيق هذا الأثر فيجعلها تتمثّل فيما يلي:

1-"أنّه هو الكتاب الوحيد الذي عثرت عليه خاصّا بترجمة الإمام الأوزاعي رضي الله عنه،وربّما كان ثمّة كتب أخرى خاصة بمناقب هذا

الإمام إلاّ أنّي لم أضفر بشيء منها.

2-أنّ الإمام الأوزاعي كان من الطبقة الأولى في مجتهدي الإسلام لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة...فكان مما يليق بمقامه الرفيع بين الأئمة إفراده بكتاب خاصّ يشتمل على ترجمة حاله.

3-أنّ الأوزاعي كان إمام أهل الشام بإجماع المؤرّخين،وتبعا لانتشار مذهبه في الشام انتشر في الأندلس.

4-أنّ الاوزاعي كان عالما ولا كالعلماء بل كان عالما يطبّق العلم بالعمل،و لا يكتفي بالحفظ و النظر...

5-أنّه كان للأوزاعي من الجرأة على الخلفاء والأمراء ما يقلّ نظيره في تاريخ الإسلام...

6- أنّ الإمام الأوزاعي هو دفين بيروت،وهو مفخرة مسلمي بيروت ولبنان بنوع خاص،وهو محلّ حرمة و كرامة يتبرك به الجميع،ولعائلتنا الأرسلانية محبّة خاصة لهذا الإمام الجليل..."(7)

وبناء على اجتماع كلّ هذه الأسباب اختار شكيب أرسلان تحقيق هذا الأثر ونشره،غايته من ذلك"خدمة الدين والأخلاق والعلم والتاريخ والآداب"(8)،وقد بقي يشتغل بهذا التأليف مدّة شهرين ونصف شهر دون انقطاع، وكان الفراغ من تأليفه في التاسع من صفر الخير سنة1356هـ،الموافق 21 أفريل 1937 وذلك في مدينة جينيف في سويسرا.

ولم يورد شكيب أرسلان الكتاب الأصل على علاّ ته بل حذف منه قطعا وأسقط المراثي التي قيلت في الأوزاعي.وتنضاف إلى كلّ هذا بعض المآخذ التي طبعت هذا التحقيق ككثرة التكرار وتشابه أغلب المعلومات التي أوردها شكيب و كان الأجدر به اختصارها وانتقاء ما يتميّز به كلّ منها فضلا عن كثرة استطراداته في التعليق.

كلّ هذا ويبقى الكتاب المحقّق بحاجة إلى فهرس للموضوعات والتراجم حتّى يسهل التعامل مع موادّه المتنوّعة الغزيرة فييسر الانتفاع به.

ولعلّ حذق شكيب أرسلان البيان العربي واعتلائه إمارته في عصره،يجد جذوره في عميق استفادته من الأفذاذ من رجال الفكر والقلم القدامى الذين دأب على ترسم معالمهم،وفي هذا السياق يندرج احتذاؤه لابن المقفع في تسديد إنشائه وموازنة معانيه ومبانيه،و كذلك محاكاته لأبي إسحاق الصابيء في سجعه ورقّة أسلوبه وسلوكه مسلك الإمام الأوزاعي في أخلاقه و علمه.

وبعد عرضنا لنماذج من الآثار التراثية التي قام شكيب أرسلان بتحقيقها يجدر بنا أن نستقرئ الوظائف التي يرتئيها لكنوز التراث العربي الإسلامي في الراهن و المستقبل.

2- توظيف التراث في الفكر الأرسلاني

لئن شغف شكيب أرسلان بالتنقيب عن كنوز التراث العربي الاسلامي، الأدبية والعلمية على حدّ سواء. وكدّ في استكشافها أينما كانت فلإدراكه العميق بقدرة هذه النفائس التراثية على ربط ما انبتّ بين العرب والمسلمين في العصر الحديث وحضارة أسلافهم التي بلغت أسمى درجات الرقي. وكانت عالية الشأن بين حضارات الأمم الأخرى كالفارسية والرومية إذ امتدّ اشعاعها من مشارق الصين إلى مغارب الأندلس. وبذلك فقد كان شكيب متيقنا من خطورة الدور الحضاري الذي يمكن أن تلعبه عملية البحث عن كنوز التراث العربي-الإسلامي وإحيائها مجدّدا لإرساء دعائم نهضة عربية-إسلامية معاصرة تتزاوج فيها الأصالة و الحداثة.

ثمّ ولئن جهد شكيب أرسلان في البحث عن أمجاد العرب والمسلمين ومفاخرهم وإحيائها. ودأب على تتبّع معالم تاريخهم المشرق وحضارتهم الخالدة فأنشأ يكتب عنهم. ويشيد بمآثرهم من خلال إحيائه لإبداعاتهم الفكرية والعلمية بالتعليق عليها بإسهاب وشرحها بإطناب فلينبّههم إلى ما هم فيه من تأخّر وتخلّف. ويبصّرهم- في الآن نفسه-بما كان عليه أسلافهم من عظمة وقوّة حتى يستنهض هممهم بعد قعود. وعزائمهم بعد ثبوط. ويقدح عزمهم اليائس القانط على الأخذ بأسباب الحضارة العصرية. وبذلك يرى شكيب أرسلان في تجلية كنوز التراث العربي الإسلامي قادحا أساسيا للعرب والمسلمين كي يعلموا بكدّ على إرساء دعائم نهضتهم الحديثة المنشودة، والتي تتوّقف على مدى توفيقهم في تحقيق المعادلة بين مقوّمات أصالتهم التراثية ومستجدات الحضارة العصرية. دون شعور بالدونية أمام الأوربيين وحضارتهم، ذلك أنّ النهضة الغربية الحديثة لم تكن لتتحقق لو لم ينقل الأروبيون التراث العربي- الإسلامي إلى ألسنتهم ويزاوجوا بينه وما ورثوه عن أسلافهم من مجد حضاري ومقوّمات تراثية.

ويعتقد شكيب أرسلان أنّ إحياء التراث العربي الإسلامي عامل أساسي في المحافظة على الكيان والهوّية العربية-الإسلامية مما عسى أن يتهدّدهما من أخطار الذوبان في أتون الأمة الأوربية وحضارتها. ممّا جعله يدرك مدى جسامة

مهمّات العرب والمسلمين في إحياء دفائن تراثهم وجمع شتاتها وكشف دارس مدنيتهم،وبعث ما اندثر منها.واستجلاء خوافي تاريخهم وتجليه ما انطمس منه،ولكلّ ما تقدّم فقد"...كان دائما يناشد الدول العربية والمجالس العلمية ووزارات المعارف فيها أن تعمل يدا واحدة على جمع النفائس العربية المتناثرة في مختلف خزائن أوربة ومتاحفها ومكاتبها"(9) لإيمانه الراسخ بـ"أنّ هذه المخطوطات والكتب والمعاجم التي توجد في خزائن استنبول وألمانيا وباريس ولندن والنمسا والبلقان تؤلف ثروة الأمة العربية الأدبية."(10)

ويرى شكيب أرسلان أنّ أسنى ما تخدم به هذه اللغة الشريفة إثارة كنوزها ونفض كنائن رموزها.واستخراج جواهرها التي أحرز منها النزر اليسير وبقي الجمّ الكثير.

وصفوة القول أنّ عملية إحياء التراث وتجلية كنوزه الفكرية والعلمية الدفينة تعدّ في جوهرها إسهاما هامّا في إرساء دعائم النهضة العربية المعاصرة ودفع مسارها،وعاملا مهمّا في الحفاظ على الكيان والهوية العربية الإسلامية مما يتهدّدهما من أخطار الغزو الأجنبي الأوروبي السياسي.والثقافي.وبذلك نكتشف عمق العلاقة الجدلية القائمة بين عملية إحياء شكيب أرسلان التراث العربي—الإسلامي من جهة ونضاله السياسي في سبيل تحرير العرب والمسلمين من السيطرة الأوروبية وتحقيق نهضتهم الحضارية المنشودة في كنف المزاوجة بين الأصالة والحداثة.

الهوامـــش

1) ابن المقفع. عبد الله. الدرّة اليتيمة. تحقيق و تصحيح الأمير شكيب أرسلان بيروت. المطبعة الأدبية. 1893–المقدمة ص5

2) نفس المصدر: ص 3

3) نفس المصدر: ص 5

4) أبو إسحاق الصابيء: هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني. نابغة كتّاب عصره. ولد سنة 313 هـ–تقلد ديوان الرسائل والمظالم أيّام المطيع الله العباسي. كما تقلّد ديوان رسائل معزّ الدولة الديلمي، فكان ما يصدر عنه من المكاتبات لعضد الدولة سببا في حقد هذا الأخير عليه، وعندما ملك عضد الدولة قبض عليه سنة 367 هـ وسجنه، كان صلبا في دين الصائبة. وكان يحفظ القرآن. ويشارك المسلمين صوم شهر رمضان، وله ديوان شعر. وكتاب "التاجي في أخبار بني بويه"، توفي سنة 384 هـ

5) أرسلان. شكيب: المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، تحقيق الأمير شكيب أرسلان. الجزء الأول. بعبدا لبنان–1898– المقدمة، ص2 – 3

6) نفس المصدر: ص 4

7) الأوزاعي. أبو عمرو: علم من أعلام الطبقة الأولى من مجتهدي الإسلام. لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة. أبي حنيفة ابن النعمان، ومالك بن أنس. ومحمد بن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل. ولد ببعلبك سنة 88 هـ ثمّ نقلته أمّه إلى بيروت. والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع. وهي قرية بدمشق على طريق باب الفرادس. فقيه زمانه–أجاب في 70 ألف مسألة. صناعته الكتابة والترسل كان يحيي الليل صلاة و قرآنا وبكاء. انتشر مذهبه في الأندلس زمنا غير يسير. كان دائب الدعوة إلى العدل. و التعرض للسياسة العامة والنصح للملوك والخلفاء و إغلاظ القول لهم إذا ما رأى في أعمالهم ما يضرّ بالأمّة. توفي سنة 157 هـ.

8) أرسلان. شكيب: محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي. ص 20–32

9) نفس المصدر: ص32

10) الطاهر، محمّد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان. و هو يضّم كلّ ما قيل أو كتب عن الأمير في تأبينه بعد وفاته. القاهرة. 1947. ص 84

11) نفس المرجع: ص 84

الفصل الرابـــع

شكيب أرسـلان وفنّ الترجمة

تعلّم شكيب أرسلان مبادئ اللغة الفرنسية حدثا، عهد تلقّيه العلوم والمعارف بمدرسة الحكمة ببيروت فالمدرسة السلطانية، حيث اطّلع على ما وسعه خاطره من تاريخ فرنسا وفكرها وأدبها، ثم سمحت له زياراته العديدة لفرنسا وإقامته بها فترات زمنية متفاوتة، من تعميق ثقافته الفرنسية من خلال ارتياده لدور ثقافتها ومسارحها ومعارضها الفنية وخاصة مكتباتها الثرية بنفائس تراثها الحضاري، وروائع إبداعات رجالات فكرها وأدبها في العصر الحديث. فانكبّ على مطالعة ما رآه مفيدا منها، فضلا عن ربطه وثيق علاقات الودّ والصداقة وأعلام فكرها وأدبها وزعماء سياستها، فتمّ له حذق الفرنسية لغة والإلمام بها ثقافة قديمة و معاصرة.

ولما كانت أقطار المشرق العربي: لبنان، الشام و مصر تشهد في الثلث الأخير من القرن19، وبداية القرن العشرين—معالم نهضة ثقافية—حضارية تمثّل حركة الترجمة العلمية والأدبية أحد أركانها الأساسية، فقد كان شكيب أرسلان سبّاقا إلى تسجيل حضوره كعادته في كلّ أمر جلل—بالمساهمة—شأن الكثير من مثقفي عصره—في دفع مسار حركة النقل والترجمة هذه والتي شهدت نشأتها في أوائل القرن 19 ضمن حركة محمد علي المصري الإصلاحية، بنقله إلى اللسان العربي ما عنّ له من روائع الفكر الفرنسي وأدبه، والتي اقتنع بفوائدها الجمّة في الأوساط المثقفة العربية.

ولكي يتسنى لهذه الجدوى المنشودة أن تتجسّد يشترط شكيب أرسلان في المترجم" إمّا أن يكون نفسه جامعا بين تمام المعرفة باللغة المترجم فيها واللغة المترجم إليها لا ينقصه شيء في كلتيهما، وبين الأمانة التامّة في النقل، وإمّا أن يكون الكاتب في اللغة المترجم فيها عارفا بدقائق اللغة المترجم إليها، لا يفوته منها شيء، فإذا اطّلع على الترجمة عرف صحيحها من فاسدها"(1)، وبذلك يؤكد شكيب أرسلان على أنّ عملية الترجمة مرحلة يجب أن تلي استيعاب المترجم لخصائص لغته ومقوّماتها من جهة وحذقه اللغة الأجنبية التي يروم

النقل عنها من أخرى.كلّ ذلك حتّى يوفر لترجمته أسباب الإجادة في كنف المعادلة بين الأصالة و المعاصرة.وفي هذا الصدد يدعو شكيب أرسلان المترجم العربي إلى أنْ يضمّن ما ينقله عن الغرب ذلاقة اللسان العربي.و يطبعه بمقوّمات المدنية العربية العريقة" احتفاظا بقوميته واعتصاما بأنانيته.لأنّ كلّ أمّة نسيت أصلها ونبذت قديمها وفرحت بجديدها وأنكرت رميمها فأحرى بها أن تكون أمّة ساقطة عن الأمم وأن تعدّ خلطا لا تعرف من بين الأمم. والقسط كلّ القسط في هذه المسألة هو أنّه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأمّ العربية البرّة أمّا.و لا يجعلوا لها من بين اللغات ندّا.و أن يجعلوها قطب رحي المثاقفة.و يعلموا أنّها نعم السند يوم الماتنة.فلا يرتّبوا أفكارهم في لغة قبلها(2)،حتّى يكون شأنهم في ذلك شأن الأوربيين من الفرنسيين والألمان والأنغليز في محافظتهم الشديدة على أصالة لسانهم و صيانتهم مقوّمات تراثهم الحضاري والثقافي عند أخذهم عن ثقافات الأمم الأخرى وحضارتها.

وبعد أن بيّنا الملابسات التي جعلت فنّ الترجمة يستهوي شكيب أرسلان منذ حداثته،و أبرزنا الشروط التي يلحّ على وجوب توفّرها في المترجم حتى يحقّق عمله الفائدة المرجوّة منه.يجدر بنا أن نعرّف نماذج ممّا نقله شكيب من الفكر و الأدب و التاريخ الفرنسي إلى اللسان العربي.حتّى يتسنّى لنا الكشف عن المبادئ الأساسية التي أقام عليها طريقته في الترجمة لنستخلص في مرحلة أخيرة دلالات فنّ الترجمة و أبعادها في وعيه.

1- التعريف بنماذج من ترجمات شكيب أرسلان

لم تحل غزارة اهتمامات شكيب أرسلان.ووفرة شواغله السياسية بينه وبين الانكباب على مطالعة العديد من الآثار الغربية عامّة و الفرنسية على وجه أخصّ وانتقاء البعض منها لنقله إلى اللسان العربي بعد أن أعجب به واقتنع بجمّ فوائده للعرب في إقامة صرح نهضتهم الحضارية المعاصرة.ومن بين الآثار الفكرية والأدبية الفرنسية التي نالت إعجاب شكيب أرسلان فقام بترجمتها إلى اللغة العربية أثران هامّان.أولهما تاريخي–حضاري بينما ثانيهما فكري–أدبي.

1-1- رواية: "آخر بني سراج"

هي رواية تاريخية المحتوى،عاطفية الصياغة،سلسة الأسلوب.لطيفة المعاني،قوّية المباني،حضارية الأبعاد.ألّفها الأديب الفرنسي الشهير الفيكونت دوشاتوبريان،ولمّا اقتنع شكيب أرسلان بقيمتها الفنية،والتاريخية والحضارية

فضلا عن إعجابه بكاتبها قام بنقلها إلى العربية ونشرها تباعا في جريدة الأهرام المصرية في غضون سنة1896.ثمّ طبعها بالاسكندرية سنة1897. وأعاد طبعها بمطبعة المنار بالقاهرة سنة1924.وتدور أحداث هذه الرواية حول "سياحة شاب.تام الرجولة.باهر الفروسية.من بقايا آل سراج الغرناطيين.من أكرم بيوتات العرب الباقين كانوا بالأندلس لعهد خلوها من الإسلام.هبّ من تونس حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم.سائحا إلى وطنه القديم...تلك الأرض التي عمرّها آباؤه مئات من السنين.وبينما هو يتجوّل في شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الأخير...كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الاسبانيول فعلقت بقلبه ووقعْ نظره منها على مثله فتعاشقا.وتوزّعت القصة بين حبّها وحبّه وحال دون اقترانهما إعجاب كلّ بدينه وإخلاصه لربّه.ثمّ تبيّن لابن سراج بعد طول العشرة من كون معشوقته من سلالة آل بيفا الفاتكين لدن الجلاء بآبائه.فرأى إختلاط دم القاتل بدم المقتول غير خليق بآبائه ولا ممتزج بشيمة وفائه بل منى كلّ من المتعاشقين بحبيبه صبّا.فقد اختلطت مهجاتهما حبّا ولم يفرّق بينهما إلاّ الدّين و إلا الموّدة في القربى"(3)

ولئن كانت رواية شاتوبريان الأصلية تنتهي إلى هذا الحدّ.فقد عمد شكيب أرسلان بحكم ثقا فته الموسوعية وغزير علومه و معارفه التاريخية إلى أن يذيلها بثلاث كتب تصوّر هذه الحقبة التي تسردها أحداثها حتى يكمّل ما لمسه من نقائص تاريخية تخصّ أواخر أيام العرب والمسلمين بالبلاد الأندلسية وقد أورد هذه الكتب الثلاثة على النحو التالي:

أ- " خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة" بقلمه.

ب-"أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر".نشره شكيب أرسلان لمؤلّف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه.

ج- إثارة تاريخية رسمية-وهي أربعة كتب سلطانية أندلسية من أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة- طبع بمطبعة الأهرام سنة 1897.

إنّ اختيار شكيب أرسلان ترجمة هذه الرواية إلى اللسان العربي لم يكن اعتباطيا وإنّما كان ثمرة عديد العوامل التي حفزته على إفادة بني قومه العرب وبني ملّته المسلمين بحوادثها والاعتبار بها.ويكشف شكيب عن الحوافز التي دفعته إلى ترجمة رواية شاتوبريان هذه دون غيرها بقوله:"...أصبت هذه القصة في بعض المضان فاخترت نقلها إلى اللسان العربي المتين للطف معناها

وشرف مغزاها وما تضمّنته من آداب المحبين، وإيثارا لما فيها من مكارم الأخلاق. ومزايا الأشراف من الفرسان واطّلاعا على كثير من الصفات الملكية متزحزحة عن الأفق الملإ العلوي إلى عالم الإنسان استدلالا على بديع صنع الله حين يجمع بين الحسن والإحسان. ثمّ تعريفا بحال الفروسية إذّاك وما انطوى من مكارم الأخلاق بين الإلحاح والإسراج وتلذّذا بذكرى السلف واستقراء لآثار العرب على نحو الغرض الذي حدا بقية بني سراج."(4)

1-2-كتاب: "أناتول فرانس في مباذله"

أثر فكري. أدبي نقدي. يتناول بالدرس والتحليل سيرة علم من مشاهير أعلام الأدب والفكر الفرنسي المعاصر: تيوبوليب أناتول فرانس، بمناسبة وفاته. وقد أقدم شكيب على ترجمته-وهو مقيم بمرسين إحدى ضواحي الأستانة-بعد أن اقتنع بأهميته الفكرية وقيمته الثقافية، حتى يستفيد من مضامينه بني جنسه من المفكرين والأدباء العرب الذين يجهلون اللسان الفرنسي أو لا يحذقونه.

وقد صدّره شكيب أرسلان بمقدّمة ثرّية كشف فيها عن حقيقة الروابط الجامعة بين الشرقيين والغربيين منذ أقدم العصور في كلّ مجالات الحياة العقلية والعملية، ثمّ تخلّص لإبراز سمات أناتول فرانس المفيدة بين أدباء عصره وما كان يحظى به من رفيع المنزلة، وكشف عن الظروف التي حفت به وهو يترجم هذا الأثر في مرسين بالأناضول في غضون سنة 1925 بقوله: "وقد وافقت هذه الترجمة أياما عدتني فيها عدواء الأشغال عن إيفاء التنقيح حقه، وإبلاغ التمحيص شأوه بل كنت أنقله من النصّ الفرنسي رأسا إلى المسودّة المعدّة للطبع بدون تبييض حتّى أخرجته كلّه في ثلاثة أشهر لا غير. وأنا أتمنّى لو كان في الوقت ممتدح أوسع فأبذل فيه أكثر ممّا بذلت من الجهد وأراجع عليه النظر كرّة بعد كرّة حتّى لا يلتوي فيه شيء عن القصد"(5). وقد عني بنشره أنطوان الياس صاحب المطبعة العصرية بالفجالة-لبنان سنة 1925.

وقد ورد هذا الأثر في شكل ثلاثة كتب موّحدة المحتوى مختلفة المؤلف:

أ-زبدة ما قالته الجرائد الفرنسية في فرانس يوم وفاته (13أكتوبر1924)

وهو عبارة عن مجموعة غزيرة من كلمات التأبين و المقالات التي نعى فيها أصحابها عبر أعمدة الصحف الفرنسية فقيد الأدب الفرنسي تيوبوليب أناتول فرانس فاستعرضوا مآثره الفكرية والأدبية والصحفية من خلال أنشطته العلمية وآثاره. وما كان له من مساهمات رائدة في دفع مسار الفكر الفرنسي المعاصر.

ب-**محادثات مع أناتول فرانس**: تأليف نيقولا سيغور. وهو عبارة عن عدد وفير من الخواطر والذكريات يسوقها نيقولا سيغور عن صاحبه فرانس الذي لازمه طويلا وعرف من حياته وأخلاقه وعلمه ما لم يعرفه أحد غيره.

ج- **" أناتول فرانس في مباذله"**: تأليف جان كاك بروسون. وهو أثر عرض فيه صاحبه معالم من سيرة أناتول فرانس الذاتية في مختلف مراحل حياته وخاصة علاقاته الغرامية الإباحية وأجواء مجنونة، وتهتكه الأخلاقي.

لقد وجد شكيب أرسلان في كتابات أناتول فرانس مثيلا له في محافظته على ديباجة الأولين في النثر والشعر. إذ كان فرانس-على غرار شكيب- من عشاق النثر القديم وأدب العصور الزاهية و"لم يوجد في كتّاب أوربة كاتب أشدّ شغفا بالمحدثات العصرية وذهابا مع النظريات المادية وأقلّ اعتبارا للعقائد الدينية من صاحب هذه النوادر الذي كان معدودا في آخر أمره من الاشتراكيين لا من البلاشفة الملحدين الذين نصبوا العداوة للدين، وعدّوا أهله من المفسدين ومع هذا فلمّا جاءت المسألة إلى اللغة رأيته أعضّ الكتّاب بالنواجذ على النسق الفرنسي القديم والأسلوب التدريسي المتين حتّى كان الأدباء لا يميّزون بين كلامه و كلام راسين الذي عاش قبله بنحو 150 سنة.."(5).

وهكذا فإنّ حافز شكيب أرسلان على ترجمة هذا الأثر تمثّل في إعجابه الفني بأسلوب فرانس الأصيل ولغته الشريفة الصافية المتجذّرة في القدم والمحافظة على مقوّمات اللغة الكلاسيكية القديمة والآخذة من معجم اللغة العصرية، و بذلك فإنّ طرافة أناتول فرانس وتفرّده- في الفكر الأرسلاني- تكمنان في توفيقه في المزاوجة بين القديم والحديث لغة و أسلوبا، باعتبار أنّ أناتول فرانس وغيره قد عرفوا أن يجمعوا الطريف إلى الشريف ويودعوا الحديث في القديم.(6)

2- معالجة شكيب أرسلان فنّ الترجمة

إنّ قراءة تقييمه لترجمات شكيب لأرسلان الفكرية والأدبية والتاريخية تسمح لنا باستكشاف المبادئ الأساسية التي يتوخاها. في تعامله مع النصوص الأجنبية التي نقلها إلى اللسان العربي، وهي المبادئ التي تمثّل المقوّمات التي تنبني عليها طريقته في الترجمة.

إنّ ما يجدر التنصيص عليه أنّ اختيار شكيب أرسلان للنصوص الأجنبية التي يرى ضرورة ترجمتها إلى اللغة العربية ليس اعتباطيا بقدر ما هو خاضع أساسا إلى مقاييس ذاتية تشكّل قناعات شكيب الشخصية في ممارسته لهذا

الفنّ الأدبي.فغالبا ما يكون اختياره هذه النصوص وليد إعجاب ذاتي بها قبل أي اعتبار آخرِ لكونها تلتقي وأذواقه الأدبية—الفنية.وتستجيب لشواغله الفكرية.فترجمته مثلا لرواية:"آخر بني سراج"للأديب الفرنسي الفيكونت دو شاتوبريان دون غيرها من روائع الفكر والأدب الفرنسي تعود في جوهرها إلى إعجابه بصاحبها الذي يعدّه من" أكتب كتاب الفرنسيين.يمتاز أسلوبه بعلو الطبقة و الفخمية وغزارة التصوّرات ورقّة الشعر وشفوف الحسّ ودقّة الوصف ونصوع اللون"(7).ولمعالجة مضمونها حقبة زمنية هامّة شغلت فكر شكيب وتتمثّل في أواخرِ العهد العربي الإسلامي ببلاد الأندلس .

وإذا ما تخلصنا إلى كيفية تعامل شكيب أرسلان والنصوص الأجنبية التي قام بترجمتها فإنّنا نقف لأوّل وهلة عند ظاهرة إيجابية ميّزت ترجماته، وتتمثّل في تجاوزه مستويات الترجمة الدنيا التي كان يتوخاها أغلب معاصريه في ترجماتهم إلى العربية.من تلخيص للآثار الأجنبية،إلى اقتباس لها الأمر الذي يمسخها ويفقدها روحها الأصلية،فتكون الترجمة خيانة لها والمترجم خائن لصاحبها،إلى مستوى أدبي راق يمثله التعريبِ الذي دفع صاحبه إلى المحافظة على روح النصّ الأصلي عند نقله إلى اللسان العربي فضلا عن صياغته صياغة عربية فصيحة اللغة،لا دخيل في ألفاظها،جزلة الأسلوب لا تداخل في صيغها.سلسلة التركيب لا تعقيد في بناها،وهذا ما رام شكيب أرسلان تحقيقه في تعامله مع النصوص الأجنبية التي اختار نقلها إلى العربية، ووفّق فيه إلى حدّ.إذ وقع—من حيث لم يقصد—في عديد المآخذ الفنية التي يتمثّل أبرزها في:

- تغليبه نزعة السرد على الفنّ القصصي في رواية"آخر بني سراج".ممّا جعلها تفقد في العديد من مواضعها جانب الإثارة والتشويق وتتسّم بشيء من الرتابة المملّة للقارئ.
- جنوحه إلى الإسراف في التكلّف والمغالاة في التصنّع عبارة ومعنى ممّا جعل النصّ العربي يرد غالبا غريبا في صوره وحواره وتفكيره عن النصّ الأصلي ممّا يضعف واقعيته ويقرّبه من الخيال.
- تصرّفه اللامحدود في مواد النصّ الأصلي بإضافته إليه الكثير من المواد سعيا منه لتجميله وتنميقه —دون اعتبار لوجوب إلزامه الحدود التي ضبطها له كاتبه— من ذلك إيراده عديد الأشعار غير المثبتة أصلا في رواية " آخر بني سراج" كوصفه جمال الفتاة شعرا بقوله:

لها منظر فيه النواظر لم يزل . يروح و يغدو و في خفارته الحبّ (8)
وكذلك تعمّده تذييل هذه الرواية بثلاثة كتب دخيلة عنها رام من خلالها إكمال ما صوّرته من أحداث تاريخية تخصّ أواخر أيام العرب والمسلمين ببلاد الأندلس، جاء حجمها أضعاف الرواية المترجمة. مما يعكس نزعة شكيب أرسلان الموسوعية من خلال إضافاته الكثيرة. واستطراداته الطويلة. وتعليقاته المسهبة، فيصير الأصل ضئيلا بالمقارنة وهذه الإضافات و كأنّ الكتاب يصبح من إنشاء شكيب لا غيره. وكما يعمد شكيب أرسلان إلى هذه الإضافات المبالغ فيها رغبة منه في إفادة القارئ حول المسألة المطروحة بأغزر ما يتوفّر له من علم ومعرفة يلتجئ أحيانا إلى إسقاط أشياء من النصّ الذي يترجمه لا يرتضيها ويستبدلها بأخرى، من ذلك تعمّده حذف الكثير من مواد أثره "أناتول فرانس في مبادله" لعدم رضاه عنها. ويعلّل تصرّفه هذا في النصّ الأصلي بقوله: "...لكننا أسقطنا منه كثيرا مما يضرّ بالعفة والطهارة وحققنا شيئا منه بصورة الكناية وبالمعاريض وردنا عليه في بعض الحواشي أو ذكرنا أنّ كلامه من قبيل النكتة المرسلة و غطينا أشياء كثيرة" (9).
ولعلّنا نجد تعليلا لهذه المآخذ في أنّ فنّ الترجمة لم يكن يخضع لدى شكيب أرسلان لمقاييس علمية مقنّنة بقدر ما يحدّد معالمه الذوق الشخصي الانطباعي، وتلوّنه المقاييس الذاتية، إذ كان يمثّل أحد أنواع النشاط الأدبي التي كانت تستهوي شكيب أرسلان من حين لآخر فينشئ فيها ويبدع. وبذلك فإنّ هذه الترجمات—التي عرضنا منها نموذجين—لا تعدو أن تكون تمارين قام بها شكيب أرسلان في هذا الفنّ الذي لم يكتمل نضجه بعد في ساحة الثقافة العربية، ومع ذلك" فقد جاء فيه شكيب بالطريف في روعة أسلوبه وجماله، وبلاغة بيانه وفصاحة لغته التي أبدع الكثير من فرائدها إلى حدّ أشعرنا بأنّ المترجم امتزج بالمؤلف واندمج فيه فكان هذا اللقاء الروحي في قمّة الأدب" (10)
ولما عرضنا نماذج من ترجمة شكيب أرسلان لبعض الآثار الأجنبية الفرنسية اللسان يجدر بنا أن نستقرئ دلالات فنّ الترجمة وأبعاده في الفكر الأرسلاني حتى تكتمل لنا معالم صورة شكيب المترجم.

3 – دلالات الترجمة و أبعادها في الفكر الأرسلاني

إنّ فنّ الترجمة في الفكر الأرسلاني لا يمثل غاية في حدّ ذاته بقدر ما هو جسر لتحقيق العديد من الفوائد الثقافية والحضارية التي تساهم بفاعليته في بناء صرح النهضة العربية المعاصرة في شتّى المجالات، وعليه فإنّ شكيب لا

يعتبر نقل العرب في العصر الحديث عن الفكر الأوروبي وحضارته مظهر تبعية ثقافية –حضارية للغرب بقدر ما هو تجسيد وتواصل للعلاقات العريقة المتينة التي جمعت وألفت بين الشرقيين والغربيين منذ أقدم العصور، إذ"لم يعهد التاريخ دورا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين، وخلطة الغربيين بالشرقيين. ونسخ كلّ فريق عن الآخر، واقتباس هذا من ذاك أخذا وردّا وجزرا ومدّا حتى في أعرق الأدوار في القدم وأوغل الأطوار في الظلم. وقد عمّ هذا التحاك جميع أحوال الحياة وأركان العمران من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة. فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتاجر فقد تناقلوا الحكم والخواطر. وكما حمل بعضهم إلى بعض المهن والصناعات فقد حملوا الاختراعات والبراعات... إذا الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولي اليوم الأمس لم ينحصرا في الأمور المادية والحوالات المالية والآثار اليدوية بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية وما ترّقت سلم الاجتماع أمّة في الشرق ولا في الغرب إلاّ كان الآخر عيالا عليها جادّا في محاكاتها ومتحسّرا على مناغاتها..."(11)

وهكذا فإنّ شكيب أرسلان يعتبر نقل العرب في العصر الحديث عن الغرب ظاهرة عادية، طبيعية متجذّرة في القدم وامتدادا لعلاقات خصبة ثرية جمعت الشرق بالغرب طويل الحقب. لذا يرى ضرورة ألاّ يشعر العرب بالدونية أمام الأوربيين في العصر الحاضر إن عمدوا إلى الإفادة من علومهم و معارفهم ومعالم حضارتهم. ذلك أنّ هؤلاء الغربيين في عهود انحطاطهم الحضاري وجد بهم العلمي قد نقلوا عن العرب ثقافتهم وعلومهم ومعالم حضارتهم. وعليه فإنّ ما يقوم به العرب في الواقع المعاصر إن هو إلاّ استرداد لدين حضاري متخلّد بذمّة الأوروبيين سبق أن أخذوه من أسلافهم العرب في عصور نهضتهم ورقيهم الحضاري، وبذلك فإنّ نقل العرب والشرقيين عامّة عن الغرب هو حقّ شرعي آن أوان استرداده لبناء صرح نهضة عربية – شرقية في العصر الحاضر، خاصّة وقد بسط الغرب نفوذه على البلاد الشرقية" فرأى الشرق أن لا قبل له بمناهضة الغرب على وجه كاف لنجاحه إلاّ بأن يقاتله بسلاحه فاضطرّ الشرق إذن أن يأخذ عن الغرب طوعا أو كرها والضعيف مولع بتقليد القوي كلّ ما يتسنّى له أخذه من أسباب المدنية كأداة الحرب والمتاع والماعون والعلم والحكمة و القانون"(12)

وهكذا فإنّ عملية الترجمة في الفكر الأرسلاني ضرورة حضارية تروم تحقيق

رقي العرب الحضاري بعد قرون سباتهم وتخلّفهم،وبذلك فهي المظهر الجلّي الذي يتجسّد فيه التلاقح بين الحضارات المختلفة،وبالتالي فهي الجسر الذي يمرّر الحضارات،ويكوّن حلقة التواصل بينها،ولا يعني كلّ هذا أنّ العرب في العصر الحديث خلوا من كلّ قيمة بل انّ فنّ الترجمة يمثّل عنصرا أساسيا مكمّلا لنقائصهم التي تحتاجها نهضتهم المعاصرة.ويكشف شكيب هذه الحقيقة في قوله:"وليس المقصود بهذا أنّ محاضرات العرب بالآداب الأوروبية لا تعدّ من الأدب أو أنّها نقص في ناشئة العرب وأنّ اللغة ضيقة العطن لا تطيق علما حديثا ولا أدبا طريفا وأنّها تجد في صدرها حرجا من كلّ دخيل، كلاّ فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدّنة وآدابها وأمثالها وأقاصيصها من قديم الزمن من الهند وفارس واليونان والرومان فازدادت بها كمالا.وكسبت بها ثقالا....فتأثّل بها للعربية لغة حاضرة بادية مستوفية شروط الحضارة متمكنة من أزمّة الحكمة جامعة بين فصاحة القرائح الفطرية ودقة المباحث العلمية واكتنزت في خزائن التأليف العربي ثروة بيانية لا نزال ننفق منها إلى يومنا هذا.وكذلك يكون من محاسن هذه اللغة أن تكون حاوية من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائد نظمهم ونثرهم ما إن لم يكف ذوي الاخصّاء مؤونة درس هذه الآداب في لغاتها الأصلية كان كافيا السواد الأعظم مؤونة المشاركة بها في اللغة العربية نفسها"(13).

وبناء على ذلك يعتقد شكيب أرسلان أنّه من أوكد واجبات العرب في العصر الحاضر الأخذ عن الحضارة الغربية علومها وفنونها ومحاولة ملائمة هذه الأخيرة وما بلغه السلف من علوم ومعارف لتحقيق المعادلة الحضارية، بالمزاوجة بين الأصالة والمعاصرة لبناء نهضة عربية حديثة متأصلة في تراثها الحضاري وآخذة بأسباب التقدّم الحضاري الغربي،ولن يتسنى لهذا المطمح المنشود أن يتحقق إلاّ بالترجمة.

الهوامـــــش

1) الشرباصي. أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، .ص 655، من رسالة بعث بها الأمير شكيب أرسلان إلى صديقه الشيخ محمد رشيد رضا. من مرسين (تركيا). بتاريخ 12 مايو1924.
2) بروسون. جان جاك: أناتول فرانس في مباذله، ترجمة و تعليقات الأمير شكيب أرسلان. القاهرة. المطبعة العصرية. 1926، المقدمة، ص4.
3) شاتوبريان: آخر بني سراج. (رواية). عرّبها الأمير شكيب أرسلان.
4) نفي المصدر: المقدمة
5) بروسون. جان جاك: أناتول فرانس في مباذله، مع كتاب لنقولا سيقور في أناتول فرانس. ترجمة وتعليقات الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، المطبعة العصرية. 1926.
6) نفس المصدر: المقدمة
7) نفس المصدر: المقدمة. ص 6-7
8) نفس المصدر: ص 89.
9) أرسلان، شكيب: آخر بني سراج، ص158
10) نفس المصدر. وانظر الصفحات 15-25-30-32-36-38-39 و غيرها.
11) نفس المصدر: المقدمة
12) الدّهان، سامي: شكيب أرسلان حياته وآثاره، القاهرة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، 1976. ص 247-
13) أرسلان. شكيب: أناتول فرانس في مباذله، المقدمة
14) نفس المصدر: ص4
15) نفس المصدر: المقدمة. ص 6

الفصل الخامس

تعامل شكيب أرسلان مع التاريخ العربي الإسلامي

إنّ اهتمام شكيب أرسلان وولعه بعلم التاريخ لا يعدّ حدثا طارئا على شواغله الفكرية إذ نجده متجذّرا في فكره الثقافي. ويشكل إحدى مقوّماته الأساسية، فمنذ حداثته كان يشعر برغبة قويّة في تقصّي تواريخ البلدان القاصية والدانية عامّة والبلاد العربية –الإسلامية تراثا وحضارة على وجه أخصّ. ويكشف لنا عن ميله الفطري للتاريخ بقوله: "ولما كنت من بداية نشأتي مغرما بعلم التاريخ، وقد حررت فيه تواريخ كثيرة للبلاد النائية عنّا وجدت من الأحرى بشأني أن أؤرخ حوادث بلادي وأبدي فيها وجهة نظري مع التحرّي التام و التمحيص البليغ"(1). وبذلك فإنّ علم التاريخ يحظى بمنزلة متميّزة في فكر شكيب أرسلان الثقافي. تجسّدت كأجلى ما يكون في عديد الآثار التاريخية الهامة وثائقيا، التي ألفها بنفسه أو التي تناول التعليق عليها وشرحها والإضافة إليها من واسع معارفه التاريخية للتراث الحضاري الإنساني عامّة والعربي–الإسلامي بصفة أخصّ. لما يتمتّع به –هذا الأخير– من منزلة رفيعة في فكره ووجدانه.

وسنعمد إلى دراسة فكر شكيب أرسلان التاريخي بمحاولة تحديد مفهومه للتاريخ في مرحلة أولى، لنتدرّج إلى استجلاء ما يراه له من وظائف في مرحلة ثانية، ثمّ ننتقل إلى استكشاف الحوافز التي جعلته يركّز بحوثه التاريخية على التاريخ العربي الإسلامي تراثا وحضارة، مدعمّين ذلك بعرض لنماذج تاريخية له توفّرت بين أيدينا بينما تعذر علينا العثور على العديد من الآثار الأخرى لعدم إعادة نشرها، قبل أن نختتم بتحديد معالم منهجه التاريخي و مقوّماته.

1– حدّ التاريخ

انتهج شكيب أرسلان في تحديده لمصطلح علم التاريخ منهج التعريف الوظيفي، الذي يحدّد معالم الشيء اعتمادا على ما يقوم به من أدوار، وبناء على ذلك فقد رأى أنّ "علم التاريخ هو الواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل والرابط بين الآنف والمستأنف"(2). ثمّ نعثر له على حدّ آخر يذكر فيه أنّ

"التاريخ بالجملة إنّما هو فرع من فروع الفلسفة وهو جدير بأن يجعل في عداد العلوم الجليلة التي لها المكانة الأولى"(3).ونستشف من خلال هذا التعريف النفس الخلدوني،باعتبار أنّ شكيب أرسلان كان شديد الإعجاب والتأثّر بفلسفة التاريخ لدى العلامة عبد الرحمان ابن خلدون،الأمر الذي جعله يتناول تاريخه بالتعليق والشرح،لما لمسه فيه من قيمة تتماشى وأحوال العرب والمسلمين المعاصرة،وذلك للحركة الدائرية التي تسير عليها أحوال حوادثه.

2- وظائــف التـاريخ

لئن نزّل شكيب أرسلان علم التاريخ هذه المنزلة الراقية فعدّه من العلوم الجلائل التي يتحتّم على الأفراد والمجموعات تنزيلها المكانة الأولى من اهتماماتهم الفكرية والحياتية فلوعيه العميق بخطورة الأدوار التي يضطلع بها، يمكننا أن نحدّدها فيما يلي :

2-1- تأصيل كيان الأمّة و حفظ تراثها

يقرّر شكيب أرسلان بعد طول تأمّل في تواريخ الأمم المتعاقبة وتمعّن في معالمها،وسبر لأغوارها وخفاياها"أنّ حفظ التاريخ هو الشرط الأوّل لحفظ الأمم ...وأنّه لا يتصوّر على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة بنفسها إلاّ إذا كانت حافظة لتاريخها واعية بماضيها متذكرة لأولياتها ومبادئها،مقيّدة لوقائعها مسلسلة لأنسابها حاشدة لأحسابها خازنة لآدابها ممّا لا يقوم به إلاّ علم التاريخ".(4)

وهكذا فإنّ التاريخ–في فكر شكيب أرسلان–يؤصّل كيان الأمّة تراثا وحضارة،حيث يعمّق جذور انتمائها ويجعلها تعي مقوّمات ذاتها الموروثة والمكتسبة،وتدرك حقيقة منزلتها بين غيرها من الأمم لما تتمتع به من سمات مميّزة فلا يتسنى لوجود أمّة أن يتواصل إذا ما فقدت هويّتها التاريخية وأضاعت مقوّمات كيانها الحضاري ماضيا وحاضرا.ذلك أنّ تاريخ الأمّة إن هو إلاّ شهادة أصلية لا تقبل الطعن في وجودها بفضل ما يحفظه لها من مبادئ، وما يخلّده من مفاخر،وما يصونه من أسباب وما يخزنه من آداب،وما يحسبه من أحساب –وما يبصره من مقوّمات شخصيتها و دعائمها.

2-2- استنهاض همم الأمّة و دفعها نحو الرقي

يشكّل التاريخ– في وعي شكيب أرسلان– عاملا أساسيا يستنهض همم الأمّة،بعد خمول ران عليها،ويحفزها على طلب المعالي،والتوق إلى بناء غد أفضل منشود،فالأمّة تعتبر بما جدّ لأسلافها من تقلّبات أحوال،ثمّ تسعى إلى

الاستفادة من كلّ ذلك حتّى توفّر لحاضرها أكثر سبل النجاح،وتضمن لنفسها أسباب النموّ والانطلاق نحو مصاف التحضّر والرقيّ،ذلك أنّ النهضة العصرية لن يتسنىّ لها التحقق ما لم تأخذ بعين الاعتبار حوادث الماضي وما لم تقم دعائمها على المقوّمات الإيجابية التي أهلت للسلف التحضّر وسيادة الأمم. وهي لن تتّم إذا ما انبتّت عن جذور ماضيها ولم تحاول الالتئام معها والاتصال لكلّ هذا يقرّ شكيب أرسلان بأنّ"حفظ التاريخ هو الشرط الأوّل لحفظ الأمم ونموّها ورقيّ الأقوام وسموّها"(5)،ويؤكّد أنّ"التاريخ هو الذي يعلّمنا كيف تقلبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذي منه يعرف بناء الممالك وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض كلّ أمة إلى المدّة المقدّرة لها من الحياة...وأعظم أسراره هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها والتأمّل في الأسباب التي أنشأتها،وفي كيفية جريانها وتطورها"(6).

وهكذا يشكّل علم التاريخ في الفكر الأرسلاني خير حافز للأمم على النموّ والرقي والسموّ إلى أرقى درجات التحضّر بما يوفره لها من معطيات نهضة ووسائل رقيّ مصدرها تراث السلف الحضاري الذي يعتبر أساسا لكلّ محاولة نهضة معاصرة،ولكلّ هذا يقرّ شكيب أرسلان أنّه"لا جدال في كون الأمة العربية الّتي تتحفز لتنباع و تستوقر لتمدّ طائل الباع،لم تكن لتحدّث نفسها بالنهوض الذي وضعته نصب نواضرها والاتحاد الذي سيرته شغل خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة الممالك فيما غير هاتيك الدرجات العالية،وطالعت من تاريخها تلك الصفحات المتلألئة،فجعلت الحاضر منها يخجل أن يقصر عن شأو الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيّدا في الأوائل وهو عبد في الأواخر فكان إذن تاريخ العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون إليه من معال ووسيلتهم فيما يندفعون إلى تحقيقه من آمال"(7).

3- حوافـز اهتمام شكيب أرسلان بالتاريخ العربي الإسلامي

لئن شغلت تواريخ الأمم على اختلاف أجناسها وتنوّع تراثها وحضاراتها جانبا مهمّا من اهتمامات شكيب أرسلان الفكرية فإنّ انشغاله بتتبّع معالم التاريخ العربي–الإسلامي كان الطابع المميّز لفكره التاريخي خاصّة والسمة المفيدة لفكره الثقافي عامة،وسنعمد انطلاقا من هذا المبدأ إلى استبيان الحوافز التي كانت وراء تركيزه على إحياء ذلك التاريخ العربي – الإسلامي.

3-1- العروبـة و الإسـلام

يستمدّ اهتمام شكيب أرسلان بتاريخ الحضارة العربية– الإسلامية مشروعيته

ومنزلته الرفيعة من قناعاته الذاتية التي جعلته يركّز على تتبع وقائع التاريخ العربي–الإسلامي. واستقصاء أسبابها ومسبّباتها، واستجلاء أبعادها لتوظيفها في الواقع المعاصر. لما فيه صالح قومه العرب ونفع بني ملته المسلمين. فكان نبشه عن مآثرهم أينما حلّوا وأسسوا معالم مدنية عربية–إسلامية لا تزال قائمة كأنصع شاهد على عظمتهم، وتجذّر تراثهم في تربة الحضارة الإنسانية: ذلك "أنّ كل عربي صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده، ويتدارس معالي هممهم مع إخوانه، ويترك من ذلك تراثا خالدا لأعقابه"(8)، وينضاف إلى هذا إدراكه واقتناعه "بأنّ تاريخ العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون إليه من معال ووسيلتهم فيما يندفعون إلى تحقيقه من آمال"(9).

وتكريسا لهذا المبدأ تندرج رحلات شكيب أرسلان إلى كلّ الربوع التي ضمّت معالم من الحضارة العربية –الإسلامية التي يفتخر بالانتماء إليها، ويدافع عنها ويعلي من شأنها أمام أعدائها من الأمم الأخرى، ويسعى لتبصير معاصريه العرب والمسلمين بصفحات مشرقة من تاريخ أسلافهم الحضاري بالبلاد العربية وخاصة الأوروبية: وتوعيتهم بالأدوار التي قام بها هؤلاء الأسلاف في الديار النصرانية، وما ركزوه من دعائم حضارة، ومعالم تراث خالد تعكس مدى ما وصلوا إليه من رقيّ وتقدّم، كل ذلك حتّى يعتبروا فيسعوا إلى ربط ما انبتّ عن نهضة أجدادهم الحضارية التي استغلها الغرب أيّما استغلال لتشييد صرحه الحضاري بينما تجاهلوا قيمتها وأنكروا فضلها، ممّا أفرغ أنفسهم من كلّ ثقة واعتداد فتعمّقت تبعيتهم للنصارى، وتعاظم شعورهم بالعجز عن مماشاة إبداعاتهم الخلاّقة. لذا فالعودة إلى استقراء صفحات كتاب تاريخهم إن هي إلاّ وسيلة مثلي تجعلهم قادرين على تجاوز كلّ مركبات عجزهم ومواكبة ركب التحضّر الغربي.

3-2- نقائص التاريخ العربي الإسلامي

لمّا اطّلع شكيب ارسلان على أمهات الكتب التي أرّخت للعرب و المسلمين واكتشف كلّ المعالم التي تركها هؤلاء خاصة ببعض الأمصار الأوروبية كسويسرا وفرنسا وإيطاليا و صقلية وأسبانيا حكم على العرب بأنّهم قد قصّروا في استجلاء كنوز مدنيتهم بمعظم هذه البلاد الأوروبية التي تدعّي لنفسها التمدّن والرقيّ، ونعتهم بالجهل والتخلّف وقصور عقليتهم عن إدراك شأو الإبداعات التي خلقتها العقلية الأوروبية والإتيان بمثيلها، فقد أهمل العرب مثلا الكتابة عن الأدوار التي قام بها أسلافهم بالبلاد الأوروبية واقتصروا على

تدوين وقائع التاريخ العربي الإسلامي بالبلاد العربية الإسلامية فحسب دون محاولة تجاوزها إلى أمصار أخرى فتحها العرب.وأقاموا بها ردحا من الزمن وتركوا بها معالم مدنية يجدر الافتخار بها"...كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطاليا وسويسرا وما كانوا يقولون له" الأرض الكبيرة "وفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم حقبا طويلة وأثروا فيها.فإنّ هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولا بل إنّ كثيرا من ناشئتهم لا يعرفون كثيرا ولا قليلا والحال أنّه من أقعس فتوحاتهم مجدا وأوعر مغازيهم غورا ونجدا"(10).

ثمّ يقرّر شكيب أرسلان أنّ"من أخصّ ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنّه من أمجد ماضيهم وألمع ما لمعت فيه مواضيعهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوروبية خارجا عن الأندلس".(11)

وهكذا يكشف شكيب أرسلان عن جوهر توجهّه للاهتمام بالتاريخ العربي الإسلامي الناتج أساسا عن إدراكه أنّ هذا التاريخ يشكو فراغات ونقائص لابدّ للعربي الصميم الغيور على تراث عروبته الحضاري من أن يكمّلها حتّى يضحى هذا التاريخ متكاملا الأجزاء،واضح المعالم.كلّ هذا رغم إدراك شكيب أرسلان العميق بأنّ إسهاماته التاريخية لا يمكنها أن تكمّل كلّ النقائص التي يشكوها التاريخ العربي- الإسلامي بل لابدّ من إسهامات أجيال متواصلة لجعل معالم صورة هذا التاريخ كاملة.ويفصح هن هذه الحقيقة في قوله:"...لعمري أنّ هذا التاريخ المجيد وإن سقته سيول المحابر وأخضّرت له أعواد المنابر وسبقت فيه تآليف استولى أصحابها على الأمدّ إخراجا ولعت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجا ولو نفذت لكانت أبراجا،لا تزال فيه نواقص بادية العوار،ومعالم طامسة الآثار،ومضّان متوارية غامضة،ومعلومات قاعدة غير ناهضة تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا دفائنها،وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينتلوا من كنائنها."(12)

3-3- الردّ على حملات الغرب المغرضة

أراد شكيب أرسلان من خلال إحيائه الكثير من المآثر والمفاخر الحضارية العربية البرهنة للغرب عامّة وللأوروبيين خاصّة على وجود مدنية عربية إسلامية ما فتئوا يعملون على جحدها وطمس معالمها وتشويه صورتها المشرقة. لإبراز ريادتهم للأمّة العربية حضاريا وتبعية هذه الأخيرة لهم في كلّ المجالات وجنوح أفرادها إلى التقليد الأعمى بدل الإبداع والخلق.فعمد إلى فضح نواياهم

هذه من خلال مؤلفاته التاريخية أو تعليقاته وحواشيه على آثار غيره من المؤرخين عربا كانوا أم عجما، وتكذيب افتراءاتهم، وإبطال مزاعمهم بالحجة والدليل والبرهان الساطع الذي لا يقبل مماحكة ولا ردّا. كلّ ذلك ليؤكد أنّ العرب فيما مضى كانوا أسيادا للأوروبيين بما بلغوه من مراتب رقي وما أقاموه من معالم حضارة غزت الكثير من الأمم والأمصار، وأنّ هذه الدول الأوروبية المعاصرة التي تتباهى برقيّها الحضاري. محقرة الجنس العربي، وجاحدة كلّ فضل له لم يكن ليتسنّى لها أن تبلغ هذا الشأو الحضاري لو لم تنهل من روافد التراث والحضارة العربية-الإسلامية التي غزت ديارها فاستفاد منها العلماء من أقوامها ووظفوها لإقامة صرح نهضتهم. ثمّ إنّ هذا العقم التي يسم به الأوروبيون العقل العربي الذي يرونه عاجزا عن الإبداع. إن هو إلاّ تغطية لحقبة طويلة. من تاريخ فكرهم الذي كان يشكو العقم ويرين عليه الحمول والتخلّف.

لكلّ هذا فإنّ إحياء شكيب أرسلان للصفحات المشرقة من تاريخ التراث الحضاري العربي-الإسلامي إن هو إلاّ إنصاف لقومه العرب وبني ملته المسلمين لغبن وتجاهل شهدته جوانب وضّاءة من تاريخهم عمد الغرب إلى طمس معالمها. والانتقاص من شأنها لكي يرضي مركب الشعور بالاستعلاء مقارنة وببقية الأجناس الأخرى و خاصّة الجنس العربي منها.

وهكذا فبعد أن أبرزنا حدّ شكيب أرسلان للتاريخ. وبيّنا ما يرتئيه له من وظائف مصيرية، وحلّلنا الحوافز التي كانت وراء تركيزه على استجلاء معالم التاريخ العربي-الإسلامين يجدر بنا دراسة فكر شكيب أرسلان التاريخي أن نعرض بالوصف و التحليل والاستقراء للبعض من نماذج كتاباته التاريخية التي تسنّى لنا العثور عليها فيسر تعاملنا معها. لنختم بتحديد مقوّمات منهجه التاريخي وخصائصه الإيجابية من جهة، ومظاهره السلبية من أخرى .

4- محاولة التعريف بنماذج من كتابات شكيب أرسلان التاريخية

تكمن أهمية التعريف بنماذج من كتابات شكيب أرسلان التاريخية في كون هذه الأخيرة تكشف لنا بجلاء، عمق العلاقة الجدلية القائمة بين شكيب وأحداث التاريخ العربي-الإسلامي القديم وما تشتمل عليه من غزير العبر ووقائع الحاضر وما تمليه عليه من تحدّ للمرحلة المتأزّمة التي تمرّ بها مجتمعات البلاد العربية-الإسلامية على مختلف الأصعدة، وبذلك فإنّ هذه الكتابات ليست نتاجا فكريا باردا بقدر ما هي دلالة واضحة على مدى التزام شكيب بقضايا أمته العربية-الإسلامية، وانشغاله بهموم حاضرها إذ لم يكن

طرفا فكريا مجردًا ولا محايدا بل متفاعلا وفاعلا فيما يجدّ من حوله.وفي المنطقة العربية —الإسلامية،والساحة العالمية من أحداث وتحولات،وهكذا فهي وليدة ضغط أحداث الواقع العربي-الإسلامي المتأزم على ذات شكيب فكرا ووجدانا.

4-1- أخبار العصـر في انقضـاء دولة بني نصر(13)

أثر تاريخي يعرض سقوط غرناطة ويصوّر آخر عهود العرب بالأندلس بعد إضاعتهم للكهم بها الذي تواصل على مدى ثمانمائة سنة ونيف،وقد اكتشفه وحققه المستشرق الألماني ميللر"Muller"ونشره في مونيخ سنة 1863 عن مخطوطة فريدة في العالم عثر عليها بمكتبة الاسكوريال،وهو مجهول المؤلف،يحمل في خاتمته تاريخ الفراغ من كتابته فجر يوم الثلاثاء 24 جمادي الثانية سنة 947 هـ.

ويعود اختيار شكيب أرسلان التعليق على هذا الأثر-الذي ذيّل به رواية " آخر بني سراج" -التي ترجمها عن الفوكنت دوشا توبريان—إلى عميق تعلقه بالحضارة العربية—الإسلامية التي أفل نجمها بالأندلس بعد إشعاع ثمانية قرون،فبقي يحنّ إلى إحياء ما شهدته من عهود زاهرة لا تزال معالمها قائمة، فوجد في هذا الأثر صدى لهذه المشاعر التي تختلج في نفسه،وتضغط على فكره وهو الغيور على تراث العروبة والإسلام الفكري والعقائدي والحضاري.

وكعادته لم يكتف شكيب أرسلان بالمادّة التي اشتمل عليها هذا الأثر فعمد إلى الإضافة إليها باستعراض سيرة الأمراء في أقاليمهم العربية بالأندلس،وبإبراز ما كانت عليه حياتهم من ترف و بذخ وانغماس في الشهوات المختلفة مما شغلهم عن الاهتمام بشؤون رعيتهم،وأحوال أقاليمهم،وما كان يتهدّدها من أخطار خارجية مصدرها النصارى الذين بدأوا حرب استرداد يرومون من ورائها إعادة أرضهم وإخراج الفاتحين العرب والمسلمين منها،ثمّ وصل إلى سنة 740 هجري التي اشتدت فيها وطأة الإسبان على المسلمين برّا وبحرًا وبدأت الممالك العربية—الإسلامية تسقط الواحدة تلو الأخرى إلى أن جاء دور مملكة غرناطة التي صمدت تحاصرهم من سنة 897 هـ إلى سنة 904 هـ حيث استسلم أهاليها فنكّل بهم،وأرغموا على التنصّر ومن أبى مثّل به أو نجا بنفسه إن وجد إلى ذلك سبيلا وبذلك أصبحت الأندلس كلها نصرانية.

وفضلا عن كلّ هذه الإضافات عمد شكيب إلى أن يلحق بهذا الأثر أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر إلى

بعض فرسان الأسبان وزعمائهم محرّرة بين سنوات1470م و1475م،وقد نقلها عن المستشرق الفرنسي هارتونغ ديربنورغ الذي قام بنشرها بباريس سنة 1883

4-2 - حاضر العالم الإسلامي(14)

يمثّل هذا الأثر أكبر دائرة معارف إسلامية—عربية—شرقية جامعة لأحوال الشرق الأدنى والعرب إبّان عزّهم وأسباب تأخّرهم.وهي لذلك تعدّ خير مرجع تاريخي عن أحوال الاستعمار والمستعمرين و المستعمرات ألّفها المؤرخ والعلامة الانغليزي ستودارت لوثروب"Stoddart Lothrop" سنة 1921.ولما لقيته من رواج واسع نقلها إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض الذي اقترح على شكيب أرسلان أن يتناول التعليق على مادّتها لخبرته بشؤون الشرق وأحوال العالم الإسلامي وأوربا حتى تصير جامعة مانعة،فيتيسر لها تحقيق المرجوّ منها من الفوائد للشرق عامّة.و للعالم العربي—الإسلامي على وجه أخصّ.

ولقد لقي هذا الأثر أطيب الصدى في فكر شكيب ووجدانه لاستجابته لهمومه الإصلاحية في الساحة العربية—الإسلامية،ولما تفرّد به صاحبه من موضوعية في التعامل والتاريخ العربي الإسلامي ماضيا وحاضرا ومن فهم عميق للإسلام والشرق،ومن اطلاع واسع على تاريخ الشرق والعالم العربي الإسلامي القديم والمعاصر.وأخيرا لتناسبه وأحوال الشرقيين والعرب والمسلمين في العصر الحديث مما حفز شكيب على أن يتناوله بالتعليق بأن يضيف إليه حواشي وفصولا فاقت حجم الكتاب الأصلي أضعافا استغلها لتذكير العرب والمسلمين خاصّة والشرقيين عامة بمفاخر ماضيهم ومآثره،وتوعيتهم بمعالم انحطاط حاضرهم،وتخلفه عسى أن يتحفزوا ليجدّدوا العهد مع الرقيّ الذي أدركه أسلافهم فسيّدهم أمم الشرق والغرب وأخضعها لنفوذهم،وليس ذلك بمحال عليهم في العصر الحاضر.ثمّ تناول الردّ على التهم والشبهات التي يعمل المبشّرون والمستشرقون المغرضون على إلصاقها بالشرقيين والعرب والمسلمين استنقاصا من قيمة تراثهم الفكري والحضاري،وما كان لهم من أدوار رائدة في تاريخ الإنسانية.

4-3- الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف(15)

أثر يندرج ضمن أدب الرحلة.ولكن غلبت عليه الصبغة التاريخية لما ضمّنه له شكيب أرسلان من معلومات تاريخية وأخبار نقلها من أمهّات المصادر التاريخية القديمة التي تحدّثت عن الحجاز عامّة والطائف بصفة أخصّ.

ولقد جاء ثمرة رحلة قام بها شكيب أرسلان إلى الحجاز في غضون سنة 1929 لتأدية مناسك الحج. فرأى-وهو بالحجاز-أن يسجلّ بعض مشاهداته ويدوّن بعض خواطره حول تاريخ هذه المنطقة ماضيا وما ينبغي لها كي تنهض في حاضرها و تحقق الرقي الحضاري الذي تنشده .

وعند عودته إلى لوزان- مقرّ إقامته بسويسرا-قام بتبييض مشاهداته هذه وخواطره ومعارفه التاريخية عن الحجاز والطائف.كلّ هذا وتكمن قيمة هذا الأثر الوثائقية في أنّه يمثّل معلمة تاريخية هامّة تؤرّخ للحجاز ماضيا وتصفه حاضرا و ترتئي له مستقبلا باسما لتفاؤل رؤى شكيب التاريخية.

4-4- تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا و إيطاليا و جزائر البحر المتوسط(16)

أثر تاريخي قيّم جامع لما أهمله المؤرّخون العرب والمسلمون من غزوات أسلافهم في أوروبا وجزائر البحر المتوسط التي فتحوا بلادها واستقرّوا بها. وحكموا أقوامها،وأقاموا فيها معالم حضارة راقية لا تزال شاهدة على ما بلغوه من رقي حضاري وتمدّن.قبل أن يضطروا إلى الرحيل عنها بعد أن فرّطوا فيما به سادوا.

ألّف شكيب أرسلان هذا الأثر وقد برّح به الحنين-وهو في ديار الغربة- لزيارة البلاد الأوروبية التي كان بها للعرب والمسلمين ماض حضاري.فقام بالرحلة إلى هذه الديار الأوروبية "مؤرّخا مغتربا حرم قرار النفس وهدوء البال وطيب العيش و سعة اليد"(17).

استهلّ الأثر بمقدّمة كشف فيها عن الحوافز التي دفعته إلى التأليف في هذه القضية،أتبعها بكلمة شرح فيها الأسباب التي جعلته يتتبع الآثار العربية أينما كانت.وخاصّة في الأقطار الغربية.ثمّ قسّم الكتاب إلى أربعة أقسام تناول في أولها"الكلام عن طلوزة و قرقشونة".وفي ثانيها"مبدأ غارات العرب على فرنسا".وفي ثالثها"غارات العرب على فرنسا من بعد جلائهم على أربونة إلى عهد استيلائهم على بروفانس سنة 889 م.فغاراتهم من هناك على سافواي وبيمومت وسويسرا إلى دور جلائهم عن فرنسا،ثم أبرز في القسم الرابع : "الصفة العامة لغارات العرب على سويسرا و النتائج التي ترتبت عليها".

وقد اعتمد في تأليفه لهذا الأثر فضلا عن المشاهدة بالعيان على كتاب المؤرخ الألماني كيللر(Keller) : غارات العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر" (18).الـذي نقله إلى العربـية،وضمّنه أثره،فضـلا عن استفادتـه من أمهات

المصادر التاريخية العربية والأجنبية على حد سواء.

5- منهج شكيب أرسـلان التاريخي

لقد سمح اطلاعنا على كتابات شكيب أرسلان التاريخية واستقراؤها بالوقوف عند مبادئ أساسية اعتمدها في إرساء دعائم منهجية تاريخية درج عليها في صياغة مواد كلّ القضايا التاريخية التي تناولها بالبحث والتحليل والاستقراء. مما جعل تعامله وعلم التاريخ لا يتّسم بضبابية الرؤية وتذبذب المواقف بل يخضع إلى نوع من التفاعل بينه وبين المواد التاريخية التي يبحث فيها. وتتجسّد هذه الجدلية في المقومات التالية التي بنى عليها منهجه التاريخي:

5-1- المشاهدة بالعيـان

يعتبر شكيب ارسلان المشاهدة بالعيان أسلم طريق للمؤرّخ الذي يروم الضبط و التحرّي و الدقّة و الوضوح في صياغة الأحداث التاريخية وسوقها، إذ تجنّبه المزالق التي وقع فيها بعض من سبقه من المؤرّخين والناجمة أصلا عن الاعتماد كلية عن النقل و الرواية دون تمحيص.

ولقد عمد شكيب أرسلان إلى توخّي هذا المبدأ في تعامله والتاريخ العربي الإسلامي القديم حيث لا يقتصر على مطالعة ما كتبه العرب والمسلمون عن معالم حضارتهم بالبلاد الأوروبية كما لا يستأنس إلى ما كتبه الأوربيون في هذه المسألة بل يعمد إلى زيارة كل الأقاليم التي تحوي معالم الحضارة العربية بالبلاد الأوروبية، حافزه في ذلك الصدق والأمانة في تسجيل مآثر حضارته ومفاخرها وأمجادها في سجل الحضارة الإنسانية بعيدا عن كلّ عصبية عرقية وبمنأى عن كلّ تخريج. ويؤكد شكيب اعتماده هذا المبدأ في كتاباته التاريخية عن عصور العرب والمسلمين المشرقة بالبلاد الأوروبية في قوله: "..وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها إلا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مرارا وقتلنا أحوالها درسا و اختبارا..."(19)

و لما أدرك شكيب ارسلان قصور المشاهدة بالعيان على صياغة الأحـــداث التاريخية بكل دقة ووضوح أردف إليها مبدءا ثانيا جعله هو الآخر مقوّما أساسيا في منهجه التاريخي و يتمثل في:

5-2- النقـل و الروايــة

اعتمد شكيب أرسلان على النقل والرواية عن غيره من المؤرّخين القدامى منهم والمحدثين، العرب المسلمون والأجانب الأوروبيون على حد سواء ولكن

بتحرز وحذر.ولقد وظّف شكيب مبدأ النقل والرواية هذا لتدعيم مشاهداته أثناء رحلاته الاستطلاعية لمعالم التاريخ والحضارة العربية الإسلامية أينما كانت مشرقا ومغربا وإثرائها.فيعمد في تناوله مثلا قضية التراث الحضاري للعرب والمسلمين بأوروبا إلى العودة إلى مضان أمهات كتب التاريخ العربي الإسلامي التي تناولت بالوصف والتحليل والاستقراء هذه المسألة.فينكب على مطالعتها مستقرئا خفاياها،ومستكشفا أبعادها.فينقل منها ما يقتنع بصحته. ويعتقد إفادته لمعاصريه في الحال والاستقبال.ثمّ ولشغفه الشديد بالمطالعة وولعه بالبحث والاستقراء في التاريخ العربي الإسلامي في عصور ازدهاره وانحداره لا يكتفي غالبا بما توفره نفائس كتب التاريخ العربية كـ"نفح الطيب"للمقري، وآثار ابن عذارى المراكشي،ومصنفات الذهبي من علم بل يتجاوزها إلى غيرها من المصادر الغربية التي تناولت بالبحث المسألة المطروحة كلية أو جوانب منها. فيتقصاها ويستقرئها،ويستفيد مما اشتملت عليه متونها من علوم ومعارف تاريخية كانت خافية عنه.فيفيد معاصريه بنقل ما يراه مفيدا وهامّا وصادقا منها.من ذلك اعتماده كلية في تناوله الكتابة عن غارات العرب وفتوحاتهم بأوروبا على اثر المستشرق الفرنسي المسيو رينو(1795-1867)" غارات العرب على فرنسا وسويرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحي بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين،"كما اعتمد على دراسة المؤرخ الألماني"كيللر"(Keller)لغارات العرب بأوروبا التي عاد فيها بدروه إلى أمهات النصوص التاريخية العربية كـ"نفح الطيب" للمقري وتاريخ الطبري و غيرهما.

وما يسرّ تعامل شكيب أرسلان وهذه المصادر التاريخية الغربية واستفادته منها ونقله عنها وروايته عن أصحابها حذقه لأهّم اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والإنغليزية والإيطالية بحكم إقامته الطويلة بأوروبا،وزياراته المتعدّدة لأهمّ بلدانها ومدنها واحتكاكه بالعديد من أعلام فكرها وأدبها وزعماء سياستها.

ولكن ولئن كان الكثير من المؤرّخين إلى عصر متأخّر ينقلون عن غيرهم ويروون بفكر تسليمي دون نقد لعميق ثقتهم فيهم وشدّة تصديقهم لهم،مما أوقعهم في الكثير من المزالق،والتخريجات فجاءت تواريخهم بعيدة عن وجه الحقيقة،فإنّ شكيب أرسلان سعى إلى إخضاع ما يطالعه وينقله عن كتابات غيره من المؤرّخين إلى قراءة استقرائية نقدية تقوم على مبدأ.

5-3 - التمحيص

يعتبر شكيب أرسلان التمحيص خصلة يجب أن تتوفر في المؤرّخ الذي يحترم نفسه ويريد أن يخدم التاريخ بصدق ويكون في عداد المؤرّخين الخالدين إذ يحسن"أن يدقّق في كل رأي يطلع عليه.وأن لا يقبله بالغا ما بلغ من الشهرة إلاّ بعد تمحيص تطمئن به نفسه.وتحقيق يصل به إلى برد اليقين.." (20).وبذلك يعتبر شكيب التمحيص وسيلة المؤرّخ المثلى لتمييز الصحيح من الخاطئ وإدراك وجهة الحقيقة وإنصاف التاريخ بما قد يداخله من بدع وتخريجات مضرة بالعلم ومغررة بالمتعلمين أو يحوم حوله من لبس وشبهات وبذلك فإنّ ما وقع فيه غيره من المؤرّخين من أخطاء يعود في نظره إلى ثقتهم اللامتناهية فيمن سبقهم من المؤرخين وعدم إعمالهم الفكر النقدي في مضانّ تواريخ هؤلاء قبل النقل عنها والرواية عن أصحابها.وتبعا لذلك يلح شكيب أرسلان على وجوب مقارنة الآثار التاريخية فيما بينها،ومقابلة بعضها ببعض تمييزا للصواب من الخطأ.كل هذا دون أن يدّعي لنفسه العصمة من الخطأ ولا الكمال لما يورده ويثبته من تواريخ حيث يقول"..وما أبرئ نفسي من الخطأ إذ كانت العصمة لله وحده.."(21).ولكي تحقق عملية التمحيص المرجو منها من النتائج الإيجابية عمد شكيب ارسلان إلى الاعتماد على مقوم أساسي آخر يكمّل الدعائم التي أقام عليها منهجه التاريخي هذا و يتمثل في:

5-4- مراعاة مقتضى الحال

تفطن شكيب أرسلان من خلال انكبابه على مطالعة كتابات معاصريه التاريخية.وإمعان النظر فيها،واستقراء متونها التي تتناول تاريخ الأولين أنّ هؤلاء يدرسون أحداث هذه التاريخ المتجذّر في القدم بعقلية معاصرة لا تتماشى بالمرة والمعطيات التاريخية التي حفت بأحداث العصر الماضي وأفرزتها، فيسقطون عليها من آرائهم المعاصرة،ومواقفهم ما يحيد بها عن طريق الحق ويضعف درجة موضوعيتها ومصداقيتها.ولذلك يعتبر شكيب أن ليس من المنطق أن يحكم المؤرّخ على أحداث الماضي اعتمادا على معطيات مستمّدة من العصر الحاضر بسبب اختصاص كلّ عصر بسمات مفيدة تميّزه عن غيره. وعليه فمن أوكد واجبات المؤرّخ المعاصر– في نظره –أن يراعي مقتضى الحال التي يؤرّخ لها ويلحّ على وجوب توظيف هذا المبدأ في صياغة التاريخ القديم من طرف المؤرّخين المعاصرين في معرض نقده لتعاملهم مع هذا التاريخ بعقليتهم المعاصرة بقوله:"...يريدون أن يمحصوا تاريخ الأولين بالعقلية التي يمحصون

بها تواريخ المعاصرين ويريدون أن يطبقوا ذا على ذا وأن يحكموا على الغابر بمقياس صنعوه من الحاضر وهذا خطأ أيضا لأن كل زمان له خواص..."(22)

ولمّا أتينا على المقومات التي أقام عليها شكيب أرسلان دعائم منهجه الذي توخّاه في كتاباته التاريخية مقالات كانت أم تعليقات على كتب أو مؤلفات مستقلة فإنّ روح البحث العلمي تقتضي منّا إبراز بعض النقائص التي بدت لنا من خلال استقرائنا لمضامين تلك الكتابات التي على قيمتها التاريخية وأهميتها الحضارية تشتمل على بعض المآخذ التي يمكن إعابة شكيب أرسلان عليها من ذلك أنه استجابة لنزعته الموسوعية كان يرغب دوما في الإلمام بمختلف جوانب القضية التاريخية التي يبحث فيها فيطلق العنان لقلمه ويطنب في سرد الحوادث تباعا دون تحليل ولا تفصيل ولا تعمّق ودون أن يترك واردة أو شاردة،ودون أن يحسن تخطيطا مدقّقا يرتّب عناصر المادة المقدّمة. ويبّوب فروعها حتى تكون واضحة المعالم بيّنة الدلالات.ممّا يتسبّب في تشتيت ذهن القارئ وإضعاف تركيزه،فلا تحصل عملية التواصل المنشودة ولا تتحقق الفائدة المرجّوة كما كان الشأن مثلا في تعليقاته على تاريخ العلامة ابن خلدون والتي عمد فيها إلى سرد الحوادث تباعا دون تعليق إلاّ في ما ندر من المواضيع ودون رسم لمعالم الموضوع وحدوده،وكذلك في الحواشي التي وضعها لأثر:"حاضر العالم الإسلامي"والتي يعلل صياغته لها بقوله:أمّا الحواشي فقد اضطررنا لها لأن الكتاب موضوعه العالم الإسلامي وقد أشار إلى الفصول وشوّق إلى الفروع فلزم أن نشرح كل مسألة،وأن نذكر أخبار كل بلد من بلدان المسلمين في الحال الحاضرة ليعلم المسلمون بعضهم بعضا ويطلعون على ما يدرس لهم ويطبع".(23)

وقد توسع أكثر من اللزوم في أثره"الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى اقدس مطاف". حيث أكثر من إيراد تراجم القدماء حتّى تحول الأثر وكأنّه معجم أعلام.فضلا عن إسهابه في الحديث عن الماء والآبار والعيون والينابيع الموجودة في الحجاز حتّى شغل هذا الخديث ما يقارب نصف الأثر ممّا أفقد هذا الأخير صبغة التشويق ليثير في قارئه نوعا من الملل و الضجر.

وفضلا عن هذه المآخذ التي طبعت جلّ آثار شكيب أرسلان التاريخية -إن لم نقل كلها-فإنّه لم يطبّق في عدد منها بعض المبادئ التي أقام عليها منهجه التاريخي وعاب غيره من المؤرخين على عدم توظيفهم لها في كتاباتهم،من ذلك عدم تمحيصه بعض الأخبار التي نقلها عن غيره من المؤرّخين بإيرادها

على علاّتها رغم مخالفتها وجه الحقيقة كنقله في كتابه: "تاريخ غزوات العرب" عن المستشرق رينو هذه العبارة عن طارق ابن زياد: "وقد روى أحد مؤرخي العرب أنّه لأجل أن يلقي الرعب في القلوب أمر بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده و جعل من لحومهم شواء طعم منه عسكره"(24)، وكان يجدر بشكيب التثبت في إيراد مثل هذا الخبر البشع المخالف لروح الإسلام وتعاليمه ولكنّه تركه دون نقد.

وينقل في موطن آخر من هذا الأثر عن "رينو" هذه العبارة في حقّ المسلمين الفاتحين للأندلس دون أن يعمل فيها الفكر بل أوردها وكأنّها حقيقة بديهية: "فأمّا البلاد التي لم تخضع له إلاّ بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم تصحب الفتوحات وكان يقرب عليها ضعف جوية البلاد الخاضعة بلا قتال، وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها، وربما جعلوا في هذه الناحية بعض اليهود الذين كانت عداواتهم للمسيحيين أضمن بسبب الثقة بهم"(25)، ومثل هذا الشاهد الذي أورده شكيب نقلا عن رينو يفتقد التثبت والتمحيص فلا يسهل تقديمه بسرعة لمخالفته المشهور عن سماحة العرب المسلمين و عدالتهم.

وهكذا فقد ركز شكيب أرسلان كتاباته التاريخية على إحياء المعالم المشرقة من التاريخ العربي الإسلامي، واستقصاء العلل الكامنة وراء أفول نجم الحضارة العربية الإسلامية وزوال مجد العرب والمسلمين في الماضي، وتخلفهم عن ركب الحضارة في الزمن الحاضر قصد توعيتهم بمظاهر واقعهم المتردّي واستنهاض هممهم التي أحبطها اليأس قصد التحرر من الاستعمار الأوروبي المهيمن على أقطارها، والعمل على إرساء دعائم نهضة حضارية عصرية تكون امتدادا لما بلغه أسلافهم من رقيّ و تمدّن.

وبناء على كلّ ما سبق فإنّ التاريخ العربيّ الإسلامي في الوعي الأرسلاني ليس مادة محنّطة بقدر ما هو دافع للعرب والمسلمين للاعتبار بأخطاء أسلافهم قصد تجنّبها، فالعمل على تجاوز حدود حاضرهم، وتحدي مظاهر واقعهم المتأزم لتحقيق نهضة عصرية في كنف الوحدة والاستقلال.

وصفوة القول أنّ وظيفة التاريخ العربي الإسلامي من خلال تعامل شكيب أرسلان معه توعية ذات أبعاد إصلاحية، تنشد تحرّر البلاد العربية الإسلامية من الاستعمار، وعتقها من هوى التخلف والانحطاط، وبذلك تبرز جدلية العلاقة العضوية بين الفكر و السياسة في أجلى مظاهرها.

الهوامـــــش

1) أرسلان، شكيب: بيوتات العرب في لبنان، المقدمة
2) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحرَ المتوسط،...ص4
3) أرسلان، شكيب: تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول، ص هـ
4) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا و جزائر البحر المتوسط، ص 17-18
5) نفس المصدر: ص17
6) أرسلان، شكيب: تاريخ ابن خلدون، ملحق الجزء الأول. ص هـ
7) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا و إيطاليا و جزائر البحر المتوسط،..ص 18
8) نفس المصدر: ص 21
9) نفس المصدر: ص 18
10) نفس المصدر: ص5
11) نفس المصدر: ص 21
12) نفس المصدر: ص 21
13) ضمّن الأمير شكيب أرسلان هذا الكتاب المجهول المؤلّف، لأثر: "آخر بني سراج"، رواية الأديب الفرنسي شاتوبريان، وقد توّلى تحقيقه والتعليق عليه.
14) ستودارد لوثروب: حاضر العالم الإسلامي، (أربعة أجزاء) ترجمة عجاج نويهض، تعليقات الأمير شكيب أرسلان، أضخم موسوعة عن أحوال العرب والمسلمين، القاهرة-المطبعة السلفية-1925 الطبعة الأولى-بيروت-دار الفكر- الطبعة الثانية 1974.
15) أرسلان، شكيب: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاجَ إلى أقدس مطاف، القاهرة، مطبعة المنار، 1931.
16) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر 1933.
17) الدهّان، سامي: شكيب أرسلان حياته و آثاره، ص...269

18) Keller (Ferdinand):Der Emflall der Sarazenenen in die shweiz um die Mitte des x Jahenders" Mitthei hmagere des antiquari-sche. Gestteschft in Zurich.1859

19) أرسلان. شكيب. تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط...ص9

20) أرسلان. شكيب: مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد11، سنة 1931، ص 449.

21) أرسلان. شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: المقدمة

22) الشرباصي. أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 265، نقلا عن مقال لشكيب أرسلان. نشره بال"شورى" بتاريخ 7 ماي 1930

23) نفس المرجع. من رسالة بعث بها شكيب أرسلان للسيد رشيد رضا من لوزان بتاريخ 19 أيلول 1923

24) أرسلان. شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط..ص30

25) نفس المصدر: ص 36

الفصل السادس

الفكر الديني لدى شكيب أرسلان

إن شغلت قضايا العالم الإسلامي التي يتصدّرها الاستعمار والتخلّف فكر شكيب أرسلان الديني فلوعيه العميق بخطورتها على مصير الأمة الإسلامية في الراهن والمستقبل،هذا الوعي الذي أفرزته عديد العوامل المتفاعلة التي لعبت دورا أساسيا وحاسما في صياغة مقوّمات فكر أرسلان الإسلامي ورسم الأبعاد التي يروم تحقيقها من خلاله.ويمكننا التركيز على عاملين اثنين رئيسين يشكلان منبع هموم أرسلان الإصلاحية في الحقل الإسلامي:

1- أثر المدرسة الأفغانية

كان لتعاليم الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي التقى به شكيب ارسلان بالأستانة وأخذ عنه،وتلميذه الشيخ الإمام محمد عبده،الذي استفاد من علمه في المدرسة السلطانية في بيروت عندما كان هذا الأخير منفيا بلبنان من طرف السلطات الأنغليزية،أثره العميق في توجيه فكر شكيب أرسلان الديني وطبعه بالطابع الإسلامي.وهو ما يؤكّد مدى تأثّره بالشيخ الإمام قائلا:"...أخذت عنه واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي ووجدت فيه الضالّة التي كنت أنشدها..ورأيت في فهمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالا سلام بعد أن آل إلى هذا الحال"(1).

فقد وعى شكيب أرسلان قضايا واقع الأمّة الإسلامية،وما تقتضيه أوضاعها المتدهورة من إصلاح ديني شامل يزاوج بين الإسلام ومقتضيات الحضارة الأوروبية العصرية في ظلّ احتداد السيطرة الأوروبية على البلاد الإسلامية وهيمنتها عليها.

ولئن كان هذا التأثّر بتعاليم المدرسة الأفغانية يشكّل الحوافز النظرية التي حمسّت شكيب أرسلان للاهتمام بالقضايا الإسلامية المعاصرة و محاولة صياغة مشاريع إصلاحية لحلّها ، فهل أنّ شكيب أرسلان سيقف عند هذه الحدود النظرية أم سيتجاوزها إلى مستوى الممارسة؟

2- أزمة العالم الإسلامي

لم يكن شكيب أرسلان بمنأى عمّا يجدّ في واقعه من أحداث،وما يطرأ عليه من تغيّرات.بل وعى وهو حدث خفايا واقع العالم الإسلامي،وما تتسّم به أحواله من تأزّم من خلال البيئة التي نشأ بها.والتكوين الذي تلقاه، والحياة العملية التي باشرها منذ حداثته بتحمّله عديد المسؤوليات سواء في إطار وطنه لبنان أو في إطار الخلافة العثمانية التي كان يستوجب منه تأزّم أوضاعها السعي لخدمتها بكلّ طاقاته.إذ من خلالها ينعكس تأزّم المسلمين كلية.وبذلك فإنّ.وعي شكيب أرسلان الديني أنضجته أزمة واقع العالم الإسلامي.فكان سعيه نحو إيجاد الحلّ،أو محاولة الحلّ،وكان استقراؤه للبديل الكفيل بجعل المسلمين يتجاوزون أزمتهم الحضارية:أزمة الاستعمار والتخلف.وفي حدود المعطيات الموضوعية التي وفرّها له واقعه لم يجد غير الإسلام بديلا حاسما لضمان استمرار سلطة الخلافة العثمانية التي ينضوي تحت لوائها المسلمون على اختلاف أجناسهم،وتحقيق الجامعة الإسلامية الوسيلة المثلى لتوحيد صفوف المسلمين وتكتيل قوّاهم بدل بقائها مشتّتة، تستنزفها الصراعات السجال بينهم.ولتجسيد النهضة الإسلامية التي يعتقد استحالتها في ظل الاستعمار وتفرّق الكلمة وتشتّت الصفوف.وهي النهضة التي عليها أن تستند إلى الإسلام من جهة،ولمستجدّاب لوقائع العصر وتحدّياته من أخرى.

3- شكيب أرسلان و الخلافة العثمانية

لقد كان للخلافة شأن عظيم في أوائل عهدها لجمعها شتّات المسلمين في وحدة متكاملة مكّنتهم من تحقيق كلّ الفتوحات التي سمحت لهم بسيادة كلّ الدول.ثمّ لمّا بعد عهدهم بعهد النبوّة وخلافة الراشدين أخذت عقيدتهم الدينية تضعف تدريجيا وتجدّدت بينهم عصبيات الجاهلية،والنعرات القبلية، فتفرقوا وأوهنت الحروب قواهم فانتابتهم عدّة خطوب ذهبت بريحهم خاصّة بعد دخول المغول بغداد وتمثيلهم بهم،ثمّ إثر ضياع ربوع الأندلس من أيديهم بعد أن استرجعها الأسبان.

وبقيت أوضاع المسلمين على ما هي عليه من تخلّف وذلّ واستكانة إلى أن جاء السلاطين الأتراك فعملوا على إحياء خطّة الخلافة بأن اتّخذوا لأنفسهم لقب خليفة،ولمّا كان العالم الإسلامي في أمسّ الحاجة إلى شيء يجمع شتاته ويضع حدّا لتناحره وصراعاته التي أضعفته.ويسرّت التغلغل الأجنبي في

أقطاره سارع عالم السنّة الإسلامي إلى الاعتراف بهذه الخلافة بيد أنّ سلاطين الترك لم يكونوا ليحرزوا نفس المكانة التي كان يتمتّع بها الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني أمية ذلك أنّ العرب كانوا يعتبرون الأتراك مغتصبين للخلافة من أصحابها الشرعيين. كلّ هذا جعل السلطان عبد الحميد يجهد لإحياء عظمة الخلافة وتجديد مجدها. والسعي إلى جعل كلّ المسلمين يلتقون حولها حتّى تستردّ أدوارها الرائدة في التاريخ الإسلامي "فأخذ يستصرخ الأمم الإسلامية في كلّ رقعة من رقاع العالم الإسلامي لتمدّ العون إليه، وتشدّ أزره بالالتفاف من حوله قاصدا بذلك قذف الرعب في روع الدول الغربية التي خالها ربما كانت تأتمر فيها بينها وتتشاور وتتّخذ الوسائل و تقوم بالتدبيرات للانقضاض على المملكة العثمانية"(2). فصارت القسطنطينية مكة ثانية يلوذ بها جميع ذادة الإسلام ودعاته" ومن القسطنطنية صارت توفد الوفود وتنفد الرسائل جماعات دراكا إلى جميع الأقطار الإسلامية حاملة رسالة الخليفة ألا وهي رسالة الأمل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين"(3).

وقد شكلت هذه الخلافة إحدى قناعات شكيب أرسلان السياسية وطبعت سياسته بطابع إسلامي صرف. ذلك أنّ الإسلام مثّل محور سياسته في هذه المرحلة من نضاله.

3-1- سياسة شكيب أرسلان العثمانية

مثلت سياسة شكيب أرسلان الموالية للخلافة العثمانية و المناصرة لسلطتها على بقية الأقطار الإسلامية موضوعا حسّاسا أثار الكثير من الجدال بين الساسة والمفكرين العرب والمسلمين، واختلفت في شأنه الآراء وتضاربت المواقف فمنهم من أيّد شكيب أرسلان في دعوته إلى موالاة الخلافة العثمانية ومناصرتها حولها. ورأى في مثل هذه السياسة خير درع تتدرّع به الأمم الإسلامية أمام مطامع الدول الاستعمارية التي تتربّص بها الدوائر، ومنهم من رأى فيها إعلاء من شأن الترك وحطّا وتحقيرا من شأن العرب، فقاومها وناصبها العداء، وسعى إلى تشويه نضال شكيب أرسلان في سبيلها و منهم من فضّل البقاء على الحياد لتداخل السبل عليه.

وهنا لابدّ من إبداء مجموعة من الملاحظات يمكنها أن تشكّل الأرضية الملائمة لدراسة هذه المسألة المتعلقة بسياسة شكيب أرسلان المناصرة للخلافة العثمانية:

- إنّ أغلبية الدراسات التي تعرّضت إلى سياسة شكيب أرسلان العثمانية يطبعها التسّرع. ويسمها الانفعال الخاضع لأهواء العاطفة لا لسلطان العقل، ذلك أنّ أغلبية الأحكام المؤيدة أو المعارضة لسياسته العثمانية أخذت منفصلة عن جذورها. معزولة عن سياقاتها التاريخية التي تفاعلت معها فأفرزتها.

ولقد كان لمثل هذه القراءات في سياسة شكيب أرسلان العثمانية أن أحدثت بلبلة فكرية حول مصداقية نضاله السياسي الذي أسيء به الظنّ خاصّة من طرف قومه العرب. وحامت حوله الشبهات حتّى من طرف المسلمين أنفسهم. لهذا لابدّ من تأطير سياسة شكيب العثمانية تاريخيا للحكم لها أو عليها بأكثر مصداقية.

- إن اتهام شكيب أرسلان في سياسته الموالية لآل عثمان و الداعية المسلمين إلى مناصرتهم والانضواء تحت لواء سلطنتهم، والدعوة لهم، بأنّه يفضّل الأتراك على العرب لا أساس له من الصحّة. ذلك ألاّ تفاضل بين الأجناس في فكر شكيب، وفي مراسه السياسي، ولئن دعا إلى الخلافة العثمانية فلما تمثله في اعتقاده من خير يعود على كلّ الأجناس، التي يوّحد بينها الدين الاسلامي، إذ أنّه من دعاة التعايش السلمي بين كلّ الأجناس ومن مبغضي العصبية أيّا كان نوعها، وبذلك فلا أساس للتناقض بين سياسة شكيب العثمانية وعروبته بل إنّ العلاقة التي تجمعهما في فكره السياسي نظرية ومراسا علاقة جدلية، إذ كلّ منهما متفاعل مع الآخر، يتأثّر به ويؤثر فيه سلبا أم إيجابا. فما يصيب العرب من ضرّ أو يسر يتأثر له وبه المسلمون والعكس صحيح. وبذلك "لم تغب في المرحلة الإسلامية هذه عروبته، ولا قضايا أبناء وطنه العرب، لكن العروبة لم تكن تعني وضعية سياسية مستقلة وإنّما كانت رافدا من روافد النهوض الإسلامي"(4)

و هكذا فإنّ شكيب أرسلان "ما كان يدافع عن الدولة العثمانية إلاّ دفاعا عن العروبة والإسلام وخوفا عليهما من مثل الانتداب والحماية والاستعمار"(5)

ولم ينفرد شكيب أرسلان بالدعوة إلى الخلافة العثمانية و خدمتها والسعي إلى الحفاظ عليها بالانكباب على استقراء وسائل الإصلاح التي تضمن استمرارها وتبقي علي وظائفها تجاه الإسلام والمسلمين في جميع الأقطار، هؤلاء المسلمين الذين أناطوا بها كلّ آمالهم وطموحاتهم وجعلوا منها قارب نجاتهم من كلّ الأخطار التي تحوق بهم حاضرا ومستقبلا وأبرزها الأطماع الاستعمارية

بل يمكننا أن نؤطر السياسة العثمانية هذه فكريا وسياسيا ضمن تيار فكري إصلاحي متكامل العناصر واضح المعالم أفرزته-في النصف الثاني من القرن التاسع عشر-الأوضاع المتردية التي أضحى عليها العالم الإسلامي على جميع الأصعدة. والذي انتسب إليه" الكثير من المتنورين والمثقفين والقادة بين رعايا السلطنة أتراكا وعربا وأكرادا وألبانا وغيرهم من المسلمين أمثال الأفغاني، محمد عبده، علي يوسف، وصادق باشا الأعظم ومحمد أرسلان أمكن لهم أن يرقبوا شمس الخلافة الإسلامية الغاربة فقرعوا النواقيس يستنهضون الحاضر ويشيرون إلى مخاطر الغد"(6)وعليه فإنّ سياسة شكيب أرسلان العثمانية لا يمكن فهم جوهرها إلاّ بوضعها في مثل هذا الإطار التاريخي الذي وجدت فيه، وسنعمد إلى اتّخاذ هذا الإطار أرضية ننطلق منها لاستكشاف مجموعة الحوافز التي دفعت شكيب أرسلان إلى اتخاذ الخلافة العثمانية قناعة فكرية وسياسية وظفّ لخدمتها كلّ طاقاته نظريةً و ممارسة.

3-2- حوافز عثمانية شكيب أرسلان

لا يمكننا بأيّة حال اعتبار تبنّي شكيب أرسلان الدفاع عن الخلافة العثمانية وتوظيف كلّ طاقاته وإمكاناته لخدمة مصالحها، أمرا عفويا أو وليد انفعال عاطفي يفتقد إلى الاقتناع الذاتي، وتحكيم سلطان العقل. ذلك أنّ شكيب أرسلان ليس من هؤلاء الذين يسرعون في تحديد اختياراتهم اعتباطا، ومواقفهم انسياقا وراء هوىً في النفس، وإنّما عرف مفكّرا وسياسيا بالتريث والاتزان في تحديد مواقفه مما يعرض له من قضايا، ويجدّ من أحداث حتّى يتجنّب التناقض بل نجده يقلّب المسألة من كلّ جوانبها ليصدر حكمه عليها، ويتخّذ موقفه النهائي منها لتصبح قناعة يقرّ بمشروعيتها وعقيدة يؤمن بها، فشكيب أرسلان لا يناضل في سبيل قضية إلاّ إذا ما كان مقتنعا بعدالتها ثمّ بخدمتها للأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

كلّ هذا يجعلنا نتساءل عن الحوافز الكامنة وراء قناعة شكيب بالخلافة العثمانية، وأخذ نفسه بخدمتها، والدعوة إليها والعمل على الحفاظ على سلامة حياض أقطارها الإسلامية المنتمية إليها والموالية لها وصيانة كيانها من كلّ الأخطار التي تحوق بها نتيجة أطماع الدول الاستعمارية في اقتسامها والسيطرة على أجزائها. هذا ويمكننا أن نحدّد هذه العوامل فيما يلي:

1- الانتماء إلى أحد البيوتات السياسية الفاعلة في التاريخ الإسلامي ماضيا، والمؤمنة بوجوب المواصلة لأدوارها الرائدة في الحاضر والمستقبل اعتبارا

لحالة التخلّف والانهيار التي كان يعيشها المسلمون المنضوون تحت لواء السلطنة العثمانية. ذلك أنّ السلالة الارسلانية عرفت بخدماتها الجليلة للإسلام والمسلمين منذ عهد علي ابن أبي طالب، وسعيها الدؤوب إلى الرفعة من شأنها أمام الأمم الأخرى، ولن يتيّسر هذا- في منظورها- إلا بتوحّد المسلمين في ظلّ سياسة دينية ممثلة في الخلافة، وبذلك فقد كانت سلالة شكيب الأرسلانية في مقدّمة البيوتات العربية التي تتجّه للخلافة العثمانية وإن تصبح مركز الإتصّال بينها وبين العرب المسلمين خاصّة وأنّ لبنان كانت أغلبيته نصرانية ويشهد حركات تبشيرية جدّ نشيطة بينما الإسلام أقلّية"(7)

وقد وجدت هذه المبادئ و القيم التي تسمْ مذهب السلالة الأرسلانية في فكر شكيب وسياسته الأرض الخصبة لنموّ هذه السياسة الإسلامية في وعيه وتوجهّها لشدّ أزر الخلافة العثمانية والعمل على بقاء كيانها حفظا لبيضة الإسلام، وحصانة لحرّية المسلمين.

2-تأثّره بالدروس التي كان يسمعها عن الشيخ محمد عبده، وهي في حقيقتها-صدى لأفكار أستاذه جمال الدين الأفغاني، والداعية إلى وجوب اتحاد المسلمين في عروة وثقى تلم شعثهم، وتجمع ما تفرّق من شملهم فتجعلهم قوّة قادرة على صدّ المخاطر الخارجية التي تهدّد حرّيتهم واستقلالهم والأطماع الأجنبية التي تستهدف أقطارهم، ولن يتيسّر للمسلمين كلّ هذا إلاّ إذا عادوا إلى تحكيم الشريعة كتابا و سنّة في تسيير أحوالهم في العصر الحاضر. خاصّة وأنّ المحن التي أصابت الإسلام والمسلمين حاضرا إن هي إلاّ من صنيع الغرب الذي يعمل على إحياء النعرات والعصبيات وتأجيج الصراعات وبثّ الشقاق بين المسلمين حتّى يتيّسر تسرّبه إلى أقطارهم. حيث يتخّذ من أجواء الفوضى تعلّة لتدخله فيها واستعمارها.

وهكذا فقد كان لفكر الأستاذ الإمام محمد عبده تأثيره العميق في تحديد مبادئ سياسة شكيب أرسلان الإسلامية التي تجلّت في تبنيه الدعوة إلى الخلافة العثمانية فالجامعة الإسلامية درءا لكلّ خطر استعماري وإحباطا لكلّ طمع أجنبي.

3- انهيار أوضاع الخلافة العثمانية على جميع الأصعدة ممّا جعلها تتراجع سياسيا أمام الغزو الأوروبي الزاحف على ممالكها الإسلامية التي تتسّم أوضاعها هي الأخرى بالتأزّم الكلّي، وبذلك فإنّ انحسار الخلافة العثمانية

الإسلامية من جهة وتعاظم المدّ الأوروبي الاستعماري على المزيد من الأقطار العربية الإسلامية شكل حافزا فعّالا في صياغة سياسة شكيب أرسلان المناصرة كلية للخلافة والملتزمة بالدعوة لها والدفاع عنها ضدّ كلّ ما يهدّد أمنها.

4- اعتقاد شكيب أرسلان الراسخ أنّ الخلافة الإسلامية التي آلت مقاليدها إلى بني عثمان قادرة وحدها دون سواها على حلّ قضايا أمته العربية. بإبعاد شبح السيطرة الأجنبية عن ربوعها، وشدّ أزرها في الملّمات التي تحلّ بها أيا كان نوعها .

5- اعتبار شكيب أرسلان أنّ الخلافة تشكّل أحد أركان الوحدة الإسلامية التي طالما دعا إليها والقائمة على ركنين هما أساسها ولا ثالث لهما. الحجّ إلى بيت الله الحرام في مكّة والخلافة"(8)ولذا يعتقد انّه خارج هذه الوحدة الإسلامية التي تجسّدها الخلافة يبقى المسلمون شتاتا وهدف كلّ طامع.

6-يقين شكيب أرسلان الراسخ في الدور الأساسي الذي تضطلع به الخلافة في رقي المسلمين، فكما تحقق في ظلها ازدهار الحضارة الإسلامية، ورقي المسلمين وتحضّرهم ماضيا لتمسّكهم بالخليفة وولائهم لسلطته بطاعته وتزكية سياسته، فهي قادرة في عصرنا الحاضر على القيام بنفس الدور الحضاري إذا ما أعاد إليها المسلمون ما كان لها من اعتبار، وضحوا في سبيل نصرتها بالمال والنفس استبقاء لكيانها وصيانة لأدوارها التاريخية. الراشدة في تقوية شوكة المسلمين والسعي إلى الارتقاء بهم إلى مصاف الحضارة، حتّى يتجدّد إشعاع حضارتهم على جميع الأمم مثلما كان شأن أسلافهم.

ويبرز شكيب أرسلان أن أفول نجم المسلمين وغروب شمس حضارتهم إنّما بدأ عند سقوط الخلافة العباسية ببغداد، والفاطمية بالقاهرة والأموية بالأندلس لما اعتراها من وهن وليد الصراعات والانشقاقات والتكالب على الرئاسة والملك، ولذلك فبزوال رسم الخلافة ذهبت ريح المسلمين، وأفلت حضارتهم، فاستسلموا لسبات عميق أورثهم ما يشكونه في حاضرهم هذا من مظاهر انحطاط و تخلّف و استعمار.

وهكذا فالخلافة بالنسبة لشكيب أرسلان. إنّما عليها يتوقّف عزّ الإسلام و مناعة المسلمين ذلك أنّها" المظهر السياسيّ الأسمى الذي يمكن أن تتجسّد فيه الجامعة الإسلامية و تحقق تطلّعات المسلمين ."(9)

3-3- أبعاد نصرة شكيب أرسلان للخلافة العثمانية

لقد أثارت سياسة شكيب أرسلان الموالية للخلافة العثمانية والمناصرة للترك، سخط بني قومه العرب الذين رأوا فيها خذلانا لقضاياهم المصيرية وتفضيلا للترك عليهم مما دفع بالكثير منهم إلى الشك في عروبته و مصداقية نضاله السياسي في سبيل قضايا تحرر أمته العربية و استقلالها.

ولئن نحت الأغلبية من العرب هذا المنحى في الحكم على"شكيب أرسلان العثماني"فلعدائها العميق للأتراك الذين تفننوا في التنكيل بالعرب عبر التعذيب والسجن والنفي والتقتيل.هذا إضافة إلى هضم حقوقهم المدنية خلافا لبقية الأجناس، غير أنّ الأمير شكيب أرسلان كان ينظر لهذه المسالة من زاوية خفيت على العرب، الأمر الذي جعل موقفه من الخلافة والأتراك يناقض موقفهم ظاهرا، ويتفق معه باطنا إذا اعتبرنا أنّ سياسته العثمانية هي وليدة عديد القناعات التي حملته على تكريس نضاله السياسي في سبيل الدفاع عنها.

إنّ شكيب أرسلان لم يكن غافلا عن مساوئ الحكم العثماني في العديد من الأقطار العربية الخاضعة لنفوذ سلطته بل كان يدركها و لكنّه" كان يعي حدود حاضره وإمكاناته، فقد رأى أنّ تلك المفاسد على سوئها تبقى أقلّ شرّا من احتلال أوروبي.لقد اعتقد أنّ الإصلاحات كفيلة بربط ما انقطع من وشائج الإسلام وإصلاح ما فسد، أما الاحتلال الأوروبي فيبقى أمرا آخر.كان يدرك بالتحديد خطر الغزوة الاستعمارية الأوروبية و أولوية التصدّي لها "(10).

ولقد كان واعيا كلّ الوعيب بـ"أنّ تركيا لم تحسن إدارة بلاد العرب و لم تحسن إعمارها لكنّه كان موقنا كذلك أنّ الصراع مع تركيا سيقود لا محالة إلى انقسام وتشتّت إسلاميين يذهب بما بقي لهم من قوّة "(11)ولكنّه- رغم الوعي العميق بهذا الحيف والغبن اللذين كانا يقترفان في حقّ أبناء قومه العرب- سعى جاهدا إلى التخفيف من وطأتهما بالتدخل لدى رجال الحكومة العثمانية والحيلولة دون تعميق الهوّة التي كانت تتسّع تدريجيا بين العرب والترك.

كل ذلك حتّى لا يترك منفذا لتسرّب التدخل الأجنبي مما جعله يكون دائب الدعوة للإخاء العربي العثماني إذ كان واحدا من قادة العرب الذين بنوا آمالا كبارا على حكم عثماني جديد يشجّع التآخي العربي العثماني في سبيل الإبقاء على ما تبقّى من الخلافة الإسلامية و ينقّي السلطة من شوائب الفساد التي تسلّلت إليها في أكثر من موطن و هي آمال لم تكن قد خبت بعد"(12).

ولهذا كان لا يترك فرصة تمرّ دون أن يسعى إلى تقريب ذات البين بين بين العرب والترك،والتي تعود في أساسها إلى أعمال جمال باشا وأمثاله من الحكّام الأتراك الطغاة،لأنّه كان يدرك أنّ استفحال أسباب الشقاق بين الجنسين لن يخدم مصلحة كليهما ولا مصالح المسلمين بقدر ما يخدم مصلحة الأجانب وييسّر لهم أسباب التسرّب الاستعماري إلى أقطار السلطنة،فمثل هذه الصراعات والخلافات تشغل السلطنة عمّا يحوق بها من أخطار خارجية إضافة إلى استنزاف قواها،ممّا يجعلها عاجزة عن صدّ أي محاولة غزو استعماري تقدم عليها دولة غربية.ولهذا ما فتئ يطيّب خاطر العرب،تجاه الأتراك من جهة وحكامهم وسياستهم التعسفية من أخرى،من ذلك هذه القصيدة التي ألقاها سنة 1916 أثناء زيارة وفد مبعوث من الأستانة إلى سورية لتطييب خواطر العرب من سياسة إرهاق جمال باشا،وضمّنها ما يجمع بين العرب والترك من وحدة الإسلام التي ينبغي أن تتغلب على الضغائن والخلافات،فيخاطب كلاّ من العرب و الترك قائلا:

"قف بين مشتبك الأغصان والعذب بأرض جيرون ذا الكوثر العـــذب
..أحبّكم حبّ من يدري مواقفكم في خدمة الدين و الإسلام من حقب
أحبّكـــم حـــبّ من يسعى لطيّته في طاعة العقل لا في طاعة الغضـب
و مذ توليتم أمـر الخلافــة قـــد أويتم مـــن بينـــها كـــلّ مغترب
لقد ضربتم لعمـــري في حياطتـــها لكلّ سيف رهيف الحدّ ذي شطـب
فكلّ عزّ يماري في فضائلـــــــكم لا يعرف الحشف البالي من الرطب
مهما يكن من هنـــــات بينـنا فلنا معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيـما بيننا نســــبا ان لم تكن جمعتنا وحـــدة النسب
مجدي بعثمان حـــامي ملّتي و أنا لم أنس قحطان أصلي في الورى وأبي(13)

ثمّ يخاطب وطنه،مستنهضا همم قومه و الأتراك معا،و محذّرا الجميع من مغبّة تواصل الشقاق والتناحر والفتن بينهم،وذلك لأنّهم ضحيّة مكائد تحبك لهم من أطراف خارجية غايتها تصعيد أجواء التوتر المخيّمة على علاقاتهم ذلك أنّه من مصلحة هذه الأطراف تواصل التناحر الذي يضعف شوكة كلّ منهم،فييّسر لهذه الدول الاستعمارية بسط نفوذها على أقطارهم:

فيا وطني لا تترك الحزم لحـظة بعصر أحيطت بالزحام مناهله
وكن يقظا لا تستنم لمكيـــــدة و لا لكلام يشبه الحقّ باطلـــه
وكيد على الأتراك قيل مصوّب و لكن لصيد الأمتين حبـــائله

تذكّر قديم الأمر تعليم حديثـــه فكلّ أخير قد نمتـــــه أوائله(14)

لقد كان شكيب أرسلان مدركا لما يتهدّد العرب و الترك على السواء من مخاطر الدول الأجنبية الطامعة في تقسيم أوطانهم فيما بينها واستنزاف خيراتها الطبيعية والبشرية ذلك أنّه سبر النفسية الأوروبية فألفاها تحمل حقدا دفينا للعرب والمسلمين والشرقيين عامّة يدفعها إلى السعي دوما لامتهانهم وسلبهم كلّ الحقوق الإنسانية المشروعة.هذا إضافة إلى التعصّب الصليبي الطاغي على وجدانها.وتأمّل جيّدا السياسة الأوروبية وتفحّص أحوالها واتجاهاتها ومبادئها وأهدافها فألفاها توسعية استعمارية،وبهذا فإنّ تحذيره العرب والترك من الانسياق وراء المكائد التي تحبك خيوطها الدول الأوروبية للانقضاض على الدول والممالك العربية،الإسلامية ناتج عن قناعات توصّل إليها عبر مراس طويل لسياسة تلك الدول الخارجية تجاه البلاد الضعيفة عامّة و العربية الإسلامية على وجه الخصوص.

وهكذا فقد كان يصوغ سياسته باستقراء المستقبل البعيد لا بالوقوف عند حدود الحاضر الضيقة.واعتبارا لكلّ هذا يمكننا أن نقر أنّه "في ظلّ الحدود التاريخية لوعي الأمير شكيب أرسلان كان طبيعيا إذن الاعتقاد أنّ سقوط الدولة العثمانية لن يعقبه استقلال عربي وإنّما سيعقبه في ظلّ وقائع العصر، احتلال أوروبي أكثر سوءا من فساد الأتراك وجورهم والاحتلال الأوروبي لم يكن ليعني في ذهن شكيب أرسلان إلاّ استمرار الغزوة الصليبية وهو واقع كذلك تغيّرت الأسباب و الألقاب أم لم تتغيّر"(15).

وعلى ضوء كلّ هذا فقد اعتقد شكيب أرسلان أنّ صدّ هذا الغزو الأوروبي الذي يهدّد حرية الأقطار العربية– الإسلامية واستقلالها أمر يتجاوز قدرة شعب عربي واحد،أو قطر إسلامي بمفرده بل يقتضي توحّد العرب والمسلمين وتآزرهم وتضامنهم،ولن يتحقق كلّ هذا إلاّ في صورة الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية التي تجعل منهم قوّة منيعة قادرة على الصمود ودحر الأخطار الأجنبية التي تهدّد الدين الإسلامي بدرجة أولى و حريتهم في مستوى ثان.ولهذا فقد" كان هاجس الخوف على الإسلام أو سقوط الإسلام يسرّب أو يؤجّل النزاعات التي تحدث بين تركيا وباقي الشعوب الإسلامية وبين تركيا و العرب بالذات"(16).

ولقد صدّقت الأحداث كلّ ما حذّر منه شكيب أرسلان العرب والمسلمين على السواء من مغبّة الانفصال عن السلطنة أو قلب ظهر المجنّ لها،ذلك أنّه

حال إلغاء الخلافة العثمانية من طرف"الغازي"مصطفى كمال أتاتورك تصدّعت الوحدة التي كانت تجمع المسلمين إلى بعضهم البعض وانبتّت صلات العرب بالترك،فتفرّق الشمل مجددا وعادت الخلافات والصراعات والدسائس لتخيّم على أجواء العالم العربي الإسلامي،فزال ما تبقّى للعرب والمسلمين من هبة وذهبت ريحهم،فذلوا بعد عزّ،واستعبدوا بعد سيادة وهنا يعاتب شكيب أرسلان معارضي سياسته العثمانية الذين يعزون تأخّر المسلمين إلى الخلافة العثمانية التي تسبّبت في كلّ النكبات التي ألّمت بالعرب والمسلمين على السواء فيدحض افتراءاتهم هذه مبرزا براء الخلافة من كلّ ما ألحق بها من شبهات وتهم: "هذه هي الخلافة التي يقول بعض الناس اليوم إنّها لم تفد الإسلام بشيء،بل يقولون إنّها كانت وبالا على المسلمين إلاّ ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع و لا سيما العرب الذين كما قال النعمان ابن المنذر تراهم كلهم ملوكا و كلّ أمّة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولا يبقى لها ملوك."(17).

وهكذا يقرّ شكيب أرسلان أن علّة انحطاط المسلمين وتخلّفهم واستعمارهم من طرف الدول الأوروبية كامنة فيهم،ولا سبيل إلى البحث عن المبرّرات خارج ذواتهم وواقعهم،ولا جعل الخلافة العثمانية مسؤولة عن تدهور مختلف أوضاعهم.

وصفوة القول فقد تبوأت الخلافة العثمانية منزلة معتبرة في فكر شكيب أرسلان وسياسته،وذلك لأنّه رأى فيها الدرع المانع للعرب والمسلمين من كلّ خطر أو طمع أجنبي بفضل توحيدها لشتات الأقطار العربية والإسلامية في جامعة دينية تشكل قوّة فعّالة تذود عن الإسلام وتحمي دياره،ولكلّ هذا يمكننا أن نفهم سرّ أسى شكيب أرسلان العميق عند زوال الخلافة العثمانية بإلغاء"الغازي"مصطفى كمال اتاتورك لها،وحملته الشديدة على سياسة هذا الأخير التتريكية،ولقد ظلّت رواسب الاعتزاز بالخلافة ودولتها في نفس شكيب أرسلان إلى وقت متأخّر،وبالتحديد إلى سنة 1935 حيث نجده في كتابه" شوقي أو صداقة أربعين سنة"يدافع عن الخليفة العثماني وحيد الدين ويوجد له المبرّرات لتعليل صلته بالأنغليز.ورفضه الانضمام إلى رجال الحركة الوطنية، بالإضافة إلى وصفه الرائع للأستانة عاصمة الخلافة المنقطعة النظير،وخشيته ضياعها من أيدي المسلمين مبرزا مدى تمسّك الشعب التركي بآل عثمان

واستمرار مخادعة رجال الحركة الوطنية له،كلّ هذا يكشف لنا بقاء مشاعره العثمانية—التي تغذيها نزعته الإسلامية– حيّة في وجدانه حتّى بعد زوالها.

4- شكيب أرسلان و الجامعة الإسلامية

يحسن بنا قبل دراسة دعوة شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية التي تشكّل جوهر فكره الديني ومحور سياسته الإسلامية،ومنتهى سياسته العثمانية المناصرة للخلافة التي تروم تحقيق وحدة المسلمين وصيانة عزّتهم و استقلالهم، و العمل على نهضتهم العصرية،أن نؤطر هذه الدعوة تاريخيا من خلال رسمنا للخلفية التاريخية التي تمثّل نشأتها والمسار الذي قطعته لنتدّرج إلى استكشاف خصائصها في فكر شكيب أرسلان الإسلامي،والأبعاد التي رام تحقيقها منها، وإلى أي حدّ حققت المرجوّ منها من نتائج تعود بالنفع العميم على أحوال المسلمين في الراهن و المستقبل؟

4-1- الخلفية التاريخية

إنّ ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ليست حديثة النشأة بقدر ما هي ضاربة في القدم،وبذلك فإنّ ما شهده العصر الحديث. من جهود قصد إحيائها وتجديد أدوارها إن هو إلاّ تواصل لما بذله السلف في سبيل تحقيقها قصد وحدة المسلمين التي يتوقف عليها استقلالهم ورقيهم الحضاري.

ويحدّد شكيب ارسلان منشأها فيبرز أنّها "قديمة بأصلها منذ عهد صاحب الرسالة–أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتفّ من حوله المهاجرون والنصارى متعصبّين معه بعصابة الإسلام لقتال المشركين.لقد أدرك محمد(صلعم)خطورة الجامعة وعلوّ منزلتها في المسلمين حقّ الإدراك فغرس غريستها بيديه في نفوسهم فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها(18).

وما برحت عرى هذه الجامعة الإسلامية تتوثق بين المسلمين الذين توصلوا بفضلها إلى تحقيق فتوحاتهم الكبرى وبسط نفوذهم على بقيّة الأمم لقوّة.نعرتهم الدينية على الإسلام دينا و أتباعا وربوعا ولشدّة يقينهم"أنّه في الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم بعضا موّحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامّة و الاستمساك بعروبتها الوثقى كدين الإسلام"(19).

وشيئا فشيئا ضعفت النعرة الدينية لدى المسلمين فكان تفكك الجامعة التي تلّم شتاتهم وكان بدء مغيب شمس حضارتهم التي كانت تشرق على العالم شرقا وغربا،فشهدوا التخلف بعد الرقي والاستعباد بعد السيادة.وقد كان

لاشتداد الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أثره البليغ في إحياء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من جديد عبر مشايخ الطرق الدينية الحديثة النظام كالطريقة السنوسية وكذلك من خلال الدعوات التي قامت بها جماعة من جلّة العظماء وأكابر المفكرين يرأسها الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلامذته الذين أخذوا عنه تعاليم مذهبه كالشيخ محمد عبده وغيره،وكان أن حظي شكيب أرسلان بمعرفة الأول ولقائه بالآستانة بينما تتلمذ على الثاني أثناء إقامة هذا الأخير ببيروت منفيا من طرف سلطات الاحتلال الأنغليزي،لذا لا غرابة إن تأثر شكيب أرسلان بتعاليم مذهبهما في الإصلاح الديني،فكانت دعوته إلى الجامعة الإسلامية صدى لهذا التأثر بفكرهما الديني الذي أقتنع بأهميته في تغيير واقع المسلمين وجعله يماشي روح العصر قصد تحقيق النهضة الإسلامية الحديثة،ذلك أن شكيب أرسلان لم يكن مسلما صوريا جغرافيا ليس له من الإسلام إلاّ الانتساب ومن معناه وفحواه إلاّ رسمه بل كان المسلم الحقيقي الذي وعى الإسلام على أنّه عقيدة وعمل وأنّه دين إنساني قدّم للإنسانية في عهود ازدهار جليل الخدمات،فكان من دعاة الجامعة الإسلامية الأوائل لما كان يراه فيها من قوّة إنسانية خلاّقة تلعب دورا فعالاً في نشر المبادئ الإنسانية السامية من عدل ومحبّة وتعاون وإخاء بين المسلمين وبين الأجناس الأخرى رغم اختلاف المعتقد الديني.

وسنعمد في تحليلنا دعوة شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية إلى إبراز مفهومه لها،ثمّ الأسس التي تقوم عليها،لننتقل إلى استكشاف وظائفها،ثمّ نختتم بتقييم النتائج التي تمخّضت عنها.

4-2- حدّ شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية

يعتقد شكيب أرسلان أنّ اتحاد المسلمين في جامعة توحّد صفوفهم،وتكتّل جهودهم،وتحمي حياضهم وتدافع عن حرّيتهم واستقلالهم،وتسعى إلى الارتقاء بهم إلى مصاف الحضارة الحديثة أمر طبيعي وضروري لسببين:

أحدهما أنّ التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان حتّى لو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة فكيف إذا اتحدّوا في عقيدة؟

الثاني أنّ المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ويرون فيهما سعادتهم وراحة وجداناتهم و في القرآن الكريم: إنّما المؤمنون اخوة،فاعلم تجد إخاء المسلم فرضا محتّما عليه و مؤازرته من باب الشرع الذي من ترك شيئا منه فهو آثم"(20).

ويحدد شكيب أرسلان مفهوم هذه الجامعة الإسلامية التي يدعو المسلمين إلى التحمّس لها بالولاء والمناصرة في"الشعور بالوحدة العامّة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمورة الإسلامي"(21).ثمّ يتعمّق في التعريف بها فيبيّن لنا أنّها في كلّ حالاتها التي تمرّ بها وتطوّراتها التي تطرأ عليها"يجب ألاّ تعتبر أنّها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ردّا لاعتداءاته ودفعا لجوره فحسب بل أن منشأها الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامّة".

فإنّ عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط بل إنّها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية –خلقية– تهذيبية.وإنّ القوانين والقواعد التي تتآلف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الإسلامية على مختلف العادات والأقاليم لا تتغيّر في موضع آخر في جميع المعمور الإسلامي"(22).

وهكذا فإنّ الجامعة الإسلامية في وعي شكيب أرسلان إن هي إلاّ وحدة شاملة تؤلف بين المسلمين دينيا وسياسيا واجتماعيا وخلقيا ليصبحوا قوّة مهابة من طرف الأعداء الذين يتربّصون بهم الدوائر.

4-3- دعائم الجامعة الإسلامية

يقرّ شكيب أرسلان أنّ الجامعة الإسلامية التي تجمع المسلم بالمسلم في عصرنا الحاضر تفوق قوّة تلك التي تجمع بين النصراني وأخيه في الملّة،وذلك رغم تقاتل المسلمين السجال الذي سرعان ما يسكن عند نزول كرب بهم إذ" لا حقد في الإسلام.فعند الشدائد تذهب الأحقاد من المسلمين فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألّبون جموعا متراصّة متماسكة لقتال العدوّ المهاجم وراء الخطر الداهم"(23).

ويجعل شكيب أرسلان هذه الجامعة الإسلامية تقوم على ركنين أساسين:

1- الحـجّ إلى بيت الله الحـــرام:

يعتبر الحجّ مؤتمرا إسلاميا سنويا عامّا،يقع فيه تباحث الوفود الإسلامية والنواب والمسلمين الطارئين من أقطار المعمور الإسلامي كافة في القضايا الإسلامية التي تخصّ مصير المسلمين في الحال والاستقبال،كما يقوم هؤلاء بوضع الخطط للدفاع عن بيضة الإسلام والذبّ عن حياض المسلمين،ونشر الدعوة الإسلامية في الأقطار التي لم تدخلها بعد "وفي هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها كعبد الوهاب ومحمد بن السنوسي

وجمال الدين الأفغاني تشعر بجلالة الواجب الإسلامي المقدّس وتنقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الإسلام و المسلمين.(24)

وهكذا يمثّل موسم الحجّ مناسبة هامّة يلتقي فيها جميع المسلمين لتدارس أوضاعهم الدينية والدنيوية،وقد تجاوزوا كلّ خلافاتهم وصراعا تهم بتغليبهم مصالح الإسلام و بني ملتهم على مصالحهم الخاصّة.

وإلى جانب هذا الركن الأساسي الذي يلعب دورا فعّالا في تحقيق الجامعة الإسلامية،يؤكد شكيب أرسلان على ركن ثان يتمثّل في:

2- الخلافة العثمانية

لئن شكلّت الخلافة إحدى قناعات شكيب أرسلان الأساسية،وأحد محاور سياسته الإسلامية فلأنّها تعتبر في فكره الديني وسيلة فعّالة في تحقيق وحدة المسلمين من خلال ولائهم لسلطتها الدينية والدنيوية واجتماع كلمتهم حولها لما تحققه لهم من مناعة وسؤدد،ذلك أنّه"كان لها شأن تاريخي عظيم في أوائل عهدها"(25)،حيث ساهمت بقسط وافر في جعل المسلمين يكونون قوّة استطاعت إخضاع بقيّة الأمم لها،بتوظيف كلّ الطاقات لنشر الإسلام و الدفاع عن حياضه وتحقيق رقي الأمّة الإسلامية وتحضّرها.واعتبارا لأدوارها الرائدة هذه أيقن شكيب أرسلان أنّ هذه الخلافة كما وحدّت المسلمين ماضيا وحافظت على إسلامهم،وصانت استقلالهم،وساهمت في سيادتهم لغيرهم من الأمم وأقامت صرح نهضتهم التي قدّمت للإنسانية جليل الخدمات قادرة في العصر الحاضر على أن تجدّد خدماتها للإسلام والمسلمين فتحميهم من كلّ ما يحوق بهم من أخطار النصرانية.

3- الطرق الدينية الحديثة:

قامت الطرق الدينية الحديثة بدور فعّال في إذكاء النعرة الدينية لدى المسلمين والتي ضعفت وشائجها عند بلوغهم أعلى درجات الحضارة بقعودهم عن الجهاد وبذل المال والنفس مقابل الإقبال على إرضاء أهوائهم والانغماس في ملذّات الدنيا.وذلك من خلال دعوتها إلى الإصلاح الديني في الإسلام إصلاحا يلوّنه التعصّب كالدعوة الوهابية التي ظهرت في نجد قلب الجزيرة العربية على يد محمد عبد الوهاب.والطريقة السنوسية التي أسّسها الشيخ أحمد الشريف السنوسي وظهرت في صحراء طرابلس،والتي تقوم دعوتها على مبدأ وجوب فتح جميع البلاد الإفريقية ثمّ سائر الأقطار الإسلامية بغية جعل العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه مملكة واحدة على رأسها خليفة واحد.وهذه

المملكة العظمى ترتبط أقطارها بعضها ببعض بالجامعة الإسلامية الكبرى، فضلا إلى تصوّرها عن تحرّر المسلمين سياسيا من ربقة السيطرة الغربية النصرانية يجب أن يسبق انتشار التجدّد الروحاني،والدعوة الأخلاقية في المسلمين الأمر الذي جعلها تجاهد إدراكا لهذه الغاية بتهذيب أخلاق رعيّتها وترقيتها وإيتاء نفوسها التربية الصحيحة وتنشئتها على الفضائل الإسلامية العليا وجدّها في سبيل تحسين المعايش وتوفير وسائل الكسب مما جعل الاقتصاد يزدهر.

ولقد ساهمت الطرق الدينية في المشرق و المغرب الإسلاميين في بثّ الوعي الديني في نفوس المسلمين من خلال الزوايا التي أقامتها للتعليم و الدروس التي كان يقوم بها مشائخها في المساجد والربط،حتّى تقنع المسلمين بوجوب الاتّحاد تحت لواء جامعة إسلامية واحدة تذود عن دينهم"الإسلام"الذي يشهد حملات صليبية عصرية تقودها أوروبا من خلال بعثاتها التبشيرية وإرسالياتها الدينية إلى الربوع الإسلامية من جهة والبلاد الإفريقية والآسيوية من أخرى.

كلّ ذلك لانّ ما يحتاج إليه المسلمون الاحتياج الأشدّ إنّما هو ازدياد النعرة الدينية فيهم لا تناقصها فاضمحلالها،لهذا سعت الطرق الدينية إلى تقوية الحميّة الدينية في وجدان المسلمين لاعتقادها الراسخ في أنّ الإسلام يمثّل أكثر من سبيل خلاص فردي.وأكثر من طريق إلى الجنّة،وهو قوّة توحّد.وسبيل للتحرّر والاستقلال ووسيلة مثلى للنهضة.

4-4- وظائف الجامعة الإسلامية كما يراها شكيب أرسلان

لئن اقتنع شكيب أرسلان بجدوى تحقيق الجامعة الإسلامية،وتحمّس للدعوة لها فلوعيه العميق بأهمية الأدوار القادرة على تأديتها في الواقع المعاصر للإسلام والمسلمين.ويمكننا أن نحدّد الوظائف التي تقوم بها مثل هذه الجامعة فيما يلي:

1- توحيد المسلمين

لئن خيّمت على أقطار البلاد الإسلامية أجواء الصراع والتشتّت والاختلاف لأسباب مختلفة،فإنّ الوسيلة المثلى الوحيدة القادرة على جعلهم يتجاوزون مظاهر واقعهم المتأزّم.إنّما تكمن في الإسلام الذي يدينون به،ويشكل الجامعة الوحيدة التي توحّد أجناسهم المختلفة من ترك وعرب وكرد وأرناووط وجركس وغيرهم.فتجعل حميّتهم الدينية تطغى على عصبياتهم الجنسية واختلافاتهم

المذهبية وانتماءاتهم الجغرافية.وتبعث فيهم القوّة والعزم للتحرّر من كلّ تبعية وتحقيق الاستقلال الشامل لبناء النهضة الإسلامية العصرية.

2- صيانــة الخلافــة العثمانـيـة

تمثل الجامعة الإسلامية رابطة سياسية واجتماعية ودينية بين مختلف الشعوب التي تنضوي تحت لواء العثمانيين ومن هنا تستمدّ أهميتها في القدرة على إبقاء على الخلافة العثمانية سلطة دينية-سياسية يدين لها المسلمون بالولاء والطاعة.ويؤكّد شكيب أرسلان أنّه"لولاها لكانت هذه السلطنة قد تفككت منذ قرون"(26).

وهكذا فإنّ الجامعة الإسلامية تضمن بقاء إشعاع سلطة الخلافة العثمانية على ربوع العالم الإسلامي واستمرار نفوذها عليها،والإبقاء على الخدمات التّي تقدّمها للبلاد الإسلامية والضمانات التي توفرها لشعوبها من صيانة حرية واستقلال،ونجدة وإعانة عند إصابتها بكوارث ونوائب،وتضامن معها في إحباط كلّ ما يحاك ضدّ أمنها و سلامتها من الأعداء الأجانب.و لهذا كلّه كان جوهر سياسة السلطنة العثمانية يتمثّل في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والاتفاق حول الإسلام دينا وعقيدة بالعمل هديا على كتابه و سنّته.

3- صدّ الغزو الغربـي للبـلاد الإسلامـية

لمّا اشتدّ الخطر الغربي على البلاد الإسلامية بغزو الفرنسيين للجزائر فتونس واستيلاء روسيا على مضيق القوقاز وبسط أنغلترا نفوذها على الهند ثمّ إغارة إيطاليا على طرابلس الغرب وتألّب الدول البلقانية النصرانية على تركيا مركز الخلافة العثمانية وكعبة المسلمين،بلغت الروح التراقي لدى المسلمين مشرقا ومغربا وأخذت الجامعة الإسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغزو الغربي للأقطار الإسلامية والحملات الصليبية التي يشنها النصارى المسيحيون على الإسلام بإيعاز من الدول الغربية الكبرى وعون .

ولقد أدرك شكيب أرسلان أنّه"إذا رام العالم الإسلامي حقّا تحرير نفسه من النير الغربي وجب عليه أن يعمل عملا منظما شاملا و يسعى سعيا أكيدا ثابتا جامعا للوحدة العامة والرابطة الكبرى"(27).وأيقن أنّه لن يتسنّى لأقطار الأمة الإسلامية الاستقلال السياسي عن الغرب النصراني ما لم تنضو تحت لواء الجامعة الإسلامية التي تشكل القوّة الوحيدة الناجعة،والقادرة على إحباط محاولات الغزوات الاستعمارية الأوروبية.

وهكذا تمثّل الجامعة الإسلامية سلاحا فعّالا في صدّ الهجمات الأوروبية

تجاه المشرق والمغرب وإحباط كلّ خططها التوسعية ومطامعها الاستعمارية، لهذا اعتقد شكيب أرسلان اعتقادا راسخا في أنّ توحّد المسلمين في جامعة تلم شتاتهم وتوحّد كلمتهم وتوقف نزيف طاقاتهم في الصراعات والحروب السجال التي كانت تجد فيما بينهم هي أكثر أمانا من كلّ البدائل المطروحة. وأمر ملح يتقدّم على سائر المسائل الأخرى.

ولم يكن في هذه الأهميّة القصوى التي يعلّقها على مشروع الجامعة الإسلامية أي انتقاص من انتمائه لعروبته ذلك أنّه كان يرى صالح العرب في صالح اتّحاد المسلمين. وجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، وتكتيل جهودهم في معركة المصير ضدّ الاستعمار والتخلف، ويؤكد مذهبه هذا بقوله: "إنّ الجامعة الإسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب بل هي عضد للشعب العربي بأسره. فلماذا يعطف مثلا مسلمو الهند والجاوى والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين؟ الجواب، لأنّها مسلمة لا لأنّها عربية". (28)

وبعد أن رسمنا الخلفية التاريخية لدعوة الجامعة الإسلامية التي اقتنع بجدواها شكيب أرسلان فتحمّس لتجسيدها، وإثر إبرازنا لمفهومه لها، وضبطنا للدعائم الأساسية التي يقوم عليها بناء كيانها في فكر شكيب أرسلان الديني والوظائف التي تضطلع بها للإسلام والمسلمين يجدر بنا أن نختم دراستنا لهذه المسألة بمحاولة تقييم للنتائج التي تمخضت عنها هذه الدعوة للجامعة الإسلامية والى أي حدّ حققت الطموحات التي نشد شكيب أرسلان بلوغها من خلال الدعوة إليها؟

4-5- تقييم دعوة شكيب أرسلان إلى الجامعة الإسلامية

لقد أفرزت الجامعة الإسلامية بفضل الوعي الديني الذي بثّته في المسلمين واليقظة الروحية التي أحيتها في وجدانهم عديد النتائج التي كان لها أثرها البليغ في تغيير أوضاع العالم الإسلامي بجعله يقظا متحفزّا لتحقيق غد أفضل بعد قرون التخلف والانحطاط التي رانت عليه لثبوط إرادة المسلمين نتيجة ما انتابهم من خطوب. وما تمكن من كيانهم من علل نخرت طاقاتهم وأجهضت طموحاتهم. وسدّت آفاق مستقبلهم. فأنكفأوا على ذواتهم يجترّون أمجاد ماضيهم ومآثره.

ويمكننا أن نعتبر يقظة الشعور الديني لدى المسلمين واستفاقة نعرتهم الدينية للذود عن الإسلام ودياره وأتباعه بالعمل على عزّته ومناعته ووعيهم

الحادّ بوجوب توحدّهم ونبذ كلّ خلافاتهم وصراعاتهم للقدرة على مقاومة العدوّ المشترك: الاستعمار والتخلّف قصد بناء المجتمع الإسلامي الحرّ الراقي.

وما يدعم مذهبنا هذا وقوف العالم الإسلامي كليّة في وجه الغزو الغربي وقد اشتدّت وطأته على الأقطار الإسلامية فنجده يهبّ ساخطا ومندّدا وثائرا عند غزو الطليان لطرابلس، ونجد الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب، بكلّ حماس من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من التنافر والعداء الشديدين. ولم يتوان المسلمون من كلّ الفجاج أن يقدّموا التبرّعات الضرورية لشدّ أزر إخوانهم المجاهدين الطرابلسيين بجبهات القتال حتّى يصمدوا أكثر في وجه الطليان، وكذلك كان الشأن عند استكمال فرنسا غزو المغرب الأقصى بعد أن أحكمت نفوذها على المغربيين الأدنى والأوسط ، حيث هبّ المسلمون يندّدون بالسياسة الاستعمارية الفرنسية مشهّرين بممارستها المناقضة لدرجة رقّيها وللمبادئ الإنسانية التي تزعم الدفاع عنها. ويبرز لنا شكيب أرسلان انّه"لما نشبت الحرب البلقانية طفح الكيل وبلغت الروح التراقي فبات المسلمون من الصين حتى الكنغو يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها فلمّا طيّر البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الإسلامي أيّما إجفال وبلغت صرخاته عنان السماء."(29)

هذا وعند شنق السلطات الاستعمارية الإيطالية المجاهد الليبي عمر المختار على مرأى من أهالي قريته في 16 سبتمبر1931 اشتعل العالم الإسلامي غضبا وحنقا على إيطاليا. فقام يدعو إلى مقاطعتها سياسيا واقتصاديا. وثار المسلمون في كلّ الأمصار على فرنسا عند استصدارها للظهير البربري بالمغرب الأقصى في 16 ماي سنة 1930 قصد سلخ البرابرة من الديانة الإسلامية وتنصيرهم حتّى يلحقوا بالأمّة الفرنسية.

ولقد تحرّك قادة الجامعة الإسلامية مشرقا ومغربا للتعريف بقضايا العالم الإسلامي أمام الرأي العام العالميّ وفضح الممارسات الاستعمارية الغربية في الربوع الإسلامية الخاضعة لنفوذها، سواء عن طريق مشاركتهم في اجتماعات الهيآت والمحافل الدولية، أو من خلال كتاباتهم المتنوّعة في الشؤون الإسلامية أو في المؤتمرات التي كانوا يعقدونها فيما بينهم لتدارس أوضاع العالم الإسلامي والخطط الواجب ضبطها لكسب معركة المصير المزدوج: الاستقلال و التحضّر.

وخلاصة القول فالجامعة الإسلامية التي دعا إليها شكيب أرسلان إن هي إلاّ ذلك الحكم الهائل الذي يوجب على المسلم ألاّ يطيع غير المسلم إلاّ متى

رأى منه ما يوجب عليه نقض طاعته،وهي أحكام الجهاد بالنفس والمال في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين والتي تستوجب على المسلمين العودة للعمل بها حتّى يحققوا ما تمكن منه سلفهم من عزّة ورقيّ حضاري،وهي ذلك التضامن بين المسلم وأخيه مما يجعل الإسلام بناءا واحدا،لكلّ هذا فلا غرابة إن كانت هذه الجامعة الإسلامية محرجة للمستعمر الأوروبي،تبعث في نفسه الامتعاض المزوج بالرهبة لما تشكل قوّتها من أخطار على استمرار وجوده ببلاد العالم الإسلامي و سيطرته الحضارية عليها.

ويعتقد شكيب أنّ الحملات الأوروبية المعادية لهذه الجامعة الإسلامية والساعية لتفويض صرحها لن تنال منها ذلك أنّه"كلّما تقادم على الجامعة الإسلامية العهد و تناسخ الألوان ازدادت الجامعة شدّة وقوّة ومناعة و اعتزازا" (30).هذا ما يؤكده شكيب أرسلان داعية الجامعة الإسلامية هذه القوّة الإنسانية الحقّة التي تبشر بين الناس جميعا بمبادئ الحقّ و العدل و المحبّة.

5- شكيب أرسلان و مشروع نهضة إسلامية معاصرة

لم ينفرد شكيب أرسلان بتتبع عوامل انحطاط المسلمين وتحليل مظاهره، واستقراء أبعاده ولا أيضا في وضع تصوّر ما لمشروع نهضة إسلامية معاصرة تزاوج بين الأصالة والمعاصرة وتعتق المسلمين مما خيّم عليهم من ركود فكري وقعود سياسي،وتعيد لهم منزلتهم بين الأمم المتحضرّة بل سبقه من مفكري القرن التاسع عشر ومصلحيه من تنبّه إلى أهميّة هذه القضيةّ المصيرية بالنسبة للمسلمين في العصر الحاضر،فعمد إلى تتبّع أسباب تدهور أوضاعهم وسعى إلى تحديد معالم منهج إصلاحي كفيل بإرساء دعائم نهضة إسلامية معاصرة،فإلى جانب الشيخ المصلح جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده ودعوتهما الإصلاحية التي قامت على وجوب تعصير النظرة للشريعة والتراث الإسلامي حتّى يستجيبا لأحوال العصر نجد المصلح عبد الرحمان الكواكبي يتناول قضية "النهضة الإسلامية" في كتابه "أم القرى1898"،والذي تعرض فيه إلى العوامل التّي أدّت إلى انحطاط العالم الإسلامي والسبل الكفيلة بالرقي بالإسلام والمسلمين حاضرا ومستقبلا.

كلّ هذا في صورة مناقشات خيالية بين مفكرين منتسبين إلى مختلف البلاد الإسلامية،كما عاد لدراسة هذه القضية في كتابه" طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"(1902)مبرزا أنّ العودة إلى الشريعة هي السبيل القويمة لتحقيق نهضة إسلامية معاصرة،وقد تفطن إلى خطورة هذه القضية العديد من رجال

الفكر الغربيين نخصّ بالذكر منهم المؤرخ الأمريكي"ستودارت لوثروب في كتابه" حاضر العالم الاسلامي" الذي أصدره سنة 1924.

وهكذا فلئن حدّدنا الإطار التاريخي لقضية "النهضة الإسلامية المعاصرة" فلأننا نروم أن نكسب تصوّر شكيب أرسلان لهذه المسألة السمة الموضوعية التي تجعل من مساهمته الفكرية في إرساء دعائم النهضة الإسلامية لبنة جديدة تنضاف إلى ما وصل إليه أسلافه في هذا المسار.

وسنتوخى في دراستنا لهذه القضية منهجا تحليليا استقرائيا يكون منطلقه تبيان الحوافز الكامنة وراء اهتمام شكيب أرسلان بواقع المسلمين المتدهور حاضرا وتتبع أسباب ذلك مع مقارنته بحالهم في الزمن الماضي.كلّ ذلك لاستنباط الطرق الكفيلة بتحقيق نهضة إسلامية شاملة،معتمدين في ذلك خاصّة على أثره القيّم "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم"،وعلى مقتطفات من آثاره الأخرى التي تناول فيها قضية النهضة الإسلامية بين الحنين إلى الماضي الإسلامي المشرق وتجاوز الحاضر المتدهور بالتطلع إلى المستقبل المنشود.

5-1- حوافز النهضة الإسلامية المعاصرة في وعي شكيب أرسلان

لقد كان لتردّي أوضاع واقع الإسلام والمسلمين أثره العميق في جعل شكيب أرسلان يتحمّس لتتبّع الأدواء التي كانت تنخر كيان المجتمع الإسلامي كليّة و تشخيصها،قصد معالجتها بتقديم البديل النظري والعملي لها،القادر على النهوض بالمسلمين دينيا و دنيويا.

وسنعمد إلى دراسة أهمّ العوامل التي توصّل إلى اكتشافها شكيب أرسلان أسبابا رئيسية لانحطاط المسلمين وتخلّفهم لا حاضرا فحسب بل وماضيا كذلك والتي كان من نتائجها ضياع ممالكهم،وأفول نجم إشعاعهم الحضاري على سائر الأمم التي كانوا يسودونها لحقب زمنية متفاوتة.

1- ضعف الوازع الديني و قوّة الوازع الدنيوي

لقد كان لتخلّي المسلمين عن الدين الإسلامي-جوهرا أسمى يحدّد معالم حاضرهم ويرسم آفاق مستقبلهم بما يتضمّنه من مبادئ وتعاليم-أن تبدّلت طباعهم،وتغيّرت مذاهب سلوكهم لتصبح نقيض ما كان عليه أسلافهم"،فلم يبق من الإيمان إلاّ اسمه ومن الإسلام إلا رسمه،ومن القرآن إلاّ الترنّم به،دون العمل بأوامره و نواهيه"(31)،وهو ما جعلهم يضيعون تدريجيا الوسائل التي حقّقت لسلفهم رقيّهم الحضاري،وما بلغوه من مراتب معرفية رفيعة في شتّى الحقول،ولقد شكل ضعف الوازع الديني لدى المسلمين حافزا رئيسيا ساهم في

توليد الحيرة في وعي شكيب أرسلان حول أسباب تدهور المسلمين حاضرا وماضيا.

2- فقدان روح الحماس و التضحية و البذل

بعد أن بلغ المسلمون أرقى درجات التحضّر التي أهلّتهم لسيـــادة العالم ردحا من الزمن،بدأ العدّ التنازلي بفقدانهم تدريجيا الخصال التي مكّنتهم من الرقيّ من حماسة وتضحية بالمال والنفس فأثبطت عزائمهم وقعدوا عن الجهاد لتأصّل الجبن واليأس في كيانهم وفقدانهم الثقة في النفس،فيسرّوا لأعدائهم سبل غزوهم وبسط نفوذهم على أقطارهم،فانحطوا بعد رقيّ وتخلّفوا بعد تقدّم وذلوا بعد سيادة.

فبعد أن كان المسلمون رمز الشجاعة والحماسة والإقبال على الشهادة تحوّلوا إلى النقيض فانتفت هذه الخصال منهم ليتحلّى بها أعداؤهم النصارى ممّا أثار استغراب شكيب أرسلان واستنكاره: "ومن الغريب أن الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت في اعتدائهم هيبة المسلمين إياه في دفاعهم،وأنّ المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الإفرنج في اسحتقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة."(32)ولقد ولد هذا الجبن والتخاذل اليأس والقنوط في نفوس المسلمين الذين أفرغوا من كلّ ثقة بالنفس،وسلّموا أمرهم و مصيرهم للأجانب.ذلك أنّه قد" وقر في أنفسهم أنّ الإفرنج هم الأعلون على كلّ حال وأنّه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه،وأنّ كلّ مناهضة خرق في الرأي،ولم يزل هذا التهيّب يزداد،ويتخمّر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب،و صار الأقلّ منهم يقومون للأكثر من المسلمين"(33).

وهكذا فإنّ فقدان الثقة في النفس يشكّل آفة روحية خبيثة إذا ما تمكّنت من إنسان أودت به،وإذا ما تأصّلت في كيان أمّة ساقتها إلى التلاشي والفناء، وكذلك كان شأن المسلمين في العصر الحاضر،الأمر الذي دفع بشكيب إلى التساؤل مستغربا من هذا الدرك الذي بلغه المجتمع الإسلامي المعاصر: " كيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء،ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء،وأنّهم وإن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يصارعوا الأوروبيين في شيء."(34)وبذلك أصبح المسلمون يعتقدون أنّه من العبث صراع المسلم للأوروبي،والأولى به الاستسلام له صاغرا دون مقاومة"وقد أحسّ الأوربيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية الموافقة لمصالحهم

الاستعمارية فصاروا يروّجون فيهم ويقوّون عندهم هذه العقيدة لأنّها ممّا يسّهل الاستعمار ويمهّد طريقه ويكفيهم المقاتلات والمنازلات ويوفر عليهم المزاحمات والمسابقات و يجعل لهم التفوّق بلا نزاع والتسلّط دون جدال"(35).

ثمّ ولئن أمر القرآن المسلم أن يبذل ما لديه في سبيل نصرة دينيه وبني قومه فإنّ المسلمين خالفوا تعاليم كتابهم بشحّهم على أمور آخرتهم،فحادوا عن خصال الجود والكرم التي اتصّف بها المسلمون الأوائل في سبيل إعلاء كلمة الدين الإسلامي،وخضد شوكة أعدائه الأمر الذي دفع بشكيب إلى الحملة عليهم في أسلوب تأنيب بقوله: "لو فكروا قليلا لرأوا أنّ هذا الشحّ بالمال على إخوانهم الذين في مواطن الجهاد لم يكن توفيرا وإنّما كان هو الفقر بعينيه لأنّ الأمة المستضعفة لا تعود حرّة في تجارتها واقتصادياتها بل يمتصّ العدوّ الغالب عليها كلّ ما فيه غلال ورطوبة في أرضها ولا يترك للأمّة المستضعفة إلاّ عظاما يتمششونها من قبيل قوت لا يموت "(36).

وينتهي شكيب أرسلان إلى الكشف عن انعكاسات هذا الشحّ بالمال على واقع المسلمين الديني والدنيوي بقوله: "ضنّ المسلمون بالأموال على القضايا العامّة هو الذي شلّ حركتهم السياسية وفتّ في عضد قوميتهم إلى أن صارت الأمم الغالبة على أمرهم لا تحسب لهم أدنى حساب،فالمسلمون عزّ عليهم المال ففقدوه وعزّت عليهم الحياة ففقدوها"(37).

وهكذا كان لفقدان المسلمين الحماسة والتضحية بالنفس والمال الأثر السلبي على مصيرهم فكان أفول حضارتهم فتخلفهم واستعمارهم من طرف دول كانوا أسيادها ماضيا.

3- خيانـــة الديـن و الوطـن

تشترك الأقطار الإسلامية ماضيا وحاضرا في ظاهرة لا يمكن للمرء أن يتجاهلها وتتمثّل في خيانة فئات من مجتمعاتها لدينها ووطنها بقبول العمالة للأجانب والتواطئ معهم خدمة لمصالحها وطمعا في إحراز مناصب أو هبات، فيسرّت بذلك سبل التسرّب الأجنبي إلى ديار الإسلام في مرحلة أولى،ثمّ تمركزه بها وبسطه لنفوذه عليها في مرحلة موالية،ويقرّ شكيب أرسلان أنّه" لولا هذا التبرّع بالخيانة والتسرّع في مظاهرة الأجنبي على ابن الملّة لما استأسد الأجنبي وصار يتحكّم في المسلمين هذا التحكّم الفاحش ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم و ملتقى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت"(38).

ثمّ إنّ الأمرّ عند شكيب أرسلان هو خيانة الخاصّة المثقفة لدينها ووطنها، هذه الخيانة التي تفتقد إلى مبرّرات الاقتناع لأنّها وليدة وعي لا جهل،و يورد لنا مثالا لذلك الوزير المقرّي بالمغرب الذي كان"أشدّ تعصبا لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم"(39)ببيعه ضميره للفرنسيس مقابل الحفاظ على منصبه السياسي.

وينتهي شكيب أرسلان إلى الإقرار بحقيقة تحمل الكثير من المرارة لواقع طالما تجاهله المسلمون رغم ما نزل بهم من نوائب،وهو أنّه :"ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلاّ كان نصفه أو قسم منه على أيدي أناس من المسلمين منهم من تجسّس للأجانب على قومه،ومنهم من بثّ لهم الدعاية بين قومه،ومنهم من سلّ لهم السيف في وجه قومه،وأسال في خدمتهم دم قومه"(40).

هذا ولقد دقّ شكيب أرسلان نواقيس الخطر لتنبيه المسلمين للحيلولة دون ضياع أقطارهم وسقوطها في أيدي الأجانب خاصّة،وقد انفصمت عراهم وخيّمت على علاقاتهم المشاحنات والبغضاء والصراعات والخلافات والوشايات والدسائس ولعلّ مقولة الملك فيصل ابن سعود تمثل مصداقا لهذه العلاقات الإسلامية المتوترة:"ما أخشى على المسلمين إلاّ من المسلمين وما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين"(41)

4-الجمـــود على القديـــم

يعتقد شكيب أرسلان أنّ الفئات التي تسعى إلى الإبقاء على الإسلام دون تحويل أو تغيير والحيلولة دون مماشاته لمقتضيات الحضارة العصرية ليست في حقيقتها سوى عدّوة للإسلام،بإساءتها فهم مقاصده الظاهرة والخفية ذلك أنّ "الإسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد وحبّ للماضي القبيح و قطع كلّ العلائق مع غير الحقائق"(42)،وبذلك يدحض شكيب أرسلان نعت الإسلام بالجمود ليقرّ بالمقابل أنّ الإسلام ما كان عامل تخلف المسلمين،ولا سبب انحطاطهم،وإن كان هؤلاء يشكون مثل هذه العلل،فجدير بهم البحث عن أسبابها في ذواتهم بسبب أنّ"الأزمة ليست أزمة الإسلام وإنّما أزمتنا نحن،فقد أستكنا واستسلمنا للعيش الهيّن بل للذلّ أحيانا فلم نجاهد ولم نبذل أرواحا ولا مالا "(43).

وهكذا يكشف شكيب أرسلان عن جوهر أزمة انحطاط العالم الإسلامي وتخلفه،والمتمثلّة أساسا في أزمة وعي المسلمين بمسؤولياتهم في الواقع المعاصر

من حفاظ على تعاليم الدين الإسلامي،والعمل بها،والدفاع عنها من كلّ ما يهدّدها من أخطار،ثمّ جعلها تتماشى والحضارة العصرية.ذلك أنّ التزمّت المفرط،و التعصّب المشطّ ليسا من روح الإسلام في شيء،إذ لم ينصّ الإسلام على الانغلاق بل شجّع على الاجتهاد حتى يتناغم و مستجدات العصر.

ومثل هذا المذهب المغرق في السلفية والرافض لكلّ تفتّح على معالم الحضارة الجديدة لا يمكن أن يساعد إلاّ على تجذير العقلية الإسلامية في عالم الغيب والجنّ والخرافات والدروشة،وبذلك فعوض أن تعي حدود واقعها وما يحفّ به من أخطار في الداخل والخارج نجدها تردّ كلّ ما يحلّ بها من ضرّ و بلاء إلى القضاء و القدر الذي لا يرفعه إلاّ الله.

وينتهي شكيب أرسلان إلى الإقرار بأنّ" المسلم الجامد هو الذي مهّد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية،والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلى به المسلمون لأنّه جعل الإسلام دين آخرة...والجامد هو الذي شهّر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية و الفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجّة أنّها من علوم الكفار فحرم الإسلام ثمرات هذه العلوم وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه و قصّ أجنحتهم"(44).

ويشترط شكيب أرسلان على المسلمين إن أرادوا اللحاق بركب الحضارة العصرية ومواكبته—أن يعصّروا نظرتهم للإسلام وتعاليمه و"أن يرحّبوا بكل جديد لا يعارض العقيدة ولا تخشى منه مفسدة"(45).ولن يتسنّى لهم الانعتاق من التخلّف والانحطاط إلاّ إذا زاوجوا بين الدين الإسلامي والحضارة الغربية المعاصرة.

5- جحود الإســلام

لقد عمدت فئة من المسلمين إلى جحد مزايا الدين الإسلامي بجعله السبب الأصلي لأفول نجم الحضارة الإسلامية ماضيا،وتخلّف المسلمين وانحطاطهم حاضرا،فرات أنّه إن أراد المسلمون استرجاع ما ضيّعوه من حضارة ورقيّ لا بدّ لهم من إبطال العمل بالدين والإقبال على الحضارة الغربية الوسيلة الوحيدة الضامنة لتقدّمهم و ازدهارهم،ويحكم شكيب أرسلان على هذا المذهب بالإلحاد لأنّه يتعارض"وسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كلّ أمّة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوّماتها ومشخّصاتها لغة وعقيدة وعادة وطعاما وشرابا وسكنى وغير ذلك إلاّ ما ثبت ضرره"(46).

ثمّ يقرّ بأنّ الدين الإسلامي راق بذاته،وأنّ القصور لا يكمن فيه بقدر ما يكمن في ذوات المسلمين أنفسهم الذين تستوجب منهم ظروفهم المتردّية مراجعة جذرية لمواقفهم و اختياراتهم الفكرية والسلوكية...

وهكذا فقد أضاع الإسلام حسب شكيب أرسلان جامد وجاحد اعتبارا لأنّ الجمود لا يمكّن المسلمين من الارتقاء إلى مصافّ الحضارة لتقوقعهم على ذواتهم ونعتهم بالكفر كلّ ما هو أجنبي عنهم،وبالإلحاد كلّ من يروم التفتح على ما يجدّ حوله من إبداعات الفكر الإنساني،وكذلك الشأن بالنسبة للإلحاد الكلي الذي ينفي جدوى كلّ قديم،ويدعو للإقبال على كلّ حديث،ذلك أنّه لا يتسنّى لنا إقامة شيء جديد دون تركيزه على أسس متينة تكون ضاربة في القدم،ومتماشية والضروريات المعاصرة.ولكي يتحقق كلّ من التوازن والتكامل الذي يعدّ أساسيا لبناء كلّ نهضة لابدّ للمسلمين من المزاوجة بين القديم الأصيل والحديث المعاصر،إذ أنّ جوهر الحضارة إن هو إلاّ الجمع بين الأصالة والمعاصرة،بين الإسلام بتعاليمه والحضارة بإبداعاتها.غير أنّ ما يغيظ شكيب أرسلان فكرا ووجدانا هو أنّ الأمم الإسلامية المعاصرة لم تبلغ بعد حدّ الوعي الذي يسمح لها بالتمييز بين ضارّها ونافعها،ولم تبلغ درجة النضج التي تؤهلها لتجدّد لعب الدور الذي اضطلع به أسلافها فيما مضى،والذين دانت لهم الممالك و الدول في كلّ الأصقاع.

5-2- مبادئ النهضة الإسلامية في فكر شكيب أرسلان

نعثر على تعريف يحدّد به شكيب أرسلان مفهوم"النهضة"ضمن أحد ردوده على الزعيم التركي مصطفى كمال أتاتورك،وجماعته عند إبطالهم العمل بالشريعة الإسلامية التي نسبوا لها تخلّف المسلمين وانحطاطهم فسعوا إلى إقناع المسلمين بأنّ الوسيلة المثلى لتحقيق النهضة الإسلامية المنشودة تكمن في تقليد الغرب كلية،وأنّ الرجوع إلى تراث السلف والتشبّث به لن يزيدهم إلاّ تقهقرا عن ركب الحضارة الغربية.

وهكذا فلئن كانت النهضة بالنسبة لهم إمّا وطنية أو قومية كما هي نهضة أهل أوروبا أو لا تكون،فإنّ شكيب أرسلان يبرز أنّ "المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أو دينية على شرط أن تتوطن بها النفوس على الخبّ في حلبة العلم"(47)،قد جعلها ترتكز على أسين متلازمين في علاقة جدلية،وهما: الدّين،والعلم الحديث،باعتبار أنّ النهضة الحقيقية في فكر أرسلان هي التي تجمع بين التربية الدينية والتربية العلمية حتّى يتحقق لها التوازن والتكامل

وما يرجى منها للإسلام دينا،وللمسلمين أمّة تسعى إلى استرجاع مجدها الضائع،وحضارتها الآفلة.ويعلّل ضرورة جمع النهضة بين الدين والعلم بقوله "...ولكنّنا نخشى إن جرّدناها(أي النهضة)من دعوة القرآن أن تفضي إلى الإلحاد والإباحة و عبادة الأبدان واتّباع الشهوات مما ضرره يفوت نفعه فلا بدّ لنا من تربية علمية سائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينية و هل يظنّ الناس عندنا في الشرق أنّ نهضة من نهضات أوروبا جرت بدون تربية دينية"(48).

وهكذا فإنّ شكيب أرسلان يقرّ بأنّ درجة الرقيّ التي بلغتها البلاد الأوروبية لم تكن بمعزل عن الديانة المسيحية التي يؤمن بها أقوامها بل تحققت في إطارها وبالتنسيق معها.

ومشروع النهضة الإسلامية الذي حدّد معالمه شكيب أرسلان،وضبط أسسه ومقوّماته إن هو إلاّ ثمرة تفاعل شكيب مع أوضاع العالم الإسلامي المتردّية، وهو المسلم الغيور الذي أضحى نضاله في سبيل نصرة الإسلام ورفعة المسلمين لا وليد عقيدة دينية فحسب بل نتاج منهج فكري وسياسي واضح الحدود،بيّن المراحل،محدّد الأبعاد يعكس اقتناعه بوجوب استنهاض همم بني ملّته وتجديد التأثير في أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن لتنبيه غافلهم وتعليم جاهلهم،وكبت خاملهم،وتنشيط عاملهم استجابة لروح العصر،و ما تقتضيه من تحديات لقيود الماضي وأوضاع الحاضر المتدهورة،و توقا للإبحار نحو مستقبل أفضل.

ويحسن بنا استكشاف أهم الشروط التي شكّلت أسس تصور شكيب أرسلان لمشروع نهضة إسلامية معاصرة قادرة علي الارتقاء بالمسلمين إلى مصاف الشعوب المتحضرة بعد سبات طال في هوى التخلف و الانحطاط.

5-3- شروط النهضة الإسلامية المعاصرة في فكر شكيب أرسلان

1-العودة إلى الكتاب و السنة

يعتبر شكيب أرسلان أن عودة المسلمين إلى العودة بالكتاب والسنة هي قوام النهضة الاسلامية المنشودة في العصر الحاضر،إذ كما توصل المسلمون فيما مضى إلى إدراك أرقى درجات الحضارة بفضل عملهم بتعاليم الكتاب وإقتدائهم بمناهج السنة النبوية يمكن للمسلمين في العصر الحاضر أن ينهجوا نهج أسلافهم في الاحتكام إلى الكتاب و اتباع السنة مع تعصير النظرة لكليهما حتى يتماشيا مع مقتضيات العصر فيتسنى للمسلمين تحقيق ما يطمحون إليه من

رقي وتحضر، و يواصلون ما أقامه أسلافهم من معالم حضارة بإضافة لبنات جديدة تعيد للحضارة العربية الإسلامية إشراقها بعد أفول.

ثم يؤكد شكيب أرسلان أنّ هذه الدعوة إلى الكتاب والسنة هي وحدها الكفيلة بأن تفهم العرب والمسلمين ما يرد عليهم من معالم المدنية الغربية، وما يجب أخذه منها أو تركه، إذ بدلا من إخضاع الإسلام إلى مقاييس الحضارة الغربية يجب على المسلمين جعله المقياس الذي يحكمون به عليها. كلّ ذلك دون شعور بالدونية إزاء العالم المسيحي الذي لا يرى العالم ولا يحكم عليه إلاّ انطلاقا من مبادئ الديانة المسيحية، وتعاليمها التي غالبا ما تكون الفيصل فيما يعرض له من قضايا والموجّه لسياسته في الداخل والخارج، ولهذا فقد كان الإسلام بالنسبة لشكيب أرسلان "أكثر من مجرّد سبيل خلاص فردي أو شخصي وكان أكثر من مجرّد طريق إلى الجنّة، لقد رأى فيه جانبا موضوعيا لا يتوافر في غيره، كان الإسلام حسب شكيب أرسلان إسهاما إنسانيا متقدّما "قادرا على الإسهام في نهوض الشعوب الإسلامية علما و ثقافة و اجتماعا واللحاق بركب العصر وهو أمر تحقق له في أيام العرب والمسلمين الذهبية"(49)

فقد استند شكيب أرسلان على الإسلام كسلاح تتقدّم به الأمّة الإسلامية و لا تعارض أو تناقض بينه و بين الرقيّ.

2- الجهاد بالمال و النفس

إنّ مفتاح كلّ أمر يروم المرء تحقيقه يكمن في الإرادة التي متى وجدت وجد الشيء المراد و بذلك فإنّ جهاد المسلمين بالمال والنفس يمثّل-حسب شكيب أرسلان -مفتاحا أساسيا لنهضتهم المعاصرة، فكما كان أسلافهم لا يتوانون عن بذل المال والتضحية بالنفس في سبيل عزّتهم ومناعتهم وازدهارهم، عليهم أن يتخلّقوا بهذه الخصال ويتخلصوا من الشحّ، والجبن، والقنوط، والاستسلام للانطلاق نحو بناء صرح نهضة إسلامية حديثة آخذة بأسباب التقدّم، وأن يعتبروا انحطاطهم الحاضر كبوة بمقدورهم النهوض بعدها ومواصلة ما شيّده سلفهم...

ويعتبر شكيب أرسلان أنّ "التضحية أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلّمت الأمّة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف، ودنت منها جميع القطوف والمجاني... فلن يتّم للمسلمين ولا لأمّة من الأمم نجاح ولا رقيّ إلاّ بالتضحية "(50).

ولئن ركّز شكيب أرسلان على مبدأ التضحية بالمال والنفس ركنا أساسيا للنهضة الإسلامية المعاصرة فلفقدانه في وجدان مسلمي عصره الذين طغت عليهم الأنانية وحبّ الذات،فشحّوا في بذل النفس والمال دفاعا عن حياض الإسلام وصيانة لديار المسلمين مما مكّن النصارى منهم وأوطانهم لفقدانهم كلّ ثقة بالنفس،وضعف وازعهم الديني.ويكشف شكيب أرسلان عن امتعاضه وحنقه على المسلمين الذين مكنوا النصارى-أعداء الإسلام-من رقابهم وأوطانهم فيتوجّه إليهم-دون أن ينسى نفسه بقوله: "إنّ أولئك رجال ونحن رجال وإنّما الذي يعوزنا الأعمال وإنّما الذي يضرّنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال"(51)

3- الإقبـال على العلـوم العصريـة

لئن بلغت أوروبا أرقى درجات الحضارة في العصر الحاضر فإنّ هذا لم يكن ليتحقّق لها إن لم تستفد من الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها،لذا وجب على المسلمين- وقد سادتهم فترة جمود فعمّهم التخلّف والانحطاط -أن يستفيدوا بدورهم من العلوم العصرية للغرب دون شعور بالدونية ويوظفوا كلّ ذلك لبناء صرحهم الحضاري حتّى ينعتقوا من أوضاع تخلفهم وانحطاطهم ويتحرّروا من استعمارهم،ومظاهر تبعيتهم للغرب الأوروبي،فيضحوا قادرين على الإبداع،والمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية على جانب الأمم المتحضرة الأخرى،بعد بعث الروح في كيان حضارتهم الإسلامية الخالدة من جديد- لهذا كلّه يدعو شكيب أرسلان المسلمين إلى ضرورة"دراسة علوم الغرب وإكتناه عظمته وقوّته وتقدّمه،ونهج مناهجه وسلوك سبله في جميع ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم و أركانه فإنّما هذا هو السبيل الذي لا سبيل إلاّ هو للإفلات من ربقة استعمار الغرب والتحرّر من حكم الفرنجة.

وإنّ المسلمين لا مندوحة لهم من الأخذ عن الغرب واقتباس الأفكار منه وإتباع طريقته في جميع ما هو لا زم و ضروري لبلوغ الغاية العليا...فالإسلام بذاته صالح كلّ الصلاحية لكي يستمدّ منه جميع ما هو لازم لذلك،فلهذا ينبغي أن يقصر الأخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العلمية والاستعانة بوسائله العملية فحسب"(52).

كلّ هذا مع المحافظة على مقوّمات الأصالة الإسلامية،الأمر الذي يوجب على كلّ أمّة إسلامية تروم التحضّر والرقيّ أن تكتسب القدرة على التوفيق في المزاوجة بين أصالتها الحضارية،وما تقتضيه من تمسّك بمقوّمات الذاتية

الفكرية والعقائدية والتراثية. والمعاصرة وما تتطلّبه من انفتاح على الحضارة الحديثة قصد الاستفادة من جوانبها الوضّاءة التي تساهم في دفع عجلة تقدّمها وازدهارها. ذلك أنّ المسلمين"إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها الإفرنج وأنّه ليس هناك فرق في القابلية البشرية. ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التي كانت من أسباب شقائهم زمنا طويلا. وهي أنّ كلّ عمل عمراني في الشرق لا بدّ من أن يستعار له شركة أوروبية لتقوم به و إلاّ فلا..." (53). ويردّ شكيب أرسلان على المسلمين الذين يعتذرون بجهلهم عن الإقبال على هذه العلوم العصرية. ومعرفة الوجوه التي تصلح لها و الاحتياجات التي تلبّيها بقوله: "ليس من الضروري أن يكون صاحب الحاجة عالما بعملها حتّى يكون عالما بالاحتياج إليها .."(54)

، ثمّ يختم بإبراز أنّ استيعاب هذه العلوم الحديثة و الاستفادة منها يتوقّف على مدى استعداد المسلمين وجدانيا و فكريا و عمليا على تقبلّها وتجسيدها في الواقع و يتخذّ بلد اليابان نموذجا على المسلمين النهج على منواله حيث يقول: "أفلا ترى اليابان إلى حدّ سنة 1868 كانوا أمّة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة فلمّا أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الأوروبيين وصنعوا صناعتهم و اتسق لهم ذلك في 50 سنة"(55).

إنّ أهميّة مشروع النهضة هذا الذي حدّد معالمه و أبعاده شكيب أرسلان تكمن في أنّه جاء بعد سبر عميق للأسباب التي كانت وراء تخلّف المسلمين سواء في الزمن الماضي أو الحاضر. ومن هنا فإنّ هذا البديل الذي يطرحه شكيب أرسلان على المسلمين للارتقاء إلى مصاف الحضارة قد توفرت له المعطيات الضرورية التي من شأنها أن تكسبه أوفر الحظوظ كي يتجسّد في الواقع لا أن يبقى مجرّد مخطّط نظري عسير التنفيذ. فشكيب أرسلان ينفرد عن العديد من المصلحين بجمعه بين التنظير والممارسة. الهدم والبناء ممّا أضفى على فكره سمتين أساسيتين: الواقعية و الموضوعية.

هذا، ولئن استشعر البعض من خلال استقراء الأسس التي أقام عليها شكيب أرسلان مشروع النهضة الإسلامية المعاصرة، أصداء الدعوات الإسلامية الإصلاحية التي ظهرت في القرن التاسع وبداية القرن العشرين عن طريق الشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما، فلا يمكننا أن ننكر تأثّر شكيب بتعاليم الفكر الإصلاحي لهؤلاء الذين كانوا يرومون تحقيق المجتمع

الإسلامي الراقي المتحضّر بالاعتماد على الإسلام غير أنّنا نقرّ بأنّ شكيب لم يقتصر في مشروع النهضة الإسلامية الذي رسم معالمه وحدّد سبله على ترديد المبادئ التي تلقاها بل نجده أثراها بعديد الإضافات التي استمدّها من مطالعاته الغزيرة لمنجزات الفكر الغربي.ومن مراسه العملي للقضايا الإسلامية المعاصرة التي قصر حياته مناضلا في سبيلها.و بذلك تكمن طرافة مشروع النهضة الإسلامية الذي ارتآه في أنّه يجمع بين التجذّر في الأصالة الإسلامية والإقبال على التحديث الغربي.فيكون شكيب أرسلانقد حقّق المعادلة الحضارية بين العراقة و الحداثة.

الهوامـــــش

1) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص283
2) نفس المصدر، الجزء الأول، ص309
3) نفس المصدر: ص309
4) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، مجلّة: "الفكر العربي" العدد 22، السنة الثانية، أكتوبر 1981 ص525
5) التنوخي، عزالدين: مجلّة المجمع العلمي العربي- المجلّد 15- ص 318
6) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص 520
7) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص214
8) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص 290
9) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 214
10) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص 535
11) نفس المرجع: ص 535-536
12) نفس المرجع: ص 522
13) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ...ص210
14) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 36
15) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص 536
16) نفس المرجع: ص 536
17) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص130، نقلا عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة: "الشورى" بتاريخ 13 أغسطس 1930
18) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص288.
19) نفس المصدر: ص 288
20) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص 124، نقلا عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة: "الشورى" بتاريخ 26 نوفمبر 1925
21) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص 287-288
22) نفس المصدر: الجزء الأول ص 319-320
23) نفس المصدر: الجزء الأول ص 288

24) نفس المصدر: الجزء الأول ص 289
25) نفس المصدر: الجزء الأول ص 289
26) أرسلان، شكيب: مختارات من الأمير شكيب أرسلان ص29.
27) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص294.
28) أرسلان، شكيب: السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، دمشق، مطبعة ابن زيدون، 1937 ص584.
29) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، ص 312.
30) نفس المصدر، ج1- ص 288
31) أرسلان، شكيب: لماذا تأخّر المسلمون و لماذا تقدّم غيرهم، بيروت، دار مكتبة الحياة، الطبعة 4، ص16.
32) نفس المصدر، ص 77
33) نفس المصدر، ص 77
34) نفس المصدر، ص 141
35) نفس المصدر، ص 142، 143
36) نفس المصدر، ص 81
37) نفس المصدر، ص 81
38) نفس المصدر، ص 60
39) نفس المصدر، ص 62
40) نفس المصدر، ص 67
41) نفس المصدر، ص 67
42) نفس المصدر، ص 113
43) نفس المصدر، ص 104
44) نفس المصدر، ص 95-96
45) نفس المصدر، ص 108
46) نفس المصدر، ص 88
47) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 126
48) نفس المرجع، ص 126، عن مقال لشكيب أرسلان نشره بمجلّة "الفتح"، بتاريخ 17 رمضان 1369هـ.
49) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص 535-536
50) أرسلان، شكيب: لماذا تأخّر المسلمون و لماذا تقدّم غيرهم. ص 103.

51) نفس المصدر.ص 16
52) أرسلان. شكيب: حاضر العالم الإسلامي.ج1–ص 294
53) أرسلان. شكيب: لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم،ص144.
54) نفس المصدر.ص 164
55) نفس المصدر.ص79

الباب الثاني

علاقات شكيب أرسلان بأعلام الأدب والفكر في عصره

الفصـــــل الأول

شكيب أرســــــلان
في ظلّ"أبوّة"محمد عبده

إنّ العلاقة التي جمعت بين الأمير شكيب أرسلان والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده–أحد أقطاب حركة النهضة والإصلاح خلال القرن التاسع عشر– ليست من صنف تلك العلاقات العارضة بل كانت من العمق والقوّة بالقدر الذي سمح لها أن تتواصل ما يقارب الربع قرن،من سنة 1882 التي سمع فيها شكيب أرسلان لأوّل مرّة بالأستاذ الإمام غداة محاكمته من قبل السلطات الأنغليزية التي قرّرت نفيه خارج مصر،عقب فشل الثورة العرابية. إلى حدود سنة 1905 التي شهدت وفاة الأستاذ الإمام بعد حياة خصبة ميّزتها حركيته الفكرية و نضاله السياسي.

إنّ عشرة مديدة كهذه لجديرة –دون سواها–بجعل الأستاذ الإمام في طليعة الشيوخ الذين سهروا على تكوين شخصية شكيب أرسلان الحدث المتحفز للعلم والمعرفة،فكرا ثقافيا–دينيا وسياسة نظرية–عملية،خاصة وقد كان شكيب شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام لواسع علمه،وغزير معرفته،وفصاحة أسلوب إنشائه،وواقعية منهجه الإصلاحي: معالم وأبعادا،وفاعلية نضاله السياسي في مقاومة الاستعمار فاتّخذه قدوة يترسّم معالمها في إخصاب فكره وبلورة مقوّماته،وتحديد أبعاده،ومنارا يهتدي بسداد مبادئ منهجه السياسي في النضال ضدّ الاستعمار الأوروبي قصد تحرير أقطار البلاد العربية الإسلامية من نفوذه.

كلّ هذا يجعل البحث في ملابسات نشأة هذه العلاقة،وما شهدته من أطوار،وما طبعت به شخصية شكيب أرسلان من آثار فكرية،سياسية،مسألة أساسية تكشف عديد الجوانب الخفيّة من شخصية شكيب أرسلان المفكر و السياسي لم يتوصّل الدارسون إلى إدراكها.

1– ملابســـات نشـأة العلاقــة

لمّا عزم الأستاذ الإمام على مغادرة منفاه بباريس في غضون سنة 1885،

اختار أنِ تكون لبنان مقصده.وإحدى بيوتات ضواحي بيروت دارا لإقامته عساه يوفق إلى العزلة أملا في تقييم ما وصل إليه جهاده الديني،وإصلاحه الاجتماعي،ونضاله السياسي،ولكن لم تمض مدّة وجيزة على استقراره ببيروت حتّى تحوّل بيته إلى منتدى متنوّع النشاط،وافر الحركية،تؤّمه الفئات المتنوّرة من كلّ الملل والنحل،وتلتئم في أرجائه المجالس العلمية،وتنعقد في رحابه المناظرات الفقهية،ويجتمع في فنائه الأدباء والشعراء يتنافسون.

ولقد ذاع صيت أخبار مجالس الأستاذ الإمام فتضاعف شوق شكيب أرسلان إلى الالتقاء به والتلقي عنه خاصّة وقد كان يكنّ له كلّ إعجاب وتقدير.

وقد تسنّى لشكيب التعرّف إلى الأستاذ الإمام أثناء حفل أقامته الكلّية الأمريكية ببيروت بواسطة أحد الأعيان الشيخ عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة"ثمرات الفنون" الذي كان صديقا للأستاذ الإمام،وفي الآن نفسه لشكيب أرسلان،الذي يصف لقاء تعارفه هذا بالأستاذ الإمام بقوله:"... وسلّمت عليه فظهر لي أنّه كان يعرف اسمي لأنّي أنا لذلك العهد كنت أنظم وأنثر وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد،فأتذكر أنّه قال لي: أنت ستكون من أحسن الشعراء."(1)

وهكذا فقد كان كلّ منهما على معرفة بالآخر منذ زمن،ولكن عن بعد،إذ كما كما كان شكيب يتتّبع أخبار الأستاذ الإمام من خلال ما كان ينشر له من مقالات بالصحف،فإنّ الأستاذ الإمام كان بدوره عارفا لشكيب أرسلان-رغم حداثة سنّه-من خلال مطالعته لما كانت تنشره له الصحف من أشعار.

ولمّا تحوّل هذا التعارف المنشود إلى واقع مجسّد فإنّ شكيب سيسعى إلى الاستفادة من هذه العلاقة التي أضحت تجمعه بالأستاذ الإمام،و ستشهد عديد الأطوار لكلّ منها خصائصه النوعية المميّزة و إن كانت متكاملة في جوهرها.

2- أطـوار علاقة شكيب بالأستاذ الإمـام

شهدت علاقة شكيب أرسلان بالأستاذ الإمام أثناء إقامته هذا الأخير ببيروت ثلاثة أطوار رئيسية متكاملة فيما بينها إذ كلّها تلتقي عند استفادة شكيب من علوم الأستاذ الإمام ومعارفه،التي ستساهم بقسط وافر في تكوين فكر شكيب الثقافي و الديني و إثرائه،فضلا عن بلورة مقوّمات سياسته و مقاصدها.

2-1- تلقي شكيب عن الأستاذ الإمام بالمدرسة السلطانية

دعي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في غضون سنة 1886 للتدريس بالمدرسة السلطانية ببيروت-التي كان يؤّمها أبناء المسلمين-لإحياء اللغة

العربية والدين الإسلامي بها. فلبّى الشيخ هذه الدعوة. خاصّة وأنّ مناهج التدريس بهذه المدرسة كانت تشكو الكثير من النقائص ومقتصرة على تدريس النحو والصرف وبعض أحكام العبادات. فأدخل عليها الشيخ نفسا جديدا بأن أصلح إدارتها وضبط برنامجا جديدا لمواد التدريس بها تماشيا وروح العصر. فزاد في علوم التوحيد ومعاملات الفقه والتاريخ الإسلامي والمنطق وعلم المعاني والإنشاء وتجشّم تدريسها بنفسه من وضح النهار إلى الغروب دون ملل ولا كلل.

وصادف أن كان شكيب من طلبة هذه المدرسة فتسنّى له حضور دروس الأستاذ الإمام. فقرأ عليه مجلة الأحكام العدلية. واستفاد من أماليه في مختلف علوم اللغة العربية وآدابها. فنمت معارفه. وتشكلت ذائقته الأدبية. وصقلت مواهبه بفضل ما كان يكلفه به الشيخ من إنشاء. وحفظ أقسام من"نهج البلاغة " وديوان" الحماسة" لأبي تمام.

كلّ هذا ينضاف إلى تأثره البليغ بفنّ خطابته الارتجالية وحضور بديهته اللتين لم يعهدهما في غيره من الأساتذة.

ولما توطدت أواصر علاقتهما لم يعد شكيب يكتفي بالتلقّي عن الأستاذ الإمام في فصول المدرسة السلطانية بل فضّل ملازمته في مجالسه.

2-2- شكيب أرسلان مريد الأستاذ الإمام

لم يتمالك شكيب أرسلان نفسه -وقد بلغته أصداء مجالس الأستاذ الإمام- من أن يرتادها ليواصل تلقّيه عن الأستاذ الإمام خاصّة وقد عظم إعجابه به. وعلت منزلته لديه حتّى اتّخذ منه قدوة. ومن علومه ومعارفه نبراسا يسير على هديه. وبذلك فقد أصبح لا يتخلّف عن مجالس الشيخ أينما كانت. مما سمح لثقافته أن تتسّع. ولوعيه أنّ يتعمّق. ولنضجه أن يكتمل لما كان يثار في تلك المجالس من قضايا متنوّعة يتشعّب فيها القول ويطول النقاش.

فقد"...كان الشيخ يرسل في مجالسه ما تلقاه على يد جمال الدين الأفغاني من سعي إلى الإصلاح وحبّ للإسلام وذود عن كرامته وتأليف فيه و عمل له. وكان لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمّة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية على سبيل الثقافة والعلم في وعي صحيح. وفهم عميق لا يسير على تقليد الغرب تقليدا أعمى. وإنّما يسعى إلي تربية العقول والنفوس وقد حثّ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة وحمل على المفاسد ونقد الرشوة ودعا إلى الاقتصاد وحبّب إلى إخوانه قراءة الكتب العربية والغربية

المعرّبة في مختلف فروع الفلسفة والتصوّف والتاريخ و الاجتماع والسياسة.كما أوحى إليه السيّد جمال الدين الأفغاني.وتحدّث الإمام عن ابن خلدون فأفاض عن مقدّمته وشهد بما لها من محاسن عجيبة في فهم الاجتماع و التاريخ.و بيّن ما فيها من أسباب تقدّم الأمم و اضمحلالها."(2)

وكان شكيب يشهد كلّ هذه المجالس.ويتابع كلّ ما يجدّ فيها من قضايا ومجادلات كان الأستاذ الإمام يسهب فيها القول ويعمّق التعليل بالحجّة والبرهان،فوجد شكيب في هذه المسائل ما حفزه على التفاعل معها وتبنّيها والدفاع عنها.

ويصوّر لنا شكيب أرسلان سمات المرحلة التي صار فيها أحد مريدي الشيخ في قوله:"...لازمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطري واستخفت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي.ووجدت فيه الضالة التي كنت أنشدها.والبغية التي كنت أبحث عنها و لا أجدها"(3)

2-3- صداقة الأستاذ الإمام للعائلة الأرسلانية

لم تقف علاقة شكيب أرسلان بالأستاذ الإمام عند الحدود الذاتية الضيّقة بل تجاوزتها لتشمل العائلة الأرسلانية بصفة عامّة ووالده على وجه أخصّ والذي تعرّف إلى الأستاذ الإمام فانعقدت بينهما مودّة متينة قوّت من أواصرها الزيارات المتبادلة التي كان يقوم بها الأستاذ الإمام للبيت الأرسلاني بقرية الشويفات،والتي كان يردّ عليها كلّ من شكيب وأخيه نسيب ووالدهما إلى بيت الشيخ ببيروت،ويصوّر شكيب متانة العلاقة التي أضحت تجمع الأستاذ الإمام بعائلته في قوله:"...وزارنا الشيخ الإمام في منزلنا بالجبل وتعرّف إلى والدي رحمه الله،وسرّ والدي كثيرا بمعرفته و قدّره قدره وصار لا ينزل من الجبل إلى بيروت إلاّ ليزوره وكان الشيخ أيضا يجلّ والدي كثيرا وقال للأستاذ الشرتوني عنه:إنّه أعقل من رأيت من أمراء الجبل"(4).

وصفوة القول أنّ تلقي شكيب أرسلان عن الأستاذ الإمام بالمدرسة السلطانية وملازمته له في مجالسه العلمية والأدبية والفقهية وهذه الصداقة التي جمعت والده بالأستاذ الإمام قد بوأت هذا الأخير مكانة مرموقة في نفس شكيب أرسلان والذي كلّما تحدّث عن الأستاذ الإمام إلاّ وأثنى عليه وأطراه لشدّة إعجابه به وعمق احترامه له وبالغ تأثّره به.وهي المنزلة الرفيعة التي أكّدها في قوله:"...أستاذنا فريد عصره.ووحيد عصره،حجّة الإسلام(5)رأينا فيه عالما لا كالعلماء الذين تعدّهم بل عالما جمع العلوم العقلية و النقلية إلى الأمد

الأقصى، ونظر إلى جميع الأشياء نظرة الفيلسوف الذي نظره يعلو على الأنظار المعتاد(6)...أحد أفذاذ الشرق الذي قلما جاد بهم الدهر وواسطة عقد المصلحين المجدّدين في هذا العصر..ولقد كان جامعا بين العلم والعمل، فلا تجد ما يساوي فضله وبلاغته وثقوب أفكاره.وقوّة ملكته في الفلسفة سوى علوّ مبادئه و بعد همته، و غزارة مروءته، وطهارة أخلاقه، وهيهات أن يأتي الزمان بمثله.' (7)

هذه حقيقة المنزلة التي يشغلّها الأستاذ الإمام في نفس تلميذه ومريده وابنه الروحي شكيب أرسلان، وقد دعمّتها المراسلات المتبادلة المنتظمة التي تلت عودة الأستاذ الإمام إلى وطنه مصر بعْد أن أصدر الخديوي قرارا في شأنها. وهي مراسلات تعكس عمق التناغم الفكري والروحي بينهما، والذي يكشف عنه الأستاذ الإمام في تصديره لرسائله إلى شكيب، حيث يخاطبه بالصيغ التالية: "ابني الفاضل"، "ابني الحبيب"، "ابني البار"وبالمقابل فقد لقيت هذه الصيغ أطيب الأثر في وجدان شكيب الذي غمرته عواطف أبوه الشيخ من نصح وتربية وتوجيه، يصوّرها بقوله: "...وكان في غالب الأحيان يبصرني عيوبي وينبهني إلى تلافي قصوري، شأن الأب مع أبنائه"(8).

ولا شكّ أنّ هذا العمق الذي بلغته هذه العلاقة، قد ترك بالغ الأثر في شخصية شكيب أرسلان فكرا ثقافيا ودينيا وسياسة نظرية وعملية.

3- أثر الأستاذ الإمام في فكر شكيب أرسلان و سياسته

لقد كان لتلقّي شكيب أرسلان العلوم والمعارف المختلفة عن الأستاذ الإمام في حلقات الدرس بالمدرسة السلطانية وملازمته له بالمجالس العلمية والأدبية والدينية التي كانت تنعقد في بيته أو في بيوتات بعض أعيان بيروت وفضلائها من العلماء والفقهاء، والأدباء ومراسلاته الخصبة والمنتظمة معه عند مغادرته بيروت عائدا إلى مصر بعد صدور قرار عفو عنه الأثر العميق في تكوين شخصية شكيب أرسلان، وتحديد معالمها، وإبراز مقوّماتها، وضبط أهدافها.ويبدو لنا هذا الأثر جليّا في الميدانين الثقافي و الديني و الحقل السياسي.

3-1- الأثر الثقافي

اضطلع الأستاذ الإمام بدور أساسي في تكوين فكر شكيب أرسلان الثقافي وبلورة معالمه، وتحديد اتجاهاته، وضبط أبعاده، وإكسابه سمة التنوّع والتفرّد بين معاصريه.

فقد كان الأستاذ الإمام واسع الثقافة، عميق الإطلاع على نفائس التراث

العربي الإسلامي القديم في مختلف المجالات،شديد الإعجاب بها،و الغيرة عليها الأمر الذي جعله يترسّم القدماء في بلاغتهم،و فصاحة كلمهم،و سلاسة خطابتهم،ساعيا- في الآن نفسه- إلى غرس هذه البذور في ناشئته الذين كان شكيب أرسلان من ضمنهم-من خلال ما كان يمليه عليهم من" نهج البلاغة" للزمخشري،وألفية ابن مالك،وديوان الحماسة لأبي تمام...ولقد تأثر شكيب أرسلان بذائقة أستاذه الأدبية واللغوية المتجذّرة في القدم،فأقبل على مطالعة دواوين فحول الشعر،وأعلام النثر العربي القديم،وحفظ ما تيسّر له من مضانها.

وفي هذه الأثناء،كان الأستاذ الإمام في بيروت يشرح الكتب القديمة و يعلّق عليها مبرزا قيمتها حافزا نشأه على إثارة دفائن كنوز التراث العربي القديم وإحيائه وتجديد النظرة إليه حتّى يساهم بقسطه في رقي الأمّة العربية- الإسلامية الحضاري في العصر الحديث،وقد لقيت هذه الدعوة صداها في نفس شكيب أرسلان وفكره،بإقباله على النبش عن كنوز التراث العربي القديم أينما كانت وإحيائها مجدّدا حتّى تكون حلقة الوصل بين ما أدركه الأسلاف من شأو حضاري،وبين ما يستوجب على الخلف أن يواصلوه لإكمال مسيرة العرب والمسلمين الحضارية،فقام بتحقيق أثر" الدرّة اليتيمة"للأديب عبد الله بن المقفع و كذلك رسائل إبراهيم ابن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني المعروف بأبي إسحاق الصابي (313-384هـ) فشرحها،وعلّق عليها بحواش ثرية بعد أن صدّرها بمدخل هامّ تناول فيه حياة صاحبها،والعوامل التي حفزته على اختيار تحقيق هذه الرسائل و أهمية هذه الأخيرة في الفكر العربي.

وفضلا عن تحقيقه هذين الأثرين فقد قام بتحقيق أثر ثالث بعنوان "محاسن المساعي في مناقب أبى عمرو الأوزاعي."

هذا،ولمّا كان الأستاذ الامام معجبا بمقدّمة المؤرخ العلاّمة عبد الرحمان ابن خلدون فقد بادر شكيب ارسلان إلى القيام بتحقيق تاريخ ابن خلدون و التعليق عليه بحواش ضافية أنارت الكثير من غوامض أحداثه وكشفت قيمة أفكاره ومواطن ريادته بعد أن ظلّ مجهولا من طرف العرب وغيرهم من الغربيين الذين لم يتفطنوا إلى أهميته إلاّ في وقت متأخر.

وقد ساهم الأستاذ الإمام بفعالية في توجيه شكيب أرسلان إلى مطالعة ما كان ينظمه بعض الشعراء المعاصرين الذين كانت تربطهم بالشيخ أواصر صداقة ومودّة،أمثال الشاعر محمود سامي البارودي الذي يفضله الشيخ على جميع

معاصريه من الشعراء و يقرنه إلى كبار المتقدّمين"(9).و يعترف شكيب أرسلان بفضل شيخه عليه في تعريفه بهذا الشاعر الفحل وحثّه علي النظر في شعره بقوله: "....وهو الذي دلنا على شعره وعرّفنا بمقامه وأطلعنا على"الوسيلة الأدبية "للمرصفي.فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي البارودي.

و كان محمود سامي من أحبّ الناس إلى قلب الشيخ فلم أعلم أنّه كان يذكر أحدا من أقرانه بعاطفة حبّ كما كان يذكر محمود سامي-رحمه الله-وكان يتأوّه على غربته و نكبته مالا يتأوّهه علي أحد"(10).

وفعلا فقد أقبل شكيب أرسلان على الإطلاع على أشعار محمود سامي البارودي التي صار يستشهد ببعضها في كتاباته لطيّب الصدى الذي أحدثته في نفسه،وعلى غير معرفة سابقة بصاحبها إلى أن انعقدت بينه و بين صاحبها أواصر مودّة صادقة من خلال مراسلات شعرية منتظمة تبادلا فيها القريض.

ويعود الفضل كذلك إلى الأستاذ الإمام في توجيه شكيب أرسلان إلى الإطلاع على أشعار صديقه عبد لله فكري باشا،والذي كان شديد الحبّ له،قريبا من نفسه..."لا يفتأ يذكر محامده ومتانة دينه ورقة أخلاقه..."(11).فانكب شكيب أرسلان على النظر في أشعار عبد لله فكري التي أعجب بها هي الأخرى.وجمعته بناظمها ألفة ومودّة جسمتها مساجلات شعرية جدّت بينهما وتبادلا فيها القريض.

وهكذا فقد كان الأستاذ الإمام المساهم بدور هام في تكوين فكر شكيب أرسلان الثقافي،والصاقل لأذواقه الأدبية والفنية،والمشجّع لمواهبه.ولعلّه كان هو السبب في تحوّل شكيب عن الشعر إلى النثر.

2-3 – الأثـر الديــني

قام الأستاذ الإمام بدور أساسي في صياغة معالم فكر شكيب أرسلان الديني وتشكيل مقوّماته،وتوجيهه الوجهة الإسلامية،وذلك لاعتقاده الراسخ في قدرة الإسلام على تحقيق نهضة المسلمين في العصر الحاضر إن قاموا بتعصير النظرة إليه والعودة إلى العمل بمبادئه وتعاليمه مثلما كان شأن أسلافهم الذين بلغوا بفضله أرقي درجات التحضّر،وما الانحطاط الذي على المسلمين في العصر الحديث إلا نتيجة تخليهم عن تعاليم الإسلام وأحكامه مما يسّر تسلط الدول النصرانية -التي سادها أسلافهم -على ربوعهم فعرفوا ذل الاستعباد بعد عزّ السيادة كما يعتقد الأستاذ الإمام أنّه لن يتسنّى للمسلمين أن يرسوا دعائم

نهضة عصرية متكاملة إلاّ بالتوفيق بين مقوّمات أصالتهم الدينية والحضارية وبين إبداعات الحضارة الغربية التي تقتضيها حياتهم العصرية.

ولقد لاقت هذه المبادئ الدينية- الإصلاحية التي استقاها الشيخ محمد عبده من أستاذه جمال الدين الأفغاني أعمق الأثر في فكر شكيب أرسلان الذي كان متهيئا لتقبلها،فعمد بعد أن حصل له الاقتناع بمصداقيتها وفاعليتها في تغيير الواقع العربي-الإسلامي المعاصر إلى تبنّيها، فمثل بذلك امتدادا لمنهج أستاذه الديني- الإصلاحي.ويكشف شكيب عن أثر تعاليم هذا المنهج في نفسه وفكره بقوله: "...ورأيت في فهمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالإسلام بعد أن آل إلى هذه الحال،وأن يقيل عثاره بعد أن ظنّ ضعفاء العقول أنّ عثرته لا تقال."(12)

وهكذا فقد كان فكر الأستاذ الديني ومنهجه الإصلاحي معلم تحوّل بارز أنزل الأمير الناشئ من عالم الخيال الشعري والأحلام المثالية إلى واقع العرب والمسلمين قصد الوقوف على حقيقة أوضاعهم المنهارة والسعي لإصلاحها بالارتفاع بهم من هوى التخلّف إلى مصاف الحضارة،وردّ أخطار زحف الحملات التبشيرية التنصيرية على ربوعهم المسلمة.

وبذلك أضحت أحوال الأمّة الإسلامية المنهارة شاغلا أساسيا في فكر شكيب أرسلان الذي صار يستقرئ الوسائل الكفيلة برفع مستوى هذه الأمّة و النهوض بها نهضة متكاملة تتزاوج فيها مقوّمات الأصالة و مستجدّات المعاصرة.

ولم يقف التزام شكيب أرسلان بمنهج أستاذه الإصلاحي عند حدود النظرية بل قام بصياغته في كتاباته،وخاصّة في أثره"لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم"والذي يعكس في جوهره المحور الذي تدور حوله مبادئ منهج أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده وتعاليم أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني اللذين تتبّعا معا علل تقهقر الأميّة الإسلامية،فسعيا إلى معالجة أوضاعها، وبذلك فقد ترسّم شكيب منهجهما الإصلاحي،بالإضافة إلى أخذ نفسه بالدفاع عن الدين الإسلامي وتنزيهه عن الشوائب والشبهات التي يسعى أعداؤه من النصارى إلصاقها به،حطّا من أدواره الحضارية،وإضعافا لإيمان أهله به بإقناعهم بعجزه عن مماشاة أحوال العصر الحاضر.

ولقد صاغ شكيب أرسلان ردوده على كلّ هذه الأراجيف والتهم المبيّتة عبر ما كان يحرّره من مقالات صحفية بعدد من الصحف والمجلات العربية،أو من خلال خطبه بالمحافل الدولية والهيئات الرسمية،أو بعض كتبه التي تخصّ

بالذكر منها المعلمة التاريخية الحضارية "حاضر العالم الإسلامي"التي كانت تعاليقه وحواشيه فيها مستوفية لهذا الغرض.

وفضلا عن كلّ ما تقدّم، فقد برز تأثّر شكيب الواضح بفكر أستاذه الديني من خلال موقفه المناصر للخلافة الإسلامية التي يعتبرها أستاذه الذائدة عن ديار الإسلام،والحاملة للواء الدين الحنيف وألاّ مجد لأمم الإسلام إلاّ بموالاتها والانضواء تحت لوائها والطاعة لخليفتها،ولقد بادل شكيب أستاذه هذا الولاء للخلافة العثمانية فالتزم بمناصرتها والدفاع عنها والدعوة إليها لسانا وقلما وسنانا،لجمعها شتات الأمّة الإسلامية وتجسيدها قوّة يخشاها الغرب الطامع في اقتسام الأقطار العربية–الإسلامية.ولهذا كان دائب التحذير للعرب والمسلمين من مغبة الانفصال عن سلطتها.

ثمّ إنّه لم يقف عند مناصرة الخلافة العثمانية قولا و كتابة بل تجاوز كلّ ذلك للتجسيد الفعلي لإيمانه بشرعية وجودها ومصداقية أدوارها التاريخية ماضيا وحاضرا بتوجهّه إلى جبهة القتال بالجبل الأخضر بدرنة مباشرة عند غزو الطليان لطرابلس الغرب. التي تمثّل أحد أقطار هذه الخلافة،اعتقادا منه أنّ التعدّي على أحد أجزائها هو تعدّ على حدودها ومسّ من كرامتها ونيل من استقلالها الجغرافي و السياسي.

وكان شكيب أرسلان إلى جانب القوّاد العثمانيين عند اندلاع الحرب البلقانية بين الخلافة العثمانية والدول البلقانية الأربع،خوفا من أن تضيع الأقاليم الإسلامية فتسقط تحت سيطرة النصارى المتربصين بها للانقضاض عليها و بسط نفوذهم على ربوعها.

وهكذا فقد وفق الأستاذ الإمام إلى أبعد حدّ في أن يثير في نفس تلميذه شكيب أرسلان كلّ هذا الحبّ العظيم للعالم الإسلامي،وأن يحفزه على إصلاحه قصد تجديد عهود نهضته ووصل ما انبتّ من حضارته الآفلة،و بذلك فإنّ فكر شكيب ارسلان الديني إن هو فلاّ ثمرة تعاليم أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده وامتدادا لنهجه الديني في إصلاح أوضاع الأمّة الإسلامية المتردّية في العصر الحديث.

3-3- الأثــر السيـــاسي

منذ غزو الأنغليز لمصر،لم يفتأ الأستاذ الإمام يبدي مناهضته لوجوده انطلاقا من وعي سياسي ناضج سمح له باستقراء وخيم العواقب وشديد الويلات التي ستصيب فئات المجتمع المصري التي تعاني التخلف في شتّى

أشكاله والانحطاط في أجلى مظاهره،فانتصب بحكم واسع ثقافته وحدّة وعيه بواقع وطنه المتخلف المستعمر،يوعي الشعب المصري و يرشده إلى سبل رقيّه وتحرّره مستنهضا همم أفراده حتّى يتحفزّوا لتحقيق هذه الغاية المزدوجة.ثمّ كانت مساهمته الفعّالة في ثورة الزعيم أحمد عرابي باشا التي عرف إثرها النفي والإبعاد اللذين لم يفلا في إرادته،حيث واصل نضاله في سبيل استقلال مصر من جهة،و بقية الأقطار العربية الإسلامية من جهة ثانية منددا بسياسة الدول الأوروبية في ربوعها.

ولقد أعجب شكيب أرسلان الشاب،المتقد طموحا وحماسا بمظاهر نضال الأستاذ الإمام السياسي وأبعاده في سبيل قضايا تحرّر البلاد العربية – الإسلامية واستقلالها،ومناهضة الدول الاستعمارية الغازية لها والمستنزفة لطاقاتها الطبيعية والبشرية فاتّبع منهجه السياسي بعد إقناعه بالمبادئ التي يقوم عليها والأهداف التي يرمي إلى تحقيقها. وهو المنهج الذي لا يعرف الخضوع ولا الاستسلام ولا المزايدة مهما تكن الاغراءات،فبادر إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي بوطنه لبنان،ثمّ عند نفي السلطات الفرنسية له أبى إلاّ أن يواصل هذا النضال لا ضدّ فرنسا فحسب بل وكذلك الدول الأوروبية المحتلة للأقطار العربية–الإسلامية بشتّى الأشكال والوسائل عبر الكتابة الصحفية، و الخطابة في المؤتمرات الدولية،والاتصال بالهيئات الرسمية لشرح قضايا أقطار أمتّه العربية الإسلامية المستعمرة أو حتّى من خلال التطوّع لمحاربة المحتل الأجنبي في جبهة القتال كما كان الشأن عند توجهه للجبهة الليبية محاربا الطليان الغاصبين.

وصفوة القول فقد ساهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده،مساهمة فعاّلة في تكوين فكر شكيب أرسلان الثقافي وتحديد معالم فكره الديني وتوجيهه الوجهة الإسلامية وتشكيل سبل مذهبه السياسي وضبط مقاصده وأهدافه،فكان له نعم العالم المفيد وخير المسلم المرشد،ورمز السياسي الصامد،وبذلك فإنّ شكيب أرسلان المفكر والسياسي إن هو إلاّ امتداد لشخصية الأستاذ الإمام الفكرية والسياسية.

الهوامــــش

1) رضا. محمد رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام. الجزء الأول. ص400
2) الدهّان. سامي: شكيب أرسلان. حياته و آثاره؛ ص314.
3) أرسلان. شكيب: حاضر العالم الإسلامي. الجزء الأول؛ ص283
4) رضا. محمد رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام. الجزء الثالث، ص402، وكذلك: سيرة ذاتية لشكيب أرسلان. ص30
5) أرسلان. شكيب: حاضر العالم الإسلامي. الجزء الأول، ص283
6) أرسلان. شكيب: . سيرة ذاتية. ص30
7) أرسلان. شكيب: حاضر العالم الإسلامي. الجزء الأول. ص283
8) رضا. محمد رشيد: تاريخ الاستاذ الإمام. الجزء الأول. ص408
9) نفس المرجع. الجزء الأول. ص410
10) نفس المرجع
11) نفس المرجع
12) أرسلان. شكيب: حاضر العالم الإسلامي. الجزء الأول، ص283

الفصـــل الثاني

بين شكيب أرسلان
و الشيخ جمال الدين الأفغاني

شكيب أرسـلان: أفغاني هذا العصر وواحد هذا الدهر لقد تشابه الرجـلان العظيمان واستويا على صعيد واحد من العظمة و النبوغ".

مجلّة المجمع العلمي العربي.
المجلّد 33. ص474

انعقدت بين السيّد جمال الدين الأفغاني، داعية الإسلام، وموقظ الشرق الأعظم دينيا وسياسيا، والأمير شكيب أرسلان أواصر صداقة متينة، شهدت بداية انبثاقها في غضون سنة 1885، عندما كان شكيب أرسلان، فتى طموحا يتلقى العلم والمعرفة بمدرسة الحكمة ببيروت، حيث قرأ في مجلّة "الطبيب" التي كان ينشرها الشيخ إبراهيم اليازجي والدكتوران بشارة زلزل وخليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها "العروة الوثقى" بقلم السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده وبذلك حصل له أوّل سماع بفضيلة الشيخ جمال الدين الأفغاني مجدد الفكر الإسلامي الحديث ورائد النضال السياسي في العالم الإسلامي مناهضة للاستعمار، ودرءا لأخطاره على أقطار الأمّة الإسلامية التي ما فتئ يحذّرها من أطماع الدول الاستعمارية ونواياها المبيتة لتقسيم ربوعها بينها وبسط نفوذها عليها. ثمّ حدث ان توفي الشاعر أديب إسحاق في نفس هذه السنة (1885)، وكان ممن أخذوا عن الشيخ جمال الدين الأفغاني واغترفوا من بحر علومه ومعارفه وحكمته، فصار شكيب أرسلان في شوق إلى معرفة السيد جمال الدين الأفغاني نفسه الذي كانت صفحات الصحف والمجلات تتناقل تعاليم مذهبه الإصلاحي في الدين، ومبادئ منهجه السياسي لصدّ الزحف الاستعماري النصراني على بلاد الإسلام.
وقد شهدت هذه العلاقة تجسّدها عندما تمّ اللقاء بين الشيخ جمال الديـن

الأفغاني والشاب شكيب أرسلان في مناسبتين سنأتي على إبراز الظروف التي حفّت بكلتيهما، لنتبيّن فيما بعد الآثار التي طبعتا بها فكر شكيب أرسلان في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي، وصاغتا عل ضوئها معالم منهجه السياسي

1- لقاء الأستانة: 1890

لمّا توفّي والد شكيب أرسلان، الذي كان يدير شؤون مديرية ناحية الشويفات من أعمال جبل لبنان سنة 1887 صدر أمر متصرّف الجبل وقتئذ واصا باشا الأرناؤوطي إلى شكيب بان يخلف والده في منصبه فقبل شكيب ذلك غير أنّه كان يمور طموحا ويتدفق نشاطا ويتوق إلى الأسمى فشعر بأنّ المجال ضيّق في الجبل يتناقض وما يسمو إليه فاستعفى من مهمّته سنة 1890 وقرّر التوجّه إلى الأستانة عبر مصر التي التقى فيها بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. ولازم حلقته التي كانت تضمّ أجلّة مفكري مصر وأدبائها كعلي الليثي وسعد زغلول وحفني ناصف وعلي يوسف و أحمد زكي...

ولمّا نزل بالأستانة تسنّى له الاتصال بالشيخ جمال الدين الأفغاني الذي كان صيته ذائعا للمنزلة المعتبرة التي يحظى بها من لدن الخليفة العثماني- وقتئذ-السلطان عبد الحميد الذي قلده رئاسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية.(1)وفي استنبول لقي شكيب أرسلان الشيخ جمال الدين الأفغاني وتعرّف إليه فلازمه واستفاد كثيرا من روافد معارفه ومنابع علومه، ومبادئ سياسته سواء من خلال مواظبته على حضور حلقات درسه بالجامع أو ارتياده لمجالسه العلمية ومنتدياته الأدبية والفكرية التي كانت تنتظم ببيته أو ببيوتات بعض أصحابه، فاستلهم شكيب مقوّمات إصلاحه الديني والاجتماعي بعد أن حصل له الاقتناع بجدواها في الواقع المعاصر وتبني مبادئ مذهبه السياسي المناوئ للاستعمار والداعي للنضال في سبيل التحرّر من ربقته والانعتاق من وطأة تبعاته. كلّ ذلك رغم الحملة الضاربة التي شنّت ضدّ الأفغاني ورماه فيها أصحابها بالإلحاد و الزندقة.

و لقد تلا لقاء استنبول هذا، لقاء ثان و أخير كانت باريس موضعا له.

2- لقـاء باريـس: 1892

لمّا أصيب شكيب أرسلان في غضون سنة 1892 بمرض قصد أوروبا طلبا للاستشفاء، فنزل بباريس حيث جمعته الصدفة -للمرة الثانية-بأستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني فجدّدا ذكريات استنبول عبر الأحاديث التي دارت بينهما واتّسمت بصفاء المودّة وعمق الاحترام الذي يكنّه شكيب لأستاذه الشيخ

والتقدير الذي يخصّ به هذا الأخير تلميذه شكيب أرسلان لإحساس كان ينتابه بأنّه سيكون خلفه في مذهبه الإصلاحي في الدين والمجتمع وفي منهجه السياسي ضدّ السيطرة الأجنبية.وصوّر شكيب أرسلان لقاءه هذا الذي جمعه بأستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني بقوله:..." وكنت يومئذ في أوّل شبابي،ولم أجاوز الثانية والعشرين من العمر غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحزّ فتحوّطت لكلامي بشيء من إنكار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله،فما رأيته إلاّ نهض وأمسك بيدي و هتف قائلا:" أنا أهنئ ارض السلام التي أنبتتك...وما أخاله قصد بها إلاّ الجذب بضبعي إلى الإمام وجبر ما نقص من قوّتي المعنوية"(2).

وقد تكونّت في فكر شكيب أرسلان وانطبعت في وجدانه معالم صورة الشيخ الأفغاني الذي اعجب به حدثا عن بعد من خلال تلقف أخباره-وهو بمدرسة الحكمة-إلى أن التقى به ولازمه باستنبول،حتّى جمعته الظروف به بديار الغربة بباريس للمرّة الأخيرة،و إنّنا لنرى في الكشف عن خصائص هذه الصورة أهميّة قصوى نتبيّن من خلالها الكثير من الحوافز التي حثّت شكيب على اتخاذ الشيخ قدوته وتعاليمه نبراسه في حياته الفكرية ودرب نضاله السياسي ضدّ الغزو الأجنبي لبلاد العرب و الإسلام.

3- صورة الشيخ جمال الدين الأفغاني كما يرسمها شكيب أرسلان

تستمّد هذه الصورة سماتها من انطباعات تلميذ معجب بشخصية أستاذه الفكرية والسلوكية.ومن ارتسامات مريد ملازم ومقتنع بتعاليم مذهب شيخه ومبادئه نظرا ومراسا فكانت صورة مشرّفة يطبعها الإجلال و التعظيم ويعبّر عنها بالإطراء والثناء،نثرا،والقريض شعرا،ولا غرابة في ذلك فقد "دخلت دعوة الأفغاني وعي المتنّورين لتدفن تسليما إيمانيا سلفيا تواصلت أطرافه حتّى أواسط القرن 19 ولتدفع حركة التجديد الإسلامي وتمنحها في الآن نفسه مضمونا تقدميا عصريا"(3).

فنجده في معرض ترجمته الذاتية للشيخ يتحدّث عنه معدّدا سجاياه، منوّها بعلومه ومعارفه،ومشيدا بنضاله مما "اهله ليعتلي صدارة مفكري عصره في العالم الإسلامي عامّة.فيقول:"كان جمال الدين سيّد النابغين الحكماء وأمير الخطباء البلغاء وداهية من أعظم الدهاة،دامغ الحجّة،قاطع البرهان،ثبت الجنان،متوقد العزم،فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قلّ أن يبلغ مثله سواه.وكان سائحا جوّابا طاف العالم الإسلامي قطرا قطرا و جال غربي أوروبا

بلدا بلدا فاكتسب من هذه السياحات علما راسخا واكتنه أسرارا خفية واستبطن غوامض كثيرة فأعانه ذلك على القيام بجلائل العمال التي قام بها..."(4).ثمّ يستطرد قائلا:"كان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعيا مسلما كبيرا فكأنّه على وفور استعداده ومواهبه إنّما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب فانقادت له نفوسهم و طافت متعاقدة من حوله قلوبهم "(5)

ثمّ ينعته بأنّه موقظ الشرق الأعظم،و يرى أنّ تعاليم دعوته الإصلاحية في المجال الديني والحقل الاجتماعي،ومبادئ دعوته في النضال السياسي ستعمّ في كافة البلاد الشرقية العربية منها و الإسلامية.

ولقد اعترف شكيب أرسلان بما أسداه له الشيخ من فضل في سبيل تنشئته وتعليمه،وتوجيهه وتلقينه،فلم يتوان على تقريضه شعرا ضمن قصيدة اشتملت على أربعين بيتا، مطلعها:

يا جمال الإسلام و الإسلام ✽ صدّه عن هدى الجمال الملام(6)

ثمّ يشيد بشمائله الأخلاقية و الخلقية بقوله:

... أنت فرد فيما شملت و لكن ✽ في اقتدار الجبان أنت همام

لك نفس الأملاك في عزّة الأفـــ ✽ لاك في جود من يداه الغمام

لك طبع سام ووجه وســـــيم ✽ أدبر الظلم منهما و الظلام (7)

ويتدرّج في إبراز خصاله الفكرية التي جعلته يبزّ كلّ المفكرين من معاصريه وحتّى من سبقه من السلف،حيث يقول:

... و رموز ملأ الحقـائق طرّا ✽ و علوم فوق العلى أعــلام

و يراع كالغيث منه انسكاب ✽ و ذكاء كالنار فيه ضــرام

و معان لو أحييت اجمـــــاد ✽ هزّه الشوق نحوها والغرام

حيّرت كلّ ذي حصاة إلى أن ✽ قيل لا شكّ إنّها إلهــام (8)

ثمّ يبرز دوره في توحيد شمل المسلمين و لمّ شملهم للفرقة التي تفصل بينهم و الصراعات التي تعصف بهم و توهن قواهم و تغري الأجنبي بالطمع في ربوعهم. كلّ ذلك حتّى يكوّن من و حدتهم قوّة قادرة على صدّ الأطماع الاستعمارية الأوروبية ووضع حدّا للزحف المسيحي على أقطار العالم الإسلامي حيث يخاطبه بقوله:

يا جمال الإســـلام إنّي إمرئ ممّن ✽ عليهم و الله ضاق الكـــظام

عبثا يجهر الزمان علينــــــــا ✽ ما لجرح بميّت إيــــلام

منك يرجى يا سيّدي جمـــال الد * ين وصل الحبال وهي رمام
أنت للمسلمين في دينهم حـــــجّة * حقّ لغيرهم الــــــــــزام
عطف النفس ما استطعت عليــــنا * نحن لولاك في الورى أيتام (9)

و لئن كانت هذه هي معالم الصورة المشرقة التي انطبعت في نفس شكيب أرسلان و فكره لشيخه جمال الدين الأفغاني فما عسى أن تكون الآثار التي تركتها هذه الصداقة في نشاطه الفكري، و مسيرة نضاله السياسي؟

4- أثر الشيخ جمال الدين الأفغاني في فكر شكيب أرسلان و سياسته

كانت التعاليم التي استقاها شكيب أرسلان من ينابيع معارف الشيخ جمال الدين الأفغاني وعلومه. أثناء ملازمته له باستنبول بمناسبة زيارته للأستانة في غضون سنة 1890. أومن خلال ما كان يطالعه له من مقالات وكتب. خير امتداد لما تلقاه على يد تلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في بيروت أو حتّى بعد انتقال هذا الأخير إلى مصر حيث بقي على اتصّال معه من خلال المراسلات. ذلك أنّ الشيخ محمد عبده لم يكن يردّد في مجالسه العلمية إلاّ التعاليم التي تلقاها عن أستاذه الأفغاني. فكان أن تشبّع شكيب أرسلان بمبادئ الأفغاني الفكرية الإصلاحية قبل أن يحصل لقاؤه معه وتعرّفه إليه باستنبول. ممّا يسّر له استيعابها وعمّق أثرها في بلورة فكره وتحديد معالم سياسته الإسلامية وتوجيهها الوجهة الكفيلة بتحقيق نهضة إسلامية معاصرة في كافة ربوع العالم الإسلامي قوامها التعلّم و الاتّحاد و التحرر.

فكما كانت كلّ من الخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية تمثّل القطب السياسي للشيخ جمال الدين الأفغاني الأساسي. كذلك صار الأمر بالنسبة لشكيب أرسلان الذي نحا منحى أستاذه الأفغاني في العمل من أجل خدمة الإسلام عن طريق مناصرة الخلافة العثمانية ودولتها من جهة، والسعي لجمع شتات المسلمين تحت لوائها من أخرى. والنضال في سبيل تحرّر هذه الأقطار من قيود الاستعمار التي ترسف تحت وطأتها أو وقايتها من هذا الاستعمار الأوروبي الذي يخيّم على ربوعها و يترصّد بها.

لقد أيقن شكيب أرسلان- كأستاذه الشيخ الأفغاني- أنّ بقاء دول الإسلام مشتّتة. متناحرة فيما بينها لن يعود إلاّ بالوهن عليها. ولن يتسبّب إلاّ في التسرّب الأجنبي إلى أقطارها. لذا فإنّ اتّحاد أقطار العالم الإسلامي فيما بينها يكوّن منها قوّة مهابة من طرف الدول الأوروبية الاستعمارية تكون قادرة على

إحباط كلّ الأطماع والدسائس والذود عن كيان الإسلام ووقايته لكثافة الحملات التنصيرية التي كان الغرب يشنّها على بلاد الإسلام مشرقا ومغربا.

وقد اقتنع كلّ منهما بانّ نهضة الأمّة الإسلامية لن تكون إلاّ في ظلّ التعلّم والتحرّر إضافة إلى الاتحاد،فلا يتيّسر الرقيّ في أوساط أمّة جاهلة ولا يتسنّى التقدّم لامّة مستعمرة تعيش الذلّ والهوان،ولا يتحقق النهوض بالانغراس كلّية في غياهب ماضي الأسلاف والتقوقع في تراثهم بل لا بدّ من اكتناه أسباب تقدّم الغرب،والوقوف على مواطن تفوّقه واستكشاف الأسرار الكامنة وراء تقدّمه وتوظيف هذه المستجدات لإحياء الإيجابي من مقوّمات التراث الحضاري العربي الإسلامي القادرة على التكيّف والواقع المعاصر.

وبناءا على كلّ هذا اقتنع شكيب أرسلان بدعوة الأفغاني فواصلها–من وجوب تعصير النضرة إلى الدين الإسلامي وتوظيف تعاليمه للإسهام بفعالية في تحقيق نهضة إسلامية معاصرة يتزاوج فيها التراث والمعاصرة–وفتح باب الاجتهاد من جديد،ذلك أنّه و كما كان الدين عاملا فعّالا في تحقيق أرقى معالم الحضارة الإسلامية–الأمر الذي أهلّ المسلمون لكي يدركوا أسمى مصاف الحضارة الإنسانية –كذلك هو قادر في الواقع المعاصر على القيام بهذا الدور الحضاري،وجعل المسلمين يواصلون ىما بلغه أسلافهم من مجد،ولن يتيسّر هذا إلاّ بتعصير علوم الدين الإسلامي و تلقيحها بمستجدات العلوم الحديثة.

وهكذا نتبيّن أنّ بذور ثورة الشيخ جمال الدين الأفغاني الفكرية–الاجتماعية–الدينية وجدت في فكر شكيب أرسلان البكر الأرض الخصبة للّقاح،و بذلك لم يكن شكيب أرسلان في فكره الديني و الاجتماعي الإصلاحي سوى امتداد لمنهج شيخه الأفغاني.

فقد دأب مثله على تحذير العرب والمسلمين من أخطار التعصّب المسيحي،التي تتحدّد كياناتهم اللغوية والثقافية والحضارية.فضلا عن أقطارهم التي تمثّل مدار طمع الدول الأوروبية الاستعمارية،حيث يقول: " فالنصرانية لم يزل التعصّب مستقرّا في عناصرها متغلغلا في أحشائها ومتمشيا في كلّ عرق من عروقها وهي أبدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصّب الديني المقوت...

تنتحل الدول النصرانية أعذارا لها في كرّها وهجومها وعدوانها على المالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقولها إنّ المالك الإسلامية هذه إنّما هي من الانحطاط والتدنّي بحيث لا تستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفســها

بنفسها...

وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية، وتتذرّع بألوف الذرائع من نواح أخرى حتّى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كلّ حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة."(10)

ويردف قائلا في أسلوب تقريري: "جميع الشعوب النصرانية مجمّعة متفقة على عداء الإسلام، و روح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الإسلام سحقا."(11)

ولقد تشبّع شكيب بهذه المواقف الحاملة على الغرب المتحامل على الدين الإسلامي وأهله والمتستر وراء التحضّر والتمدّن في بسط نفوذه على البلاد الإسلامية وغزوها، فقام بتبنّيها من خلال مقالاته المستعرة الحاملة على هذا الغرب المتقدّم في الظاهر، المتوحش في الجوهر، مثلما تعكسه ممارساته، من ذلك مقالاته المستعرة—عند صدور الظهير المغربي عام 1930 على السياسة الخارجية الفرنسية التي تقنّع استعمارها بقناع التمدّن الذي يشجّع تسرّب الديانة النصرانية إلى ربوع العالم الإسلامي، حيث يقول: "إنّ فرنسا وإن كانت حكومتها ذات صفة دينية في القانون فإنّها تظهر في كلّ فرصة بمظهر ديني—مسيحي، ولولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الفرنسية تعضد الآباء البيض والفرنسيسكانيين وسائر المبشرين الجائلين في الجزائر وتونس والصحراء والسودان العربي وتمدّ بضبعهم، وتسهّل أمامهم عقبات تنصير الأمم الإسلامية و غيرها."(12)

كذلك كان شأنه مع الاستعمار الإنغليزي بمصر والإيطالي بطرابلس الغرب و البلجيكي والهولندي بإفريقيا. لكلّ هذا فلئن أكدّ على ضرورة نهضة الأمّة الإسلامية وألح على السبل الكفيلة بتحقيقها فلكي يخيّب آمال الغرب في الاستعمار والاستثمار.

وصفوة القول فقد ترسم شكيب أرسلان خطى شيخه جمال الدين الأفغاني في منهج إصلاحه الديني ومنحى نضاله السياسي من خلال وعي عميق استقاه من تعاليمه طبع كلا من فكره و سياسته بالطابع الإسلامي المتمثّل في مناصرة الخلافة العثمانية ودعوة المسلمين إلى الولاء لها لضمان استقلالهم والقدرة على صدّ الجشع الاستعماري الغربي. إلى جانب السعي إلى توحيدهم وجعلهم يتجاوزون خلافاتهم. ويوقفون نزيف صراعاتهم، ويجمعون كلمتهم، ويوظفون

قوّاهم للتحرّر والرقيّ في إطار إسلامي معاصر يوظّف مقوّمات الدين الإسلامي لتحقيق نهضة إسلامية معاصرة تمتزج فيها تعاليم الإسلام بمستجدات الحضارة الغربية المعاصرة.

كلّ هذا وقد خاض كلّ منهما نضاله الفكري،وكفاحه السياسي منفيا في ديار الغربة التي اتّخذ منها مركزا لنشر دعوته الإصلاحية،وبثّ مبادئ منهجه السياسي لنشر وعي فكري–سياسي–إسلامي يساهم في تحرير العالم الإسلامي وتحقيق نهضته الحضارية المعاصرة التي تمثّل خير امتداد للنهضة الإسلامية التي بلغها السلف،و في هذا"تتجلى عظمة شكيب ارسلان،فقد جعل من نفسه علما تتجه إليه أنظار المسلمين في كلّ أنحاء الأرض. لقد أصبح مكتب التنفيذ لمؤتمر إسلامي غير موجود،و رئيس الديوان لخليفة إسلامي معدوم،و مكتب الاستعلام و الإعلام عن كلّ قضيّة وكلّ بلد للعرب و للمسلمين فيها حقّ أو نصيب...إذ كان يكفي أن تتوجّه منه رسائل وبرقيات لدنيا المسلمين، لكي تثور ضدّ فرنسا وبريطانيا والصهيونية وتتوالى الاحتجاجات من كلّ جهة على أعمال الاستعمار و الصهيونية في أراضي الشام."(13)

الهوامـــــش

1)نرجّح أنّ ما ناله السلطان عبد الحميد من نجاح في سياسته،في سبيل تحقيق الجامعة الإسلامية إن هو إلاّ ثمرة دعوة جمال الدين الأفغاني إليها وتحمّسه لتحقيقها حتّى موته.

2) أرسلان،شكيب: حاضر العالم الإسلامي،الجزء الأول،ص298

3) نفس المرجع،ج1،ص 298

4) نفس المرجع.ج1،ص 305

5) نفس المرجع،ج1،ص 198

6) أرسلان.شكيب: الديوان،...ص 154

7) نفس المصدر.ص 154

8) نفس المصدر.ص 154

9) نفس المصدر.ص155

10) أرسلان.شكيب: حاضر العالم الإسلامي.ج1.ص 306-307

11) نفس المصدر.ج1.ص307

12) نفس المصدر.الجزء الرابع.ص 354

13) الدهان.سامي: شكيب أرسلان حياته وآثاره،ص333،من دراسة مخطوطة أرسلت إلى سامي الدهان من طرف صديقه علال الفاسي جعلها في محاضرة عن"شكيب أرسلان والقومية"،وتحدّث فيها عن فضل الأمير شكيب أرسلان على المغرب الأقصى في مرحلة التحرير الوطني وخاصّة دوره في قضية الظهير البربري(1930)

الفصل الثالث

شكيب أرسلان
و إخاء محمد رشيد رضا

" كنت أمتّ إليه و كان يمتّ إليّ
بأواصر روحية لا توجد بيني
و بين شخص آخر من العرب "
شكيب أرسلان

لئن لعب كلّ من الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده دورا فعالا في صياغة فكر شكيب أرسلان الثقافي،والاجتماعي والديني،فصبغاه بالصبغة الإسلامية،إضافة إلى تشكيل مبادئ منهجه السياسي في مقاومة الاستعمار،فإنّ العلاقة التي جمعت شكيب أرسلان بالسيّد محمد رشيد رضا طيلة أربعين سنة لا تقلّ شأنا عن سابقتيها بل لعلّها تفوقهما، وتتجاوزهما أثرا،ذلك أنّه إن كانت علاقة شكيب أرسلان بكلّ من الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده،علاقة التلميذ بأستاذه والمريد بشيخه،ممّا جعلها تلتزم حدودا معيّنة مهما كان عمقها،فإنّ علاقة شكيب بالسيّد رشيد رضا طبعتها مودّة الإخاء وصفائه،فكانت خالية من كلّ مظاهر الكلفة،ورهبة الإجلال والتقدير،بل اتّسمت بالفطرة والتلقائية في كل مراحلها ممّا جعلها تكتسب أبعادا نفسية وفكرية عميقة بالنسبة لطرفيها. كلّ هذا رغم تقدّم محمد رشيد رضا شكيب أرسلان سنّا،وسبقه له معارف وعلوما،ولكن لم يكن مثل هذا ليؤثر في جامعة الإخاء التي ربطتهما فكرا ووجدانا ومراسا حياتيا،طيلة أربعين سنة وبالتحديد من سنة 1895 إلى حدود وفاة السيّد رشيد رضا سنة 1935.

هذا ولاستكناه ما تركته هذه العلاقة من آثار في فكر شكيب أرسلان الثقافي والاجتماعي والديني،وما طبعت به منهجه السياسي في النضال ضدّ الاستعمار الأوروبي الغازي للديار الإسلامية والمهدّد للإسلام،سنعمد إلى إبراز الملابسات

التي حفّت بنشأتها لنتدّرج فيما بعد إلى تتبّع المراحل التي قطعتها وما تميّزت به كلّ منها من سمات مفيدة،ليتسنّى لنا في الختام استجلاء أبعادها من خلال استقراء آثارها في فكر شكيب أرسلان و سياسته.

1- ملابســات نشأة العلاقة:

يكشف شكيب أرسلان عن الظروف التي حفّت بنشأة العلاقة بينه و بين السيد محمد رشيد رضا بقوله: "الذي أتذكره أنّه في سنة1895 قيل لي في بيروت إنّ شابا أديبا من طرابلس الشام يسأل عنك و يهمه الاجتماع بك،وما مضت أيام حتّى جاءني وكنت نازلا في فندق ببيروت يقال له" كوكب الشرق" فرأيت شابا سريا ظاهرة عليه سيماء النجابة والأصالة،وضيء الطلعة،وقور المجلس غالبا عليه الأدب وحبّ العلم.علمت منه أنّه قصد ملاقاتي من قبل و لم يوفّق."(1).

ولئن لم تسنح الظروف لكي يتّم اللقاء بين شكيب أرسلان و السيّد محمد رشيد رضا إلاّ في سنة 1895 فإنّ هذا الأخير كان على معرفة مدقّقة بشكيب، وكان معجبا بأشعاره ويحفظ منها الكثير،لما وجده فيها من تجاوب نفسي وفكري،فضلا عن توقه الشديد للالتقاء به والسماع عنه ما أخذه من معارف وعلوم عن الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

ولّما حصل لقاؤهما،ثمّ تعارفهما،توطدت العلاقة بينهما وتمتّنت أواصر موّدتهما،إذ وجد كلّ منهما في الآخر،أليف فكر،ورفيق درب بعد آن تيقنا من تجاوبهما الفكري وتناغمهما النفسي،واقتنعا بمسلك إصلاحهما الاجتماعي والديني وتبنّيا منهج نضالهما السياسي في سبيل رقيّ العالم الإسلامي الحضاري وتحرير أقطاره سياسيا.

وهنا يجدر بنا أن نتتبع المراحل التي شهدتها علاقتهما لنستكشف السمات المفيدة لكلّ مرحلة منها حتّى يتسنى لنا أن نقف عند أبعادها.

2- مراحل العلاقـة:

شهدت العلاقة التي جمعت شكيب أرسلان بالسيّد محمد رشيد رضا مراحل أساسية ثلاث،لكلّ منها ملابساتها و خصائصها المميزة،و سنعمد إلى استجلاء معالم كلّ منها الواحدة تلو الأخرى.

2-1- عهد الودّ و الوفاء: 1895-1912

شهدت هذه المرحلة بدايتـــها عند التقاء شكيب أرســلان بالسيّد محمد

رشيد رضا ببيروت. حيث تعدّدت بينهما اللقاءات وتوطّدت أواصر المحبّة وتمتّنت صلات الأخوّة. إذ كان شكيب ارسلان يتحدّث إلى السيّد الساعات الطوال في قضايا متنوّعة وكان السيّد يلذّ له الإنصات إليه والسماع منه، ويعجب بكلّ ما يردّده له من أحاديث أو يقرؤه على مسامعه من مقالات متنوّعة. فوجد كلّ منهما في الآخر أنيسه ومجالسه ومحدثه، وكانت لقاءاتهما يطبعها الإمتاع من جهة والمؤانسة من أخرى، فكلّ منهما لا يخفي سرائره عن الآخر. وعندما عزم السيّد محمد رشيد رضا سنة1897 على مغادرة بيروت خفية إلى مصر. لم يشأ إلاّ أن يمرّ على مقرّ إقامة شكيب أرسلان بفندق" كوكب الشرق" مودعا.

وبعد أن رحل إلى مصر قام بإصدار مجلته "المنار" التي كان يرسل أعدادها بانتظام إلى شكيب ارسلان الذي يصوّر هذا الطور من صداقته بالشيخ محمد رشيد رضا-رغم ضياع مراسلاته معه لكثرة تنقلاته وفقدان حياته طابع الاستقرار-بقوله: "...وكان السيد رشيد يكتب إليّ من مصر، من وقت إلى آخر و يرى فيّ أخا وفيّا. حفيّا مشاركا له في مبادئه وأفكاره ولو لم يكن بيننا من رابطة سوى كوننا نحن الاثنين من مريدي الأستاذ الإمام لكان ذلك كافيا."(2)

ولمّا أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثماني سنة 1908، و بدأ عهد الحرية. عاد السيّد رشيد رضا من مصر لزيارة وطنه، فتحدّد اللقاء بينه وبين شكيب أرسلان الذي يتحدّث عن زيارة الشيخ رشيد رضا هذه لبيروت بقوله: "...ورأيته في بيروت واجتمعت معه طويلا في"نادي الاتحاد والترقي"بتلك البلدة وكذلك جاء مرة أو مرتين فسمر عند عمّي الأمير مصطفى أرسلان فكنت هنالك فجرت بيننا أحاديث ذكر بعضها في "المنار"(3).

ولمّا قصد شكيب أرسلان-وجماعة من أتباعه-مصر في طريقهم إلى طرابلس الغرب سنة 1911 لمجاهدة الطليان اجتمع بالسيّد رشيد رضا كثيرا، وغالبا ما كان يزوره في بيته. وبذلك فقد تلازما طيلة أربعين يوما تسنّى لشكيب أرسلان على إثرها اجتياز الحدود المصرية و الالتحاق بجبهة درنة بالجبل الأخضر حيث كان يوجد القائد العثماني أنورباشا وفيلق من الجيش العثماني على خط النار في مواجهة الطليان.

2-2- طور فتور المودة 1912-1921

شهد معسكر عين منصور بجهة درنة بالجبل الأخضر-حيث كان يرابط شكيب أرسلان مجاهدا- بذور فتور المودّة وتلبّد سماء الإخاء الذي كان جامعا

بينه و الشيخ محمّد رشيد رضا،ذلك أنّه خلال إقامة شكيب أرسلان بعين منصور التقى بالشيخ العالم الفاضل صالح الشريف السنوسي–رحمه الله–وكان يقضي أكثر ساعات النهار في مجالسته و محادثته،و لما كان هذا الأخير من ألد أعداء السيّد رشيد رضا إذ كان يمقت آراءه في الدين،ويصرّ على سوء ظنّه به وبأستاذه الشيخ محمد عبده،فما كان من السيّد محمد رشيد رضا–إثر عودة شكيب أرسلان من الجبهة وقد بلغته أصداء هذه اللقاءات–إلاّ أن لامه وعابه على مجالسته عدوّه وملازمته له.فأبرز له شكيب أرسلان أنّه لم يلازمه تعمدًا بل لأنّه لم يكن يوجد في البريّة التي كان يرابط بها من يلازمه ويؤنس وحشته وغربته.ثمّ إنّه أثناء محادثاته مع هذا الشيخ كان دوما يدافع عن مبادئه وأفكاره،ويسعى إلى تعديل مواقف الشيخ صالح الشريف السنوسي من جهة السيد رشيد رضا و لكن دون جدوى.

وفضلا عن هذا فقد ساهم اختلاف موقفهما من شرعية حكومة الاتحاد و الترقي في احتداد فتور العلاقة،ذلك أنّ شكيب أرسلان العثماني المنزع–لم يكن مناوئا للاتحاديين مثل السيّد محمد رشيد رضا –بل كان مناصرا لهم. ويعلّل اختلاف وجهة نظره هذه و رشيد رضا بقوله:"....كنت ممن لا يجيز المضيّ في الاختلافات الداخلية إلى ذلك الحدّ الأقصى حينما يكون البلقانيون على أبواب الأستانة عاصمة الإسلام،وكنت أرى وجوب الهدنة بين الأحزاب في داخل السلطنة العثمانية ريثما ينعقد الصلح و يزول الخطر على الدولة.

وكان السيّد رشيد رضا هو أيضا في ذلك الوقت من أعداء الاتحاديين وقد جرّد قلمه في المنار وغيره لتعقب سقطاتهم وإظهار مساويهم،وكانت هذه الحالة معروفة عندي و لم أكن أتقاضى السيّد الرجوع عن رأيه في قضية الاتحاديين لأنّه كان مقتنعا مثلي بصحة مذهبه السياسي"(4).

كلّ هذا،وكان شكيب أرسلان يدرك تمام الإدراك إخلاص السيّد رشيد رضا في آرائه ومواقفه رغم وجود كلّ منهما في غير صف الآخر.وهو ما يؤكده في قوله:"...بالرغم مما وقع بيننا كان اعتقادي متينا بإخلاصه وأنّه لا يمكن أن يواطئ الإسلام في كثير ولا قليل ولا في المنام وأنّه مع كراهيته للأتراك في آخر الأمر، كان يفضلهم على الأنغليز من جهة كونهم مسلمين"(5).

ولئن فترت* العلاقة بينهما،وتواصل فراقهما على امتداد تسع سنوات،فإنّ شكيب أرسلان يؤكّد أنّ جوهرها ظلّ كما هو،ولم تصبه رياح التحوّل أو التغيير حيث يقول:"كان كل منّا في ذات صدره حريصا على أخيه محبّا أن

يسمع عنه الأخبار السارّة"(6)ولهذا،فلا غرابة إن انعقد من جديد ما انبتّ من وثيق روابط إخائهما وعاد وصالهما بعد انفصال وتصافيهما بعد فرقة طالت.

2-3- عودة الإخـاء: 1921-1935

إنّه لطبيعي أن يرجع إخاء شكيب أرسلان القديم والسيّد رشيد رضا فتستأنف بينهما المكاتبات المتنوّعة،وقد كان السيّد رشيد رضا المبادر إلى إعادة ما فتر من عرى العلاقة والمودّة الأخويّة التي جمعته بشكيب أرسلان الذي يصوّر لنا تجدّد عهد صفاء أخوتهما بقوله: "وقد كان السيّد رشيد في طليعة من تذكرّني وبدأ وهو في الشام بتكليف بعض من يراسلني بإهدائي سلامه فأجبت بالمثل فعاد فكتب إليّ رأسا يقول لي ما معناه: "...أنّه مضى الذي مضى وصار علينا أن نجتمع ونتفق لأجل معالجة الحال الحاضرة"(7)

وكان رجوعهما إلى سالف ما كان يجمعهما من روابط إخاء قديم إيذانا باستئناف ما كان بينهما من مراسلات لتباعد المسافات بينهما إذ شكيب أرسلان مقيما آنذاك ببرلين بألمانيا بينما كان السيّد رشيد رضا موجودا بالشام وفي هذه الأثناء دعوا إلى عقد المؤتمر السوري الفلسطيني بجنيف لتدارس قضيتي استقلال سوريا ولبنان من الهيمنة الاستعمارية الفرنسية ورفع الوصاية والانتداب البريطاني عن فلسطين،وجعل الفلسطينيين يقرّرون مصيرهم بأنفسهم.ولقيت هذه الدعوة أطيب الأثر لدى الأعيان العرب من سوريا وفلسطين،الذين تحوّل عدد منهم إلى جنيف ليشهد أشغال هذا المؤتمر الذي امتدّت أعماله من 25 أوت إلى 21 سبتمبر من سنة 1921.(8).

وإثر رجوع السيّد رشيد رضا من جنيف إلى مصر أرسل له شكيب أرسلان بمذكراته عن أيام الحرب وما قام به في سوريا ولبنان من خدمات لأبناء وطنه قصد التلطيف من الويلات التي حلّت بهم في تلك الأيام العصيبة،وما كان من مقاومته لسياسة القهر والإرهاق التي كان ينتهجها القائد العثماني جمال باشا وقد أغضبت العرب عن الترك،وأضرّت كثيرا بالدولة العثمانية،وبوحدة الشعوب العربية المنتمية إليها فما كان من السيّد رشيد رضا إلاّ أن قام بنشر هذه المذكرات كلّها متسلسلة في " المنار".

و قد تسنّى لشكيب سنة 1921 أن يجدّد اللّقاء بالسيّد رشيد رضا في ثلاث مناسبات جدّت أولاها ببور سعيد في غضون سنة 1929 عندما كان شكيب أرسلان قاصدا البقاع المقدّسة للحجّ بينما تمت ثانيتها عند أوبته من

الحجاز حين التقى به بالسويس وكان آخر لقاء خاطف بينهما في غضون سنة 1934بمحطة الإسماعيلية عندما كان شكيب متّجها ضمن وفد مؤلف من الحاج أمين الحسيني وهاشم بك الأتاسي ومحمد علي باشا علوية إلى جزيرة العرب لإصلاح ذات البين بين جلالة الملك ابن سعود وجلالة الإمام يحيى.

وبعد أن أبرزنا الملابسات التي حفّت بنشأة هذه العلاقة بين الرجلين، وكشفنا عن مختلف الأطوار التي مرّت بها وما كان لها من سمات مفيدة في كلّ منها جسدّتها العديد من الأعمال والنضالات المشتركة بينهما، يجدر بنا أن نستكشف المقوّمات التي انبنت عليها. وساهمت في تمتين أواصر أخوتهما التي امتدت على مدى أربعين سنة، وجعلتهما يتلازمان فكرا، ويتلاقيان وجدانا، رغم تباعد المسافات بينهما و تقلب الظروف.

3- مقوّمات العلاقة و خصائصها

لئن امتدّ إخاء شكيب أرسلان للسيّد رشيد رضا مدّة أربعين سنة فلأنّ كليهما قد وجد الآخر رفيقا يتجاوب معه فكرا وإصلاحا و يلتقي معه وجدانا. فلقد وجدا في زمن بلغ فيه انهيار العالم الإسلامي أقصاه في كلّ الميادين نتيجة غفلة أهله عن واقع تخلفهم الحضاري واستسلامهم لأوضاع استعمارهم، بعد أن أحبطت عزائمهم. فقعدوا عن النهوض في سبيل تحقيق غد أفضل قوامه التحضّر في كنف التحرّر، وبذلك أدرك كلّ من شكيب أرسلان والسيّد رشيد رضا بصدق فراستهما وبعد نظرهما أنّ العصر الذي يستقبلانه إنّما هو عصر دقيقة أوضاعه. جسيمة مهامهما فيه. ومن هنا سنعمد إلى استجلاء الجوامع الفكرية والسياسية المشتركة التي وحدّت منهج إصلاحهما الديني، ومذهب نضالهما السياسي ناهيك و أنّهما تأثّرا معا بتعاليم الشيخ محمد عبده وأستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني فعملا على نشر أفكارهما، وبثّ آرائهما، والسير على هدي منهجهما في الإصلاح الديني، ومذهبهما في النضال السياسي، وهكذا سنعمد إلى استجلاء مواطن اتفاقهما في الفكر الديني و الجهاد السياسي.

3-1- معالم الالتقاء في الفكر الديني

لئن توحدّت آراء شكيب أرسلان ومواقفه والسيّد رشيد رضا في حقل الفكر الديني فلأنهما نهلا من منبعي الفكر الديني في العالم الإسلامي: الشيخ محمد عبده. و أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني وإن كنّا نرجّح أن السيّد رشيد رضا كان أوسع أفقا في فهم الدين و استيعاب خفايا الثقافة الإسلامية لملازمته الطويلة للشيخ محمد عبده في مصر—التي كانت تزخر آنذاك بالمصادر

الإسلامية وبالعلماء الجلاّء-إلى جانب استفادته من أجواء المعارك الإسلامية الدائرة رحاها بين شيوخ الأزهر ورجال السياسة حيث كان يجتمع إلى هؤلاء.في حلقات دروسهم ويستمع إلى أولئك في مناقشاتهم أثناء الاجتماعات التي كانوا يعقدونها.وتتمثّل أهمّ القضايا التي اتفقا حولها و عملا معا على النضال من أجلها في:

1- تعصير النظرة إلى الإسلام

بعد أن تفاعل كلّ منهما وواقع المسلمين واكتشف العلل التي تنخر كيان الأمّة الإسلامية وتحول دون تحضّرها وتحرّرها.اقتنع بوجوب القيام بإصلاح ديني شامل.يطهّر الديانة الإسلامية مما شابها من البدع والشبهات التي ألحقها بها أعداؤها من أبناء الملل الأخرى والملحدة من أبناء ملتها.حتّى تعود إلى سيرتها الأولى في عهد السلف الصالح.مع وجوب التأليف والمزاوجة بينها ومستجدّات المدنية الحديثة.إذ لن يتسنى للمسلمين الارتقاء إلى مصاف الأمم المتحضرّة ولن يتحقق لهم التحرّر من أغلال أعدائهم النصارى.ماداموا قد تخلوا عن العمل بتعاليم شريعتهم السمحاء.وما لم يسعوا إلى جعل تعاليم شريعتهم تتماشى و الحضارة العربية.

فقد دعا كلّ منهما إلى وجوب تخلّي أيمة المسلمين ومشائخهم عن تزمّتهم الرافض لكلّ انفتاح على مظاهر الحضارة الغربية.وبهذا فإنّ دعوتهما هذه إن هي إلاّ امتداد لدعوة أستاذيهما الشيخ الإمام محمد عبده والشيخ جمال الدين لأفغاني،والتي جسّدتها مجلتهما:"العروة الوثقى".إلى جانب حلقات دروسهما وآثارها في الإصلاح الديني".

2- الدفاع عن العروبة و الإسلام

كان إيمان كلّ منهما بشرف الانتماء إلى النسب الغربي.و عزّة الانتساب إلى الدين الإسلامي خير حافز لهما على خدمة الإسلام والمسلمين.من جهة ومناصرة قضايا العروبة و الدفاع عن العرب من ثانية.فوظفا طاقتهما في سبيل الدفاع عن ديار الإسلام وأهله مما يتهدّدها من أخطار الحملات الصليبية المعاصرة التي تغذّيها الدول الاستعمارية الأوروبية تحت قناع الحضارة.ومن هنا جاء كرههما اللامحدود للاستعمار الغربي والحملة على سياسته بالبلاد الإسلامية الهادفة إلى طمس مقوّمات الهوية العربية الإسلامية.ويتجذّر في هذا السياق الذائد عن حرمات الإسلام موقفهما المناصر للخلافة الإسلامية والداعي إلى وجوب موالاتها والانضواء تحت لوائها حتّى يكوّن المسلمون جامعة

إسلامية قادرة على إحباط كلّ أطماع الغرب الاستعمارية والتوسعية.فنجد السيد رشيد رضا يحيي دعوة المصلح عبد الرحمان الكواكبي الذي دعا إلى عقد مؤتمر عربي إسلامي في مكة لتدارس قضية الخلافة.غير أنّ المؤتمر الذي دعا إلى عقده رشيد رضا كان في القاهرة لا في مكة.حيث كتب إلى جاوه وتونس والجزائر وحضرموت وغيرها من الممالك الإسلامية يدعو زعماءها إلى مؤتمر الخلافة حتّى لا يبقى الإسلام بدون خليفة يرعى تعاليم شريعته و يسهر على شؤون أتباعه،ولكن لم يكتب لهذه الدعوة أن تتحوّل إلى واقع لاعتراض بعض الجهات عليها مثل مسلمي الهند و جاوه.فقام بصياغة تصوّره لهذه المسألة في كتاب سمّاه: "الخلافة أو الإمامة العظمى"(9)،بسط فيه آراءه وفصّل الأمر في قضية الخلافة هذه، و قد لقي رواجا شرقا و غربا.

أمّا شكيب أرسلان فيدعو إلى الجامعة الإسلامية التي من شأنها أن توّحد شمل الأقطار الإسلامية التي شتّتها الخلافات والصراعات التي يؤجّجها الغرب خدمة لمصالحه وخضدا لشوكة المسلمين بجعلهم قاصرين عن مقاومة زحفه على ربوعهم،ويرى أنّ آل عثمان هم الأولى بها.وهنا يكمن جوهر الخلاف بينه وبين السيد رشيد رضا الذي يكره العثمانيين شديد الكره ويناصبهم العداء.ولكن الهامّ هو أنّهما يتفقان حول مبدأ وجوب وجود خلافة إسلامي تضمّ كلّ بلاد الأمّة الإسلامية وتحيي أمجاد الخلافة الإسلامية التي شيّدها السلف.

وتجدر الإشارة إلى أنّ شكيب أرسلان يعترف بأكثر ما جاء في رسائل السيد رشيد رضا من نقده. فيرى رأيه ويستمع إلى نصحه ويأخذ بتعليماته. إذ كثيرا ما ردّد متحدّثا عن منزلة السيد من نفسه قائلا: " كنت أعدّه أستاذا لي" لذا كان دائم الدفاع عن مبادئه و أفكاره أمام خصومه.

وبعد أن تبيّنّا مواطن اتفاقهما في باب الإصلاح الديني سنكتشف عن مظاهر اشتراكهما في العديد من مبادئ النضال السياسي ضد الاستعمار الأوروبي قصد تحرير الأقطار الإسلامية.

3-2- مظاهر الاتفاق في النضال السياسي

إنّ ما تجدر الإشارة إليه في بحث مقوّمات نضالهما السياسي ضدّ الاستعمار الغربي،هو أنّ كلا منهما اكتوى بنار الاستعمار في وطنه فعايش العسف مدّة،ثم عرف النفي عن ارض الوطن الأمر الذي لم يحبط عزيمته فواصل النضال من ديار المنفى في التصدّي للسياسة الاستعمارية بالبلاد العربية

الإسلامية. وفضح أشكال ممارستها التي تتنافى والأعراف الدولية الضامنة للحريات الفردية والجماعية في تقرير المصير. وتتناقض مع ما تدّعيه هذه الدول الاستعمارية الغربية من تحضّر وديمقراطية وصيانة لحقوق الأفراد والمجتمعات ودفاعا عنها.

فاتّخذ شكيب أرسلان من جينيف مقرّا للنضال ضدّ الاستعمار الغربي عامّة والفرنسي على وجه الخصوص. ذلك أنّه كان يعتبر فرنسا عدّوه الألدّ–وهي بالمثل–ولا يتوانى في التشهير بسياستها وفضح ممارستها الوحشية في البلاد التي تستعمرها مشرقا و مغربا.

وقد سلك في النضال السياسي عديد الأساليب يتصدّرها العمل الصحفي حيث كان يرسل بمقالاته الصحفية المستعرة نقمة إلى شتّى الصحف والمجلات الشرقية–من بينها المنار–التي كان يصدرها السيد رشيد رضا. ثمّ قام ببعث مجلته "الأمّة العربية" الفرنسية اللسان التي اتّخذ منها أداته للتصدّي للاستعمار والدفاع عن قضايا العروبة والإسلام. فضلا عمّا كان يقوم به من لقاءات و وساطات مع العديد من كبار الساسة الغربيين لكسب تعاطفهم مع قضايا أمتّه العربية الإسلامية. بالإضافة إلى ما كان يلقيه من خطب و يحضره من اجتماعات المنظمات الدولية والرسمية مدافعا عن مسألة تحرير الأقطار العربية الإسلامية واستقلالها. ثمّ ما كان يقوم به من تنقّلات للاتّصال بزعماء حركات التحرير المشرقية عامّة والمغربية خاصّة وما كان يسديه لهم من نصائح ويرسمه لهم من خطط نضال.

أمّا السيد رشيد رضا فقد اتّخذ من القاهرة مقرا لشنّ حملاته العدائية ضدّ الاستعمار الغربي عامّة والانغليزي على وجه الخصوص، من خلال ما كان ينشره من مقالات بجريدة "المنار" التي أسّسها للدفاع عن قضايا قومه العرب وبني ملته المسلمين. وحمل فيها دون هوادة على البريطانيين شأن أستاذه جمال الدين الأفغاني وإمامه محمد عبده. كما كان يشّهر بكل من يتعامل مع بريطانيا في البلاد العربية، من ذلك سخطه على البيت الهاشمي الذي يعتبره السبب الأصلي في ربط الحجاز بمواثيق ولاء تبعية لبريطانيا الأمر الذي جعله يحث ابن سعود ويدعوه إلى إنقاذ الحجاز منه وفك القيود عن الأراضي المقدّسة. وقد أصغى إليه ابن سعود فحطّم الكثير من تلك القيود ونقض الكثير من تلك المعاهدات الأمر الذي جعله ينال تقدير السيد رشيد رضا ويحظى بصداقته.

ولقد تحمّل السيد رشيد رضا الكثير من العنت في سبيل هذه السياسة المناهضة للأنغليز إذ هاجمته الأقلام في كثير من الأمصار العربية متّهمة إيّاه بالوهابية، والسلفية.

1- رفض الانتداب البريطاني على فلسطين

يلتقي كلّ من شكيب أرسلان والسيد رشيد رضا عند مبدأ رفض الوصاية البريطانية على بلاد فلسطين.فقد دعوا معا إلى انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني لتدارس مبدأ استقلال سوريا ورفع الانتداب الانغليزي على فلسطين بالسماح لأهلها بتقرير مصيرهم بأنفسهم دون الخضوع إلى أيّ شكل من أشكال الوصاية الأجنبية، انطلاقا من قناعتهما بشرعية هذه القضية، وما تكتسيه من خطورة لا على الشعب الفلسطيني فحسب بل وعلى الأمّة العربية بأسرها وحتّى الأمّة الإسلامية قاطبة، واعتبارا لمنزلة مدينة القدس في نفوس المسلمين. فقد آمنا بوجوب النضال في سبيل تحرير أرض فلسطين.أرض النبؤات ونجد السيد رشيد رضا يقول بهذا الصدد"الأهمّ الأعظم في مسألتنا العربية وكذا الإسلامية هو مسألة الثورة في فلسطين(10).وهي الثورة التي دعا شكيب أرسلان الفلسطينيين أوّلا فالعرب والمسلمين إلى تسخير كلّ طاقاتهم لإطلاق شرارتها، ذلك أنّ قضية تحرير فلسطين تمثّل بالنسبة له أكثر من قناعة سياسية بل هي من أعظم القضايا التي أرّقت وجدانه عربيا مسلما يشاهد الأرض التي حوت ثاني الحرمين الشريفين تسلب من أيدي أهلها ليتصرف فيها النصارى.ولكلّ هذا شكلت فلسطين وصية شكيب أرسلان الأخيرة التي أفضى بها لأحد أصدقائه الأستاذ عبد الله المشنوق قبل موته بأيام حيث خاطبه والدمع ينحدر من عينيه بقوله:

- "لي وصية واحدة أود أن أوصي بها فهل تعدني بأن تنقلها إلى العالم العربي بعد وفاتي؟
- لك العمر الطويل إن شاء الله
- لا بل تعدني بنقل الوصية
- نعم

وهنا طوّقه شكيب أرسلان بذراعيه المرتجفتين وقال بصوت كادت تخنقه العبرات:

- "أوصيكم بفلسطين" (11)

2- الحملة على الحركة الكمالية

نعت الكماليون الشرع الإسلامي بالجمود.وجعلوه السبب الرئيسي في انحطاط الأمّة التركية وتخلفها لكونه لا يستطيع أن يتماشى وتغيّر الأزمان ومستجدات أحوال العصر.لذا فإن أرادت الأمة التركية النهوض والارتقاء في معارج الحضارة فلابدّ لها من إبطال العمل بتعاليم الشريعة الإسلامية والاحتكام إليها.فما كان من شكيب أرسلان و السيد رشيد رضا إلاّ أن ردّا على هذه الدعايات التي بثّها أعداء الإسلام لكي ينفروا بها ناشئة المسلمين من دينهم الإسلام.وحملا على مصطفى كمال أتاتورك معتبرين دعوته تضليلا للأذهان وبهتانا ومغالطة للأتراك ومحاولة تقويض الأركان التي تقوم عليها الأمّة الإسلامية تجسّمها الخلافة التي تمثّل العروة الوثقى التي تشدّ المسلمين إلى بعضهم البعض.وتوّحد صفوفهم.وتجمع كلمتهم،وتكتّل قواهم لمواجهة معركة المصير ضدّ التخلف و الاستعمار.

ثمّ إنّ حكومة أنقرة بفصلها الدين عن السياسة إنّما تناقض نفسها بنفسها في منظور كلّ من شكيب أرسلان والسيد رشيد رضا باعتبار أنّ الإسلام دين يؤلف بين الأمور الدنيوية والأخروية ولم يفصل قط بين الدين و السياسة.

3- السعي لكسب مودة إيطاليا

بعد أن تأكد كلّ من شكيب أرسلان والسيد رشيد رضا بحكم سبرهما خفايا السياسة أنّ مواصلة الحملة على كلّ البلاد الغربية الاستعمارية وسيلة ضررها يفوق جدواها اقتنعا بضرورة المهادنة عندما تستوجب الظروف ذلك، ولابدّ إلى جانب العمل العسكري من العمل السياسي لكسب تعاطف بعض الأطراف مع القضايا العربية –الإسلامية فكان أن.كتب السيد رشيد رضا وكذلك شكيب أرسلان إلى الحكومة الإيطالية أنّ المسلمين مستعدّون أن يتّخذوا من إيطاليا صديقا إذا كانت تسير سيرة تخالف سياسة كلّ من انغلترا وفرنسا الاستعمارية في المشرق والمغرب العربيين.وتحدّث السيد رشيد رضا مع قنصل إيطاليا في هذا الشأن وكلف شكيب أرسلان بمواصلة هذه المساعي السياسية مع الطليان في هذا الأمر.فكان اجتماع شكيب بالقائد الإيطالي موسوليني في غضون سنة1934.ولكنّهما أدركا معا بعد محاولاتهما العديدة في كسب تعاطف إيطاليا أنّ هذه الدولة تتكالب على الاستعمار مثل سائر الدول الغربية الأخرى.فعلّق السيد رشيد رضا على سياستها هذه بقوله–وقد يئس منها–: "...إنّ العدوى سرت إلى هذه الدولة من حليفتيها"(12).

,كلّ هذا جعلهما ييأسان من إيجاد تعاطف إزاء العرب من قبل الدول الغربية ويقرران أنّ بريطانيا وفرنسا وإيطاليا كلّها تتآمر على العرب وتحكم الحصار حولهم لتمنعهم من التآلف والاتحاد تحت القومية العربية.التي تهدّد مصالحهم في المنطقة العربية.ومن هنا جاءت حملتهما على الاستعمار الغربي الذي ناصباه العداء،وسعيا معا إلى مقاومته من خلال فضح سياسته بالبلاد المستعمرة،وتأليب أهاليها عليه.واستنهاض هممهم.وتوجيههما إلى السبل الكفيلة بتحرير أوطانهم من هيمنته.

ولئن تناولنا بالتحليل أهمّ الجوامع المشتركة التي آلفت فكريا وسياسيا بين شكيب أرسلان والسيد رشيد رضا.وشكلت قناعات واحدة لمنهجهما الإصلاحي في الدين والمجتمع ولمذهب نضالهما السياسي في تحرير البلاد الإسلامية من الهيمنة الاستعمارية.فإنّ الموضوعية تحتّم علينا أن نستجلي بعض مظاهر الاختلاف في وجهات نظرهما من بعض القضايا:

4- الخلاف حول السياسة العثمانية

كان شكيب أرسلان —منذ حداثته–من مناصري السياسة العثمانية.حيث لا يتوانى في خدمة رجالاتها من آل عثمان.والدفاع عن دولتهم أمام كلّ ما من شأنه أن يمسّ سلامتها ويهدّد أمنها واستقرارها.لاعتقاده الراسخ في أنّ بقاء دولة آل عثمان يشكّل درعا منيعا لصيانة حرمة البلاد العربية الإسلامية من كلّ ما يتهدّدها من مخاطر الغزو الأجنبي.وما يحاك ضدّها من دسائس تغذّيها أطماع التوسّع الاستعماري الأوروبي،كلّ هذا رغم مناهضته الصريحة لبعض نقائص هذه السياسة العثمانية وسلبياتها من خلال سياسة بعض حكّامها في البلاد العربية التابعة لها،وخاصّة سياسة الإرهاق التي كان ينتهجها القائد جمال باشا في سوريا ولبنان،ذلك أنّ حكم العثمانيين—في وعيه السياسي–وإن صاحبته بعض مظاهر الإرهاق والعسف فإنّه يبقى أفضل من الحكم الأجنبي، بينما نجد السيد رشيد رضا–في المقابل–"يتناول العثمانيين وأنصارهم بقلمه اللاذع،ويكشف للناس سوء نيّتهم وكرههم للعرب وسعيهم لقتل العروبة. ويسعى من وراء هجومه أن يؤلب العرب على الترك و يدفع بقومه إلى فكرة القومية العربية– ويرى أن العثمانيين سيؤوا النيّة نحو العرب"(13).

وشكّلت المسألة العثمانية هذه نقطة الخلاف الجوهرية بين الرجلين. ففي حين كان السيد رشيد رضا يقاوم هذه الدولة العثمانية أثناء خوضها حرب البلقان،كان شكيب أرسلان من أبرز مناصريها لأنّه كان يرى في انكسارها

انكسارا للبلاد الشرقية بصفة عامّة. وتلاشيا للديانة الإسلامية على وجه الخصوص أمام تصاعد الحملات التنصيرية والتبشيرية الحديثة. ولقد أضرّت هذه القضية بإخائهما حيث لبثا طيلة تسع سنوات مفترقين لا يتلاقيان و لا حتّى يتراسلان لاختلاف الخطّة السياسية لكليهما ولكن شكيب يؤكد أنّ وقوفهما على طرف نقيض في هذه القضية لم يصب جوهر علاقتهما الروحية حيث يقول: "...وكانت المودّة بيننا غالبة على ما بيننا من اختلاف النظر في هذه المسألة. وعلى كلّ حال لم نصل إلى الوحشة.."(14). ثم يردف قائلا: "كنت أمتّ إليه وكان يمّت إليّ بأواصر روحية لا توجد بيني و بين شخص آخر من العرب"(15)

وخلاصة القول. فإنّ هذه العلاقة الأخوية التي جمعت شكيب أرسلان بالسيد رشيد رضا كانت متينة الأواصر الروحية و الفكرية إلى حدّ جعلها تقف في وجه الزمن فتتواصل أربعين سنة. عملا أثناءها معا على بثّ أفكارهما في الإصلاح الديني و الاجتماعي والإيقاظ العلمي والتوعية السياسية دون كلل ولا فتور. لإيمانهما المشترك بدقة أوضاع الأمة الإسلامية التي تعاني التخلف وتقاسي الاستعمار. فعملا يدا واحدة-وإن اختلفا في بعض الرؤى- على الارتفاع بالمسلمين من هوى الانحطاط بإيقاظهم واستنهاض هممهم وتبصيرهم بمستجدات واقعهم المعاصر. وجعلهم يسعون إلى بلوغ مصاف البلدان المتحضّرة ووضع حدّ لتبعيتهم لها إلى جانب نضالهم في سبيل تحرّر أقطارهم السياسي من ربقة الاستعمار الغربي الذي طال استنزافه لثرواتها الطبيعية و قواها البشرية. وبذلك فقد وجد كلّ منهما في الآخر مكمّلا لشخصيته مما أدام محبّتهما. وعمّق أواصرها الوجدانية بينهما. ويكشف شكيب أرسلان للسيد رشيد رضا عن حقيقة مشاعره نحوه بقوله: "لا أحد يفرّق بيني و بينك في هذه الحياة لأنّ مبدأنا واحد و هذا أثبت شيء في دوام المحبّة وإن وقع اختلاف نظر في بعض الأحايين فلم يقع في الجوهر ونحن نصلّي دائما وراءك لا نرضى غيرك إماما، ولا غير "المنار"محرابا...ولابدّ أن نستمرّ على الجهاد والذبّ عنها (الأمّة المحمدية) إلى أن نموت ويعلم أعقابنا أنّ بين أجدادهم أناسا ما ونوا ولا قصّروا وأنّ الاستقلال الذي تأثّل لهم- وهو ما لابدّ من حصوله يوما-مقدّمات بمساعينا ومساعي أمثالنا وأسسا وضعناها بأيدينا وما نحن إلّا كسائر الأمم التي وقعت لها هذه الأمور و نجحت على أيدي نبهائها".(16)

الهوامـــــش

1)أرسلان، شكيب: محمد رشيد رضا و إخاء أربعين سنة. ص144
2) نفس المصدر، ص 146
3) نفس المصدر، ص 147
4) نفس المصدر، ص 151-152
5) نفس المصدر، ص 155
6) نفس المصدر، ص 155
7) نفس المصدر، ص 150
8) نفس المصدر، ص 160
9) نقله إلى الفرنسية المستشرق الفرنسي هنري لاووست(Henri Laoust) ونشره ببيروت سنة 1938. ثمّ نقل بعد ذلك إلى الانغليزية وعدّة لغات أخرى لأهميته.
10) أرسلان، شكيب: محمد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة. ص537. وانظر كذلك، ص152و610
11) أرسلان، شكيب: لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم. المقدمة، ص 19
12) أرسلان، شكيب: محمد رشيد رضا و إخاء أربعين سنة. ص322
13) نفس المصدر، ص 152
14) نفس المصدر
15) نفس المصدر، ص 161
16) نفس المصدر من رسالة بعث بها الأمير شكيب أرسلان من مرسين إلى السيد رشيد رضا، بتاريخ 2 ذي الحجة سنة 1343 هـ.

الفصـــل الرابـــع

شكيب أرســلان و صــداقة
أمير الشعراء أحمد شوقي

"إنّها صداقة أربعين سنة تساقينا
كؤوسها صفوا بدون قذى وتبادلنا
رياحينها عفوا بدون أذى"
شكيـب أرســلان

جمعت بين "أمير البيان"شكيب أرسلان و أمير الشعراء أحمد شوقي علاقة صداقة حميمة،متينة العرى،خالصة الودّ والوفاء تواصلت على مدى أربعين سنة،منذ الحداثة إلى الشيخوخة.ولا شكّ أنّ علاقة بهذا العمق تغري الدارس بالبحث فيها:ملابسات ومعالم وأبعادا،لما تكتسيه من أهمّية بالغة محورها علمان بارزان في عالم الأدب والشعر في العصر الحديث،ساهما بفعالية في دفع مسار النهضة الأدبية المعاصرة في العالم العربي،وأدّيا جليل الخدمات للعروبة والإسلام درءا لأخطار الغزو الأجنبي والحملات الصليبية التنصيرية،يحدونا في كلّ ذلك أمل التوّصل إلى الكشف عن حقائق لم تكن مثبته وجوانب لم تكن معروفة من قبل أهله عصرهما عامّة،والباحثين على وجه أخصّ.

1- نشـأة الصداقـــة

أعجب شكيب أرسلان -وهو في سنّ مبكرة-بالأشعار التي كان ينظمها أحمد شوقي-وهو في بداية شهرته الشعرية-والتي كان يردّدها على مسمعه أستاذه الشيخ عبد الله البستاني أو يطالعها عبر أعمدة الصحف والمجلاّت العربية التي كان دائب الإطلاع عليها،فكانت روحها الإسلامية،ونزعتها الوطنية تحدث في فكره ووجدانه أطيب الأثر،فيحفظ منتخبات منها يردّدها أو يستشهد بها في كتاباته أو يستلهم منها الصور والمعاني في أشعاره.ثمّ أضحى يتوق إلى لقاء صاحبها الذي وجد فيه الشاعر العربي الأصيل لما كان يتميّز به من عشق للشعر العربي القديم و تقليد لفحولـــه الجاهليين منهم و العباسيين

والأندلسيين ومحاكاته لهم في لغتهم و أساليبهم و أخيلتهم و معانيهم.

وشاءت الصدفة أن تجمع الأمير الشاب شكيب أرسلان بالشاعر أحمد شوقي في صائفة سنة 1892 بمقهى داركور بباريس فتعارفا وتصادقا وتحابّا وتلازما على حدّ قول شكيب: "حتى صرنا كأخوين و غدونا نجتمع كلّ يوم مرّة بل مرتين. و أكثر تلاقينا كان في مقهى داركور"(1)وبذلك انعقدت بينهما "الألفة بلا كلفة"على حدّ تعبير أحمد شوقي.ولما استشار أحمد شوقي شكيب في أحد لقاءاتهما حول التسمية المناسبة لديوان إشعاره الذي يروم نشره.أشار عليه شكيب بتسميته بـ" الشوقيات" نسبة إلى شوقي.

ولم يحل افتراقهما دون تواصل صداقتهما وتمتّن عراها ورعاية كلّ منهما للآخر عن بعد عبر المكاتبة التي كانت وسيلة كلّ منهما يبثّ فيها صديقه ذات نفسه وخواطر فكره حول الأدب والشعر والدين والأخلاق والسياسة و المجتمع.

2- في علامـات الصـــداقة

كان كلّ من شكيب أرسلان و أحمد شوقي يكنّ للآخر الكثير من الإعجاب ويخصّه بخالص الودّ.ويفرده بصادق الوفاء.ويحرص كلّ الحرص على المحافظة على صداقته به ورعايتها وتمتين عراها رغم البعد إذ كان كلّ منهما قد قطع على نفسه وعلى صاحبه عهدا بدوام الوفاء وتواصل الودّ.يقول شوقي في هذا السياق:

صحبت شكيبا برهمة لم يفز بها
سواي على أنّ الصحاب كثير

حرصت عليها آنــة بعـــد آنة
كما ضنّ بالماس الكريم خبــير

فلمّا تساقينا الوفـــاء و تمّ لي
وداد على كــلّ الوداد أمــير

تفرّق جسمي في البلاد و جسمه
و لـــم يتفرّق خاطر و ضمـــير (2)

ولّما زار الشاعر أحمد شوقي لبنان استضافه الأمير شكيب أرسلان وأكرم وفادته وجدّد أحاديثه معه،ولكن لم تطل إقامته إذ كان على حدّ تعبير شكيب: " أشبه بالطير يريد أن يبقى حرّا طليقا."(3)

وككلّ العلاقـــات،لم تسلم صداقة الأمير شكيب أرســـلان والشاعر أحمد

شوقي من الكدر الذي عكّر صفوها وأحدث الجفاء بين طرفيها، إذ عند مرور شكيب بمصر في طريقه إلى جبهة درنه بالجبل للاشتراك في حرب الطليان، اضطرّ للمكوث بمصر أربعين يوما في انتظار ورود الأمر بالتوجه إلى الجبهة وكان يتشوّق إلى لِقاء شوقي والاجتماع به، لكن هذا الأخير لم يبادر بزيارته كما كان ينتظر. مما جعل شكيب في حيرة من أمره، يتساءل عن سبب هذا الجفاء : " أغصّ شوقي مكاني من الجناب الخديوي وكثرةِ ما رأى من احتفال سيده بي؟أم جاء من ألقى في أذنه أنّي سأزاحمه في محِلّه من القرب للجناب العالي؟ أم هو رجل له بدوات و غفلات. بينما هو حفّي بخلانه و فيّ مع إخوانه، إذ هو معرض عنهم، متهاون بحقوق المودّة التي بينه و بينهم؟أم هو شاعر لا يتقيّد بشيء، ولا يريد أن يكون خاضعا لتكاليف الحياة حتى مع أعزّ أصحابه؟ أم هناك عذرا آخر لا أعرفه و لا يهمني أن أعرفه؟"(4)

ونعتقد أنّ مبعث هذا الجفاء يعود في جوهره إلى السببين الأولين اللذين أفصح عنهما شكيب أرسلان الذي وقد غاضته هذه الجفوة بعث إلى شوقي أبياتا عتابية لم يثبتها في الديوان جاء فيها:

"احنّ إلى "شوقي" و أهوى لقاءه   و أصبو و لكن ما إليه وصول
و يخبرني قلبي بأنّ فؤاده   كما كان، لكن يعتريه ذهول
و الله ما يمّمت مصر وفوقها   يدانيه عندي صاحب و خليل
فشوقي إلى "شوقي" بقدر محبتي   و عندي حساب للعتاب طويل"(5)

ولكن شوقي أبى الردّ على هذا العتاب اللطيف فسعى الشاعر خليل مطران لإصلاح ذات البين بينهما. فأفلح في وصلهما مجدّدا فتعاتبا وتصافيا وزال بينهما من كدر الجفاء والوحشة، فالتقيا بعد ذلك في استنبول عاصمة الخلافة العثمانية لقاء قصيرا، ثمّ جدّدا لقاءاتهما في "مقهى داركور" بباريس. وفي سنّ الشيخوخة اتّخذا من مقهى المجامع بباريس مكان لقاءاتهما المفضل حيث انصرفا لسماع الأغاني والمنادمة والطرف فضلاً عن أحاديثهما الأدبية والفكرية.

وكان آخر لقاء جمعهما بمدينة السويس المصرية في غضون سنة 1928 عند توجه الأمير شكيب أرسلان من جنيف إلى الحجاز لتأدية مناسك الحجّ. فقام أمير الشعراء بزيارته و جماعة من أصدقاءه، ثمّ تواصلت مراسلاتهما إلى حين وفاة شوقي سنة 1932. ومما لاشك فيه أنّ صداقة كهذه تواصلت على مدى أربعين سنة، 1892-1932، تحفزّ على البحث في المقومات التي انبنت عليها فأكسبتها كلّ هذا العمق والصفاء و المودة الخالصة.

3 – في جوهـــر الصداقـــة:

لم تكن هذه الصداقة لتبلغ هذا الشأو من التحابّ والتصافي والوفاء. لو لم تجمع بين طرفيها "أمير البيان" شكيب أرسلان، وأمير الشعراء أحمد شوقي عديد الجوامع المشتركة البيئية منها والذاتية والأدبية والفكرية والسياسية التي ساهمت بفعالية في توحيد ذائقتهما الجمالية– الفنية واتجاهاتهما الأدبية– الفكرية. ورؤاهما السياسية والسبل الكفيلة بتحقيق النهضة العربية– الإسلامية المعاصرة في كنف الحرية والاستقلال والاتحاد والأصالة.

فكلّ منهما وجد نفسه في بيئة ثقافية تزخر حركية أدبية وفكرية وعلمية تمثّلها المجالس والمنتديات والمساجلات والمناظرات والمسامرات والعلماء الذين كثر فيما بينهم التنافس على الزعامات تسعى إلى الاستفادة منها ما وسعه خاطره والتفاعل معها. فكدّ في تحصيل العلوم والمعارف ورنا إلى الشهرة والمجد بعيون حالمة.

وكلّ منهما شغف منذ حداثته بالأدب العربي القديم نثرا وشعرا فانكبّ على مطالعة نفائسه والتشبّه بفحول شعرائه بمحاكاتهم في جزالة لغتهم وصفائها البدوي، وبيان أسلوبهم وإعجازه وطرافة أخيلتهم وثرائها. وصدق معانيهم وأصالتها. وجمالية أذواقهم الفنية وأصالتها. فكان لكلّ هذا أن قدح عبقرية كليهما الشعرية فبكر في قول الشعر الذي جاء صورة تنعكس فيها أصداء الجاهليين و أنفاس العباسيين مشرقا والأندلسيين مغربا، وكان فضلا عن ذلك صدى لما يعرض لكليهما من مناسبات ظرفية توجب عليه النظم مدحا كان أم قريضا. فخرا أم وصفا، رثاء أم غزلا.

وتندرج في هذا السياق مناصرتهما للشعر التقليدي القديم. ودفاعهما عنه والحملة على أصحاب الشعر الجديد ودعاته. كل ذلك رغم قدرة كليهما على التجديد في صيغ الشعر وألوانه لاتّصاله بالغرب واطّلاعه على معالم ثقافته الأدبية المعاصرة. لكنّ تأصّل نزعة العروبة وتجذّرها في كيان كليهما جعلهما يتشابهان في محاكاة فحول الشعر العربي القديم والدعوة إلى الاقتداء بهم وبذلك نتبين بجلاء أنّ كليهما قد وجد في الآخر صورة الشاعر العربي الأصيل المنشودة في واقع متدهور اجتما–سياسيا.

ولقد وعى كلّ من شكيب أرسلان وأمير الشعراء أحمد شوقي –منذ الحداثة– معالم هذا التدهور الذي يتصدّره كلّ من التخلف والاستعمار. فحزّت في نفسيهما، وآلمتهما وأثارت فيهما مشاعر الأسى أجواء الشقاق والتناحر

المخيمة على أقطار العالم الإسلامي عامة،والعربي على وجه أخصّ فأدركا معا الأخطار التي تحوق بالعروبة والإسلام وتهدّد كيانهما نتيجة تواصل المدّ الاستعماري من جهة والحملات التبشيرية التنصيرية المدعومة من طرف الدول الغربية العظمى عامّة ودولة الفاتيكان على وجه أخصّ من ثانية.فسعيا معا إلى استقراء العلل الكامنة وراء هذه الأوضاع المزرية التي يعيشها العرب والمسلمون وجعلتهم يتخلّفون عن ركب الحضارة الحديثة،كما اجتهدا في البحث عن العوامل التي جعلت الإسلام لا يقوم بنفس الأدوار الحضارية التي بوأت السلف منزلة الصدارة في الماضي بسيادتها أمم البلاد المتاخمة لهم، فكأن اقتناعهما بوجوب العمل معا لخدمة العروبة والإسلام بتوظيف أشعارهما لنصرة الإسلام والمسلمين على النصرانية والمسيحيين ودعوة العرب والمسلمين على حدّ سواء إلى نبذ الصراعات والخلافات والاتحاد قصد التحرّر وبناء النهضة العربية-الإسلامية المنشودة،فنظما قصائد في نصرة الخلافة الإسلامية رمز الإسلام وجامعة المسلمين الروحية،والدعوة للسلطان العثماني عبد الحميد حامي حمى الإسلام والمسلمين و الدفاع عن سياسته.

كلّ ذلك لقناعتهما بأنّ الخلافة الإسلامية هي الكفيلة وحدها بجمع كلمة المسلمين ولمّ شتاتهم والذود عن الإسلام ودياره من الحملات الصليبية التنصيرية المعاصرة،وهي القادرة دون غيرها على تحرير أقطار البلاد الإسلامية المنضوية تحت لوائها من سيطرة الدول الاستعمارية العظمى وتحقيق نهضتها العصرية المنشودة في العصر الحديث رغم وعيها بأخطاء سياسة الحكّام الأتراك بالبلاد العربية الخاضعة لسلطتهم.

ومن المؤكد أن تميّز كلّ من الأمير شكيب أرسلان وأمير الشعراء أحمد شوقي بهذه الروح الإسلامية العالية وذاك الوعي الحاد بهموم المسلمين وعلل الإسلام في العصر الحاضر،والذي ولد لديهما الاستعداد التلقائي لخدمة الإسلام والتضحية في سبيل توحيد أقطاره وتحريرها من الاستعمار الغربي نشدانا لتحقيق نهضتها،هو الذي ضاعف محبّة كلّ منهما للآخر وعمّق صداقته له.

ثمّ وعند تنكّر العثمانيين للإسلام والعروبة حين انقلبت دولتهم على يد الكماليين إلى دولة علمانية،فقد تنكرا للسياسة العثمانية ووظفا أشعارهما لنصرة العروبة والتغنّي بأمجادها ومآثرها الخالدة،ودعوة شعوب العالم العربي إلى الوحدة والتعاون لمقاومة الاستعمار ودحره عن أقطارها لإقامة صرح نهضتها

الحضارية المعاصرة،وبذلك نتبيّن بجلاء اتفاق رؤاهما السياسية في تصّور أوضاع العرب و المسلمين في الراهن و المستقبل.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ كليهما قد عرف الإبعاد من طرف سلطات استعمار بلاده فعاش تجربة المنفى التي لم تثبط عزيمة نضاله.

كلّ هذا، ولكي يخلدّ الأمير شكيب أرسلان صداقة شوقي ـ وإشفاقا منه على ذكرى هذا الأخير من النسيان من طرف معاصريه بعد موته، وإيمانا بأنّ"الإخاء إخاء في الحياة وبعد الممات وعلى اللاحق أن يحفظ عهد السابق"(6)فإنّه أبى إلاّ أن يسجّل مظاهر التصادق والتحابّ والتوادّ التي طبعت علاقته بأمير الشعراء في أثر اختار له عنوانا: "شوقي أو صداقة أربعين سنة"حفظا لعهده مع أخ قديم رعاه لمدّة أربعين سنة.فعرض فيه مراحل صداقته معه،وأشاد بمنزلته الأدبية بين معاصريه،وخدماته الجليلة لوطنه مصر،وللعروبة والإسلام بصفة عامّة،كما أورد كلّ ما يعرفه عن حياته فاستعرض صداقاته وعداواته وحكى ما كان من نقد حوله ومدح فيه، فاكتسب هذا الأثر قيمة وثائقية كبرى عن حياة شوقي وشعره خاصّة وأنّ هذا الأخير لم يخلّف لنا مذكراته التي لم يجمع الأدباء كثيرا منها كما جمعوا لغيره،ناهيك أنّه ترك ديوانه"الشوقيات"غفلا من كلّ دليل.وبذلك فإنّ أهمية هذا الأثر تكمن في كشفه للباحث ما خفي من حياة أمير الشعراء وشعره،فيكون شكيب أرسلان قد أدّى خدمة جليلة للأدب العربي عامة ولصديق العمر بصفة خاصّة والذي عاهد نفسه على الوفاء له حتّى بعد موته بصريح قوله: "لو نسي عهدك الأولون والآخرون لما خفرت لك عهدا ولا مذقت لك ودّا،وأنّك في الغيب عندي لكما في المشهد،وأنت تعلم أنّها صداقة أربعين سنة تساقينا كؤوسها صفوا بدون قذى و تبادلنا رياحينها عفوا بدون أذى.

فإن أظمأ عهدك النسيان فلي مدامع ترويه،وإن شطت بشعرك النوى فإنّ الدهر كلّه يرويه.وإن يكاك الناس حبّا بالأدب ورحمة للسان العرب فإنّي أبكيك بصفتين،صفة الأديب البرّ بلغته،الغيور على صناعته وصفة الأخ الضنين بأخوته الحريص على مروته،فإنّي في مقدّمة من لك من الأخوان والأتراب الذين يبكون فضلك ويذكرون عهدك إلى أن يواروا التراب"(7)

الهوامـــــش

1)أرسلان.شكيب: شوقي أو صداقة أربعين سنة،القاهرة،مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاؤه بمصر،1936،ص 10

2) نفس المصدر،ص 10

3) نفس المصدر.ص 10

4) نفس المصدر: ص 38

5)الشرباصي.أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان،ص 872،لم يورد شكيب هذه الأبيات في ديوانه

6) أرسلان،شكيب: شوقي أو صداقة أربعين سنة،ص135

7) نفس المصدر،ص125

الباب الثالث

شكيب أرسلان السياسي

الفصـــل الأول

في سبـل السياســـة

لم يكن شكيب أرسلان– منذ حداثته–بعيدا عمّا يجري في المنطقة العربية الإسلامية،والساحة العالمية من أحداث سياسية جسام بل كان عميق الوعي بها شديد التفاعل معها،قوي الرغبة في الإسهام فيها،يحدوه في كلّ ذلك إحساس عميق بمسؤوليته العظمى عن كل ما يجدّ في حمى أهله و أمته و دينه من أحداث وتقلّبات وتحوّلات ألزم نفسه بالإسهام فيها نظرية و مراسا.

ولعلّ توجّه شكيب أرسلان إلى العمل السياسي وانحسار إبداعاته الأدبية–الفكرية تدريجيا–لما يتطلبه هذا العمل من تفرغ– يعودان أصلا إلى تضافر عدة عوامل ذاتية وموضوعية تفاعلت فيما بينها لتوجه حياته هذا المنحى النضالي وتجعله يشترك بفعالية في أحداث عصره،فيكون طرفا فاعلا لا حياديا بالتزامه –عن اقتناع–النضال عن قضايا وطنه،وعروبته وإسلامه وحتّى الإنسانية جمعاء والتي يتصدّرها كلّ من الاستقلال والنهضة في كنف التعاون والاتحاد.

فلقد كان لانحدار شكيب أرسلان من عائلة زعامات سياسية–و هي العائلة الأرسلانية التي اشتهرت بمجدها السياسي التليد في التاريخ العربي الإسلامي منذ ثلاثة عشر قرنا حتى العصر الحديث،حيث لعبت الأدوار الأولى في تلوين السياسة المحلية،والعربية الإسلامية وتوجيه مسارها،وتحديد اختياراتها ورسم أبعادها لأصالة عروبتها وقوّة إسلامها وخلال رجالها–أثره العميق في دفعه إلى الاشتغال بالسياسة،فيشغل خطة مدير ناحية الشويفات لسنتين–1887–1889–خلفا لوالده المتوّفي،ثمّ يضطلع بخطّة قائمقام قضاء الشوف لستّ سنوات 1902–1908 في أيام رستم باشا خلفا لعمّه مصطفى أرسلان المستعفى،فضلا عن قيامه بجمع الدروز على طاعة الدولة بتكليف من ناظم باشا والى الشام لما يتمتّع به من حظوة لديهم،كذلك تلطيفه الخلافات والصراعات التي دبّت بين العرب والترك في فترة حكم القائد جمال باشا لسوريا ولبنان،والذي كان يلتجئ إليه دوما مستشيرا،طالبا العون لما يحظى به من شعبية واسعة لدى أهله من أبناء سوريا و لبنان.

ونعتقد أنّ ما غذّى توجّه شكيب أرسلان إلى النشاط السياسي وإغرائه به-رغم إدراكه العقبات والمخاطر الحافّة به-توقه الشديد-منذ سنه المبكرة للشهرة والمجد السياسي شأن أمجاد عائلته الأرسلانية فأقبل على متابعة أحداث عصره السياسية بانتظام من خلال مطالعته الدائبة للصحف العربية الواردة على بيروت من مصر والشام والعراق،كما سعى إلى إنشاء علاقات ودّ وصداقة مع أبرز زعماء السياسة المعاصرين له من ملوك وأمراء و زعماء حركات تحرير مشرقية ومغربية.

كلّ هذا وتبقى أحداث عصره التي عايشها و تفاعل معها أبرز مؤثّر حفزه على اختيار سبيل العمل السياسي وطبع معالم سياسته نظرا ومراسا وحدّد أبعادها،ذلك أنّ الإطار التاريخي الذي احتضن إسهامات شكيب أرسلان السياسية،والذي يمثله الربع الأخير من القرن التاسع بزخمة الأحداث وكثرة التقلبات ووفرة التحوّلات سواء على الساحة المحلية أو العالمية،والتي شهدها شكيب واقتنع بوجوب الإسهام فيها سياسيا مستقلاّ.

فقد شهد انحسار حكم آل عثمان تدريجيا،وأمكنه أن يرقب شمس خلافتهم الغاربة فقرع وعددا من مثقفي عصره نواقيس الخطر للمسلمين استنهاضا لهممهم وتنبيها لهم لما يحوق بهم من مخاطر في الحال والاستقبال فكانت دعوته إلى الجامعة الإسلامية القادرة وحدها على درء مخاطر الحاضر والغد وتحقيق النهضة الإسلامية المنشودة في كنف الوحدة والاستقلال.

كما أدرك تعاظم المدّ الأوروبي الاستعماري في بلاد العروبة والإسلام التي يسّرت له السبيل لتخلفها وانقسامها وتناحرها فكانت دعوته لها للوحدة ومقاومة الاستعمار لتحقيق ما تنشده من استقلال و نهضة.

وفي هذه الأثناء عايش تضخّم عسف الحكام الأتراك بالعرب خاصّة أهالي سوريا ولبنان فكان من المبادرين إلى تنبيه حكومة الأستانة إلى عواقب سياستها العربية دون جدوى إلى أن تنبّه الوعي القومي العربي وبرز تحت وطأة فشل إصلاحات 1908،وتعاظم السيطرة الأوروبية على المزيد من الأقطار العربية. وقد كان شكيب من أبرز موقظي هذا الوعي وباعثيه بتخلّيه عن سياسته العثمانية والإسلامية لفائدة العروبة التي أخذ نفسه بالدفاع عن قضاياها والنضال في سبيلها قولا وعملا.

وشهد تقسيم الأقطار العربية الإسلامية إثر الحرب العالمية الأولى بين أنغلترا و فرنسا،وضياع بلاد فلسطين التي جعل منها الانغليز وطنا لليهود

والصهاينة فكانت إسهاماته في بعث حركات التحرير المشرقية والمغربية وتوجيه مسارها النضالي ودفعه وقد احتدّ القمع الاستعماري الأوروبي وسياسة القهر والإرهاق التي تسلكها الدول العظمى في المغرب العربي ومصر والسودان وأطراف شبه الجزيرة العربية فأعطى لمطلب الاستقلال بعده العاطفي فبلغ النضال الوطني والقومي أوجه بما شهدته المنطقة العربية من ثورات وانتفاضات أخفق بعضها ونجح البعض الآخر ولكنّها كانت دلالةً بارزة لنضج المشروع الاستقلالي في وعي العرب و الذي ستتجسّد معالمه تدريجيا بارتقاء الأقطار العربية الواحدة تلوى الأخرى إلى مصاف الدول المستقلة المتحفزة لبناء صرح نهضتها الحضاري.

تلك هي أهمّ العوامل التي حفزت شكيب أرْسلان على الانصراف إلى العمل السياسي وتكريس حياته له مضحيا في سبيل تحقيق أهدافه النضالية بطيب العيش في الوطن. ودفء الأهل و العشيرة وموفور الصحة والمال وهدوء النفس وطمأنينة البال دون طمع في منصب أو مأرب.

الفصـل الثانــــي

نضال شكيب إرســلان
في سبيل استقلال سوريا و لبنان

مثّلت قضية استقلال سوريا ولبنان عن الاستعمار الفرنسي إحدى القناعات الثابتة في مذهب شكيب أرسلان السياسي ومسيرته النضالية. إذ لم يحل منفاه بجنيف أو لوزان أو برلين دون متابعته بانتظام الأحداث التي كان وطنه سوريا ولبنان مسرحا لها خاصة، في أعقاب الحرب الأولى، حيث تمّ جلاء الأتراك عن أراضيه، ونهاية حكمهم به، وانتصاب قوات الاحتلال الفرنسي الذي تبعته عديد الانتفاضات العربية الرافضة لتواصل المدّ الأوروبي بالمنطقة العربية، فلم يبق محايدا إزاء زخمة الأحداث هذه والتحوّلات والتقلبات في حياة سوريا ولبنان بل اقتنع بالإسهام فيها نشدانا لتحقيق الاستقلال والنـهضة.

ولقد تكرّست معالم نضال شكيب أرسلان في سبيل تحقيق هذا المأرب في حركية دائبة، متنوّعة النشاط، ضمن مشاركته الفعّالة في أعمال المؤتمر السوري- الفلسطيني الذي التأم بجنيف في غضون شهر أوت من سنة 1921 لدراسة مطلب استقلال سوريا وفلسطين عن الوصاية الفرنسية والبريطانية و لتحسيس عصبة الأمم بجوهر القضية السورية- الفلسطينية.

ولمّا أوصى المؤتمر في لائحته النهائية بتكوين وفد سوري فلسطيني يتابع تنفيذ ما انتهى إليه من مقررات لدى عصبة الأمم، كان شكيب أرسلان عضوا حركيا فيه إلى جانب أصدقائه إحسان الجابري وميشيل لطف الله وسليمان كنعان وتوفيق اليازجي إذ كان دائب إرسال البيانات والمذكرات والمطالب والتقارير إلى عصبة الأمم بجنيف خاصة وإلى مختلف الهيئات السياسية الرسمية والمؤتمرات الدولية بصفة أشمل تعريفا بالقضية السورية وسعيا لكسب الأنصار السياسين المتعاطفين معها من مختلف البلاد، وظلّ يتابع توجيه النداءات والمذكرات والاحتجاجات الي جمعية الأمم وساسة الدول إلى سنة 1936، دون كلل و لا ملل.

ولم يقتصر عمل شكيب أرسلان السياسي من أجل استقلال سوريا ولبنان على هذه الحركية الدائبة لدى عصبة الأمم بل تجاوزها ليقوم بعديد الزيارات والتحركات خارج مقر اقامته بجنيف، من ذلك تحوّله في غضون سنة 1923 إلى استنبول بنيّة تكوين جبهة تركية-عربية لغاية مقاومة الفرنسيين وطردهم من سوريا ولبنان ولكنّ فتور استقبال أنقرة له جعله يتخلى عن مشروعه الطموح هذا ليتحوّل في سنة 1924 إلى برلين حيث قام بربط الصلة وعددا من أعيان سوريا المنفيين بالمهجر الذين تباحث معهم في المسألة السورية والسبل الكفيلة بتحقيق انفراجها،و في الأثناء قام بمساعي لدى الحكومة الألمانية التي تقدّره وتجلّه وخاصّة لدى صديقه فون روفونتلوف(Von Revontlow) بالتدخل لدى فرنسا لأجل القضية السورية- اللبنانية.

وعند اندلاع الثورة السورية الشاملة ضدّ الاحتلال الفرنسي في غضون 1925، تحت قيادة عدد من الزعماء المناضلين على رأسهم سلطان الأطرش كان شكيب أرسلان في منفاه محاميها وصحافيها وداعيها،فضلا عن إلحاحه على ابن بلده الدرزي سلطان الأطرش بالصمود في مقاومة المحتل الفرنسي وعدم إلقاء السلاح والاستسلام قبل تحقيق استقلال سورية ولبنان في مراسلات تتقد حماسا.

ولمّا شعرت فرنسا بخطورة الموقف بسوريا ولبنان لتواصل الثورة واتّساع رقعتها وفداحة الخسائر التي منيت بها قواتها دعت الزعماء السوريين واللبنانيين لوضع حدّ للاضطرابات الدامية التي حوّلت بلاد الشام وفلسطين وشرقي الأردن إلى ساحة قتال ملتهبة لا يمكن التنبؤ بعواقبها والدخول في مفاوضات تحتضنها العاصمة الفرنسية فكان شكيب أرسلان رغم عداوته الشديدة لفرنسا-من جملة الذين وقع استدعاؤهم للمشاركة في هذه المباحثات السورية الفرنسية صحبة ميشال لطف الله وإحسان الجابري،غير أنّ المحادثات التي جرت مع المفوّض السامي الفرنسي السيد دي جوفيينال (M.D Jouvenal) انتهت إلى طريق مسدودة فتوقفت،و عاد شكيب أرسلان إلى جنيف التي كان في مكتبه بها سنة 1926"سندات توكيل لأكثر من عشرين جمعية استقلالية في لبنان وسوريا توليه حق تمثيلها في المحافل الدولية"(1)

ثمّ وإثر تلقيه دعوة من الجالية السورية المقيمة بأمريكا لحضور مؤتمرها

1- شيّا،محمد،مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان.ص 524

سافر إلى هناك للمشاركة في أشغال هذا المؤتمر الذي التأم بمضيق ميشكان بين 15 و22 جانفي من سنة 1927 لدراسة الأوضاع التي تمرّ به سوريا واستشراف السبل الكفيلة بتغييرها تحقيقا لاستقلالها وقد كانت مساهمة شكيب أرسلان فعّالة في مداولات هذا المؤتمر لمعرفته العميقة المراحل التي قطعتها القضية السورية وإدراكه خصائص الفترة الدقيقة التي تمرّ بها سوريا في مسيرتها النضالية من اجل التحرر والاستقلال فضلا عن خبرته العميقة في شؤون السياسة الأوروبية، مما أهله أكثر من غيره لاقتراح أفضل السبل النضالية الكفيلة بتحقيق الحرية والاستقلال لوطنه سوريا ولبنان.

وقد جعل من مجلته"الأمة العربية"الفرنسية اللسان والتي أصدرها في غضون شهر مارس1930 صحبة صديقه إحسان الجابري صوت البعثة السورية الفلسطينية لدى عصبة الأمم وخادمة مصالح البلاد العربية والشرقية في أوروبا.

كل هذا وتعتبر سنة 1936 منعرجا تاريخيا حاسما في مسيرة سوريا ولبنان النضالية لما شهدته من اضطرابات وانتفاضات واحتجاجات تطالب فرنسا بالاستقلال،وإنهاء وصايتها عليهما.وفي هذا السياق أرسلت الجبهة الوطنية السورية بعثة إلى باريس للتفاوض ومع حكومة فرنسا،توّصلت إلى إبرام معاهدة معها تعلن فيها استقلال سوريا عن وصايتها،وكذلك كان شأنها في لبنان حيث أمضت معاهدة مماثلة في 13 نوفمبر 1936 تصرّح فيها بانتهاء وصايتها عليه ولم يبق شكيب أرسلان لامباليا إزاء هذه الاتفاقيات التي أبرمتها كلّ من سوريا ولبنان مع فرنسا بل تابعها واتخذ لنفسه موقفا سياسيا منها إذ اعتبرها طيبة، و نوّه بالفكر الذي أملاها لكونها تضع حدّا لفترة الشك والصراع والحقد التي كانت تطبع علاقة فرنسا بسوريا ولبنان لتنشئ صداقة مجدية قائمة على الاحترام والثقة والتعاون في كنف المساواة،ورغم عدم إسهامه مع البعثة السورية في المفاوضات التي أفرزت معاهدة الاستقلال،والصداقة فإنّ أعضاء البعثة أبوا إلاّ أن يمرّوا بجنيف في طريق عودتهم إلى سوريا،ليحيطوه علما بنصوص هذه المعاهدة و بنودها فاستقبلهم شكيب بحفاوة و هنّأهم بالفوز الذي نالوه أثناء مأدبة أقامها على شرفهم،كما كان هو الآخر محل شكر و تقدير من طرف أعضاء البعثة الذين عبّروا له عن عرفانهم بالجميل لإسهاماته الفعّالة في تحقيق الوحدة السورية و الاستقلال،وخلعوا عليه تسمية"أب المسلمين".

و في أواخر شتاء سنة 1936.وتحديدا يوم 14 فيفري نزل شكيب أرسلان بباريس التي أقام بها و قام باتّصالات بالطلبة السوريين الموجودين بها و لعلّه

يكون قد بحث معهم شروط عودته المحتملة إلى وطنه الأم سوريا-ولبنان،الذي دخله في 3 جوان 1937 مجاهدا مظفرا على متن الباخرة الإيطالية(Esperia) صحبة رفيقة في النضال إحسان الجابري،وحظي بحفاوة بالغة من طرف الساسة و الأهالي،ولكنّه لم يمكث به سوى بضعة أشهر ليغادره مجدّدا في 17 ديسمبر 1937 قاصدا جينيف للاحتجاج على فرنسا التي تنكرّت للمعاهدات التي عقدتها مع كلّ من سوريا و لبنان،و لمواصلة النضال الذي خاضه لحقبة تناهز العشرين سنة من أجل حرية بلاده واستقلالها.

وصفوة القول مثّلت قضية استقلال سورية و لبنان أحد شواغل شكيب أرسلان الأساسية في نضاله السياسي نظريا ومراسا و في هذا أصدق رمز على مدى وفائه لوطنه وفرط حبّه له،و لعلّ ما أرهف أحاسيسه هذه وقوّى وشائجه نحوه طول سنوات المنفى التي قضاها مغتربا في الديار الأوروبية.

الفصل الثالث

شكيب أرسلان و الحركة الكمالية

كان شكيب أرسلان من أوّل من عارض قيام الحركة الكمالية و احتجّ على سياسة مصطفى كمال أتاتورك وحكومته بأنقرة، فعرّض بهم وحمل عليهم بعد أن اكتشف مقاصدهم التي يمكن تحديدها في ثلاثة:

أ- تهوين الصلات الروحية التي كانت تربط الأتراك بالسلطة العثمانية،اتقاء رجوع آل عثمان للسلطة والقضاء على الجمهورية التركية الحديثة النشأة ولن يتسنّ تحقيق مثل هذا المأرب إلاّ بإبطال العمل بالشريعة الإسلامية تعاليم وأحكام وطقوسا وإلغاء جميع مؤسّساتها.

ب- فصل الترك عن المسلمين و العرب بإقناعهم أنّ انحطاطهم وليد الروابط التي كانت جامعة بينهم والعروبة والإسلام.

ج- إقناع أوروبا بتفرنج تركيا الكلي وأنّه صار من العدل إلحاقها بالعائلة الأوروبية.

لكلّ هذا خصّ شكيب كمال أتاتورك و جماعته بخسيس النعوت،فهم " الفئة الدسّاسة"و" روّاد الاستعمار"و" الملحدون"و"المسلمون الجغرافيون"و"أعداء الإسلام" و "المظللون" و "الكاذبون" و "المنافقون"و "الأدعياء"وجعل من دعوتهم "أغلوطة"و"خرافة"و"بهتان"و"تضليل".كما قرن اسم مصطفى كمال أتاتورك بنعت" الغازي" الذي لا يخلو هو الآخر من شحنة سلبية الدلالة.

وقد كان لمعارضته للحركة الكمالية وحملته على سياستها أن تعرّض للثلب والشتم لا من جهة قادتها الأتراك فحسب بل ومن طرف قادة مصر كذلك الذين انتصروا لزملائهم بأنقرة وساندوا دعوتهم فخصّوه بدورهم بأقذع الشتم وجام الغضب والنقمة.

ولم يكن موقف شكيب المناهض للحركة الكمالية انطباعيا بقدر ما كان منطقيا يعتمد جملة من القرائن التي تفنّد مزاعم قادة هذه الحركة الذين يسعون لبثها في أوساط الرعية كذبا وبهتانا لإظهارها بمظهر الحركة الثورية على مظاهر التخلف والانحطاط التي تطبع حياة الأتراك منذ أحقاب نتيجة

اعتناقهم الإسلام وعملهم بمبادئه واحتكامهم إلى تعاليم أحكامه.

ولقد كشف شكيب أرسلان المآخذ الأساسية لسياسة الحركة الكمالية مدّعما موقفه بالحجة والبرهان:

1- خطأ فهم الكماليين لمبدأ فصل الدين عن السياسة في أوروبا

ركّز الكماليون دعوتهم على مبدأ أساسي يقوم على وجوب فصل الدين عن السياسة اقتداء بالحكومات الأوروبية.ففهموا من هذا المبدأ أنّه يهمل الدين ويجرّد حكومات الشعوب من كلّ صبغة دينية.وبذلك يقصر اهتمامها على الأمور المدنية فحسب.فأبرز شكيب أرسلان خطأ فهم الكماليين فصل الحكومات الأوروبية الدين عن السياسة،والذي هو في حقيقته فصل ظاهري أمّا في الجوهر فإنّ هذه الحكومات هي أشدّ الدول حماية للنصرانية عموما سواء تعلّق الأمر بدولة فرنسا أو مملكة بلجيكا أو انغلترا أو ألمانيا فكلّها تعمل في الداخل على الحفاظ على سلامة مقوّمات الديانة المسيحية وفي الخارج تسعى لنشرها بين الشعوب التي تستعمرها.ثمّ بيّن أنّ هذا الفصل "فصل إداري،كما هناك فواصل في سائر فروع الإدارة بعضها عن بعض وأنّه ليس من المعقول أنّ الدول الراقية لا تكترث لأمور الدين وهو الذي عليه تحيا ويموت السواد الأعظم من رعاياها فالدولة التي لا تهتّم بأمور رعاياها الدينية تكون جاهلة معنى السياسة بالمرّة وإمّا أن تنفصل الأمور الدينية عن الأمور الدنيوية فذلك ضروري لا نزاع فيه إلاّ أنّه لا يفيد أنّ الدولة بفصلها هذا عن ذلك قد أهملت تعزيز قومها،بل نحن أو لا نجد ملوك أوروبا و رؤساء جمهورياتها،و رؤساء جمهوريات أمريكا لا يدعون فرصة لتعزيز المبدأ المسيحي والتصريح على الملأ بالعمل في سبيله إلاّ انتهزوها"(1)

وبهذا يكشف شكيب أرسلان أنّ فصل الدين عن السياسة لا يفيد في البلاد الراقية إهمال الدين وإبطال تعاليمه وممارساته بين أفراد الأمّة ولا تجريد حكومات هذه البلاد المتحضرة من كلّ معالمه لأنها"ممثلة الشعوب،فكما تكون الشعوب تكون الحكومات،وما دامت أوروبا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية قولا واحدا"(2).ثمّ ينتهي إلى إبراز العلاقة العضوية التكاملية بين كلتا السلطتين السياسية والدينية،فيبيّن أنّ "السلطة السياسية بيدها السيف ولها حقّ القصاص إن لزم،كما أنّ السلطة الروحية لها حقّ الوعظ وحقّ التحليل وكلا نوعي الأحكام الزمنية والروحية يجب أن ينبني على الكتاب المقدس"(3).

وهكذا فإنّ التجدّد الذي تدعو إليه الثورة الكمالية إن هو إلاّ إلحاد في منظور شكيب أرسلان، وسفسطة لا غنى منها، وتضليل لأفكار السذج من الرعية وتمويه عليهم، وبذلك فإنّ الحكومة التركية الداعية إلى فصل الدين عن السياسة لتحقيق النهضة العصرية إن هي إلاّ كاذبة فيما تزعمه و تدعو إليه، الأمر الذي يستوجب التّنبه واليقظة الدائمة ذلك أنّ البلاد الأوروبية تضع الدين المسيحي والخضوع للكنيسة قبل كل اعتبار ثمّ يأتي الوطن بعد ذلك.

2- تناقض السياسة الكمالية في الفصل بين الدين والسياسة

لئن أعلنت حكومة أنقرة أنّها حكومة لا دينية عملا بمبدأ الفصل بين الدين والسياسة الذي تعتمده الحكومات الأوروبية المتمدنة فإنّ التناقض يسم سياستها و يجعلها مذبذبة بين الأمرين، ويكشف شكيب أرسلان هذا التذبذب من خلال إيراده لمثالين يتمثّل أولهما في كون الحكومة الكمالية رغم إعلانها لائكيتها"لا تزال كلّ يوم تصدر أوامر وتسنّ قوانين متعلقة بأمور دينية محضة من جملتها الصلاة باللغة التركية"(4)وثانيهما أنّ الكماليين بعد أن أبطلوا إقامة مراسم عيدي النحر والفطر لبضع سنوات وإنكارهم معرفة الحكومة التركية لهما"وجدوا فيما بعد أنّ المأمورين شاء رئيس الجمهورية أم أبى لابدّ لهم من الاحتفال بهذين العيدين فعادوا في السنة الماضية يعطلون دوائر الحكومة فيهما وعاد رئيس الجمهورية يقبل، فيهما التهاني"(5).

وهكذا ينتهي شكيب أرسلان إلى الإقرار بأنّ حكومة تركيا الكمالية تناقض نفسها بنفسها عندما تعلن اقتدائها بالحكومات الأوروبية الراقية في فصل الدين عن السياسة، "وهي تتدخل كلّ يوم في الأمور الدينية الصرفة على حين أنّ فصل الدين عن السياسة معناه أنّ الحكومة لا تتدخل أصلا في أمور الدين وتترك هذه الأمور لرؤساء الدين وحدهم"(6).

كلّ هذا، ويؤكد شكيب أرسلان أنّ الأمّة التركية لا تزال متمسكّة بعروة الدين الإسلامي رغم النظم والقوانين اللادينية التي سنّها لها الكماليون وأجبروها على تنفيذها.ولئن صبرت على هذه السياسة الكمالية وما تبعها من نيل من حرمات الإسلام ومقدّسات المسلمين، فخشية اندلاع الفتن الداخلية التي لم يتوان الأعداء الكثيرون في استغلالها مطية لتدخلهم في شؤونها وبسط نفوذهم على ربوعها.

3- براء الإسلام من تخلّف الأتراك و انحطاط المسلمين حاضرا

أرجع مصطفى كمال أتاتورك و جماعته رقي الأمة الأوروبية إلى اختيارها

اللائكية عمود سياستها، ثمّ أقرّوا بأنّه لم يبق من يقيم للدين وزنا إلاّ دول الإسلام ولأجل هذا فهي متأخرة متقهقرة،لأنّ تعاليم الشريعة الإسلامية ومبادئها لم تعد تتماشى ومقتضيات الحضارة الغربية المعاصرة،ومن ثمّة دعوا الأتراك في مرتبة أولى،وعامّة المسلمين في ثانية–إن أرادوا تحقيق النهضة العصرية واللحاق بمصاف الأقطار الأوروبية–أن ينسلخوا عن العقيدة الإسلامية وينصرفوا عنها بالانقطاع عن العمل بنظمها و قوانينها.

وأمام هذه الافتراءات لم ير شكيب أرسلان بدّا من الردّ على هؤلاء"الملاحدة" بإبراز أنّ الدين الإسلامي لم يكن في يوم ما عائقا في طريق نهضة أمّة الإسلام وتقدّمها بل"نجح في أكثر من دور في إقامة الدولة الفاضلة وبناء المجتمع الفاضل مجتمع الدين والدنيا"(7)،وأنّ تخلّف الترك وانحطاط المسلمين لا يعودان إلى الدين بل تسبّبت فيهما عديد العوامل الأخرى المتفاعلة التي تعود إلى جوهر المسلمين الذين تكمن في ذواتهم الأزمة لا في شريعة الإسلام.

ذلك أنّ الإسلام دين راق بذاته و أنّ القصور لا يكمن فيه بل في المسلمين أنفسهم،وأنّه كما استطاع في الماضي أن ينبني مدنية دانت لها الأمم طيلة أربعة قرون" و قدّمت إلى الإنسانية إنجازات بغير حدّ،في كلّ أرض وميدان وأوغلت في تقدير العلم والتجربة والبحث فدفعت مسيرة العلم إلى الأمام"(8) فهو قادر في الزمن الحاضر على أن يساهم بفعالية في تقدّم المسلمين و رقيّهم الحضاري.

ثمّ يؤكد شكيب ألاّ تناقض بين الإسلام والرقيّ مثلما يدّعي ذلك جحدة الإسلام ليقرّ أنّ المسلمين"يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرّضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء وأن يبقوا على إسلامهم كما يبقى أولائك على أديانهم بل هم أولى بذلك و أحرى"(9).

ثمّ يختتم بالتأكيد على أن"مدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ أنّ ليس من أمّة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانغليز أو الطليان إلخ إلاّ و عندهم تآليف لا تحصى في مدنية الإسلام،فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه مبنية على كتابه وسنّته ما كان علماء أوروبا حتّى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ومن سرد تواريخها ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ومن تبيّن الخصائص التي انفردت هي بها"(10).

وهكذا فمن اظلم الظلم أن يجعل الإسلام سبب تخلّف الأمّة التركية

والإسلامية بل إنّه سلاح تقدّم المسلمين وحدّ الغزوة الأوروبية التي يدقّ نفيرها مغربا و مشرقا.

ولئن حمل شكيب أرسلان على معالم هذه السياسة الكمالية فإنه يستثني الشعب التركي الذي يعتبره ضحيّة ويكنّ له كلّ تقدير واحترام حيث يقول: "...إلاّ أنّي لم أرض ولا في وقت من الأوقات أن تقال كلمة سوء واحدة بحقّ الأمّة التركية نفسها التي لا يجوز العدل أن يؤاخذها المؤاخذة بأعمال حكومتها الحاضرة وهي تنكر هذه الأعمال ما ينكره العرب وأشدّ ممّا ينكره العرب"(11)،ثمّ يؤكد على العلاقة التكاملية الجامعة بين العرب والترك لاشتراك المصالح وتوحّد الأهداف"...ونحن والترك وإن انفصلنا في السياسة فلا نزال نريد خيرهم ونعلم أنهم يريدون خيرنا و هم يعلمون ونحن نعلم أنّ عدونا واحد وأنّ الخطر لا يأتي إلاّ من الجهة التي يكون الخطر فيها عليهم"(12).

وصفوة القول أنّ شكيب أرسلان لا يعتقد دوام هذه الحركة الكمالية واستمرارها لأسسها الهشّة التي أقامت عليها سياستها،وبذلك فهي ليست سوى:"سحابة صيف لابدّ أن يأتي وقت تنقشع فيه وتعود الأمور إلى نصابها"(13).

الهوامـــش

1) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج3، ص 357.
2) نفس المصدر، ج3، ص358
3) نفس المصدر، ج3، ص 364
4) نفس المصدر، ج3، ص 364
5) نفس المصدر، ج3، ص 352
6) نفس المصدر، ج3، ص 359
7) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص537
8) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص119
9) أرسلان، شكيب: لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدّم غيرهم، ص164
10) أرسلان، شكيب: حاضر لعالم الإسلامي، ج1، ص 119
11) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص184، عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة"الفتح"، 15ذي الحجة سنة 1350 هـ
12) شيّا، محمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، ص543
13) نفس المرجع

الفصــل الرابــع

شكيب أرسلان و القضية الفلسطينية

"أوصيكم بفلسطين..."
شكيبَ أرسلان

مثلت القضية الفلسطينية شاغلا هامّا في مسيرة نضال شكيب أرسلان السياسي ضدّ الاستعمار الأوروبي عامّة والانغليزي-الصهيوني على وجه أخص. فاقتناعا منه عربيا مسلما بعدالتها، وشرعية النضال في سبيل تحرير فلسطين الأرض السليبة، انتصب يدافع عنها عبر ما كان ينشره من مقالات صحفية متحمّسة، وحاملة على الانغليز الذين كانوا السبب في إنشاء الكيان الصهيوني وبعثه إلى الوجود باقتطاعهم جزءا من فلسطين، ومساعدة زعماء الحركة الصهيونية بكلّ الوسائل-إضافة إلى ضمان حمايتهم من كلّ ما عسى أن يهدّدهم من أخطار، أو من خلال ما كان يلقيه من خطب في المحافل الدولية ولدى الهيئات الرسمية، ما فتئ يشرح فيها ملابسات القضية الفلسطينية وشرعية مناصرتها، والتعاطف معها والدفاع عنها. هذا إضافة إلى ما بذله من مجهودات مضنية جسّدتها حركيته في المؤتمر السوري-الفلسطيني، واتصّالاته بأبرز زعماء السياسة الغربيين سعيا لتغيير نظرتهم وموقفهم من المشكل الفلسطيني.

وتكمن أهمية تصوّر شكيب أرسلان للقضية الفلسطينية وموقفه منها، في أنّه كان أوّل من تفطّن منذ سنة 1912 إلى المخطط الاستعماري التوّسعي الذي كانت تعدّه، كلّ من انغلترا وفرنسا قصد مزيد تقسيم البلاد العربية الإسلامية بينهما والتساوي والتراضي وفي كنف الكتمان والتستّر. وينصّ هذا المخطط-الذي توصّل شكيب إلى اكتشافه في طور الضبط وقبل أن ينتقل إلى طور التنفيذ العملي-على أن تكون كلّ من مصر وفلسطين من نصيب أنغلترا في حين تكون سوريا ولبنان والأردن من نصيب فرنسا. كلّ هذا قبل أن يصدر بلفور وعده لليهود بإنشاء وطن لهم في فلسطين، وكذلك قبل أن تعلن عصبة الأمم الوصاية البريطانية على ارض النبوات. ولمّا وعى شكيب أرسلان خطورة هذا المخطط

الذي يدبّر في الخفاء ضدّ أقطار الأمّة العربية-الإسلامية، بادر إلى تنبيه شعوب هذه الأقطار إلى المخاطر التي تحوق بهم وتهدّد أمنهم واستقلالهم في المستقبل القريب و تهدّد أرض فلسطين بالضياع من أيديهم كما ضاعت أرض الأندلس، فأنذرهم مرارا من مغبة تواصل الخلافات والصراعات والحروب بينهم ودعاهم إلى التوحّد ونبذ الخلافات الهامشية التي تغذّيها الدول الاستعمارية في الخفاء ولكن لم تجد دعوته هذه الآذان الصاغية.

وفعلا فقد صدّقت الأحداث تنبؤاته بضياع فلسطين العربية-المسلمة، عند إعلان عصبة الأمم الانتداب البريطاني على ربوعها. وهوالحدث الذي كان له بالغ الأثر في نفس شكيب أرسلان الموجود آنذاك ببرلين، حيث نزل عليه نزول الصاعقة بقوله: "..بقيت أيّاما لا أعي من الغمّ لذهاب هذا البلد المقدّس من يد الإسلام بعد أن بذل عليه المسلمون ما بذلوا من دماء، وأموال حتّى استخلصوه من أيدي الصليبيين"(1).

و فضلا عن ذلك، فقد تنبّأ شكيب أرسلان بتقسيم الانغليز أرض فلسطين و باقتطاع قسم منها لتوطين اليهود وثانية تصدّق الأحداث قوّة فراسته، بتعمّد انغلترا تجزئة فلسطين إلى أقسام ثلاثة: قسم شرقي جبلي وقع ضمّه إلى مملكة شرقي الأردن التي يتولى أمرها الأمير عبد الله، وقسم غربي يشمل سواحل فلسطين الشمالية وأخصب بلادها ويكوّن دولة يهودية مستقلة لها حكومتها وإدارتها ودستورها وشعبها الذي سيهاجر إليها من كلّ بلاد العالم، ثمّ قسم ثالث يشمل بيت المقدس وسواحل حيفا يبقى تحت الانتداب الانغليزي بدعوى حماية الأرض المقدّسة ومجرى نفط الموصل.

ويرجع شكيب أرسلان توصّل أنغلترا إلى تنفيذ مخطّطها الاستيطاني إلى تخاذل العرب ماضيا عند إقدامها على اقتطاع بلاد فلسطين من سورية والذي رأت فيه خير حافز لها على بعث الدولة الصهيونية بالأرض المقدّسة لانعدام أيّة مقاومة عربية-إسلامية فعليّة، إذ اعتادت أن ترى العرب يكتفون دوما بالوعيد والاحتجاج دون أن يتجاوزوا ذلك إلى الفعل على خلاف الصهاينة الذين يعملون في الخفاء بالاعتماد على القوّة و المال وتقديم الفعل على القول.

1 - تمييز شكيب أرسلان بين اليهودية و الصهيونية

إنّ المثير للانتباه في موقف شكيب أرسلان من القضية الفلسطينية تمييزه بين اليهودية شريعة سماوية أنزلها الله على نبيه موسى هداية لبني إسرائيل، وبين الصهيونية مذهبا سياسيا، عنصري المعالم، توسّعي الأبعاد، تبنّت الدعوة

إليه فئة من اليهود لغاية تكوين دولة يهودية بفلسطين في مرحلة أولى،ثمّ إنشاء دولة إسرائيل الكبرى على امتداد بلاد الرافدين في مرحلة لاحقة.

ولئن بادرنا إلى إيضاح هذه الإشكالية فلكي نبرز حقيقة موقف شكيب أرسلان من المسألة الفلسطينية الخالي من كلّ تعصّب ديني وعرقي،إذ كان شكيب أرسلان من دعاة حرية الاعتقاد،والتسامح الديني بين أتباع مختلف الديانات التي لا تجوز المفاضلة بينها لأنّها كلها سماوية المصدر.واعتمادا على هذا التصوّر الأرسلاني لقضية تعايش الأديان وأتباعها يمكننا أن نتبيّن خصائص موقفه من الحركة الصهيونية مذهبا سياسيا.

2- حملة شكيب أرسلان على الحركة الصهيونية

يتمثّل منطلق حملة شكيب أرسلان على الحركة الصهيونية في رفضه القطعي استيلاب استقلال الدول الضعيفة والتعدّي على حرمتها الترابية وامتهان كرامة شعوبها.ولمّا عمدت الحركة الصهيونية إلى ممارسة هذا النوع من السياسة باغتصابها جورا بلاد فلسطين وتركيز دولة يهودية بها،فقد بادر إلى الحملة عليها بدحض كلّ الافتراءات التي سعى قادتها إلى ترويجها في مختلف أوساط الرأي العام العالمي،حتّى يكسبوا حركتهم سمة الشرعية الدولية بالردّ على مزاعم وايزمان أحد مؤسّسي الدولة الصهيونية المبنية على النظرية التالية:بما أنّ اليهود أقوام مشتّته في كلّ بلاد المعمورة،لابدّ لجمع شتاتهم من إيجاد ارض يستوطنون بها حتّى يكوّنوا شعبا مستقلا له وطنه ودولته وكيانه، بعيدا عن شبح الفناء الذي ظلّ يهدّدهم لحقب زمنية متجذّرة في القدم،فيبرز شكيب أرسلان هشاشة أسس هذه النظرية الخاطئة من منطلقها بقوله:"...إذا كان الله حكم على اليهود بأن يشتتوا أيدي سبا ولا تكون لهم مملكة،أفيكون العرب مسؤولين عن ذلك.ويجب أن يعاد شمل هذه الأمّة على ظهر العرب ومن كيس العرب.إنّ 14,5 مليونا من هذا الشعب اليهودي هو في أوروبا وأمريكة،إذ كان الأولى بالأوروبيين الذين هم في ديارهم أن يجمعوا شملهم إلى مملكة واحدة وأن يعيدوا إليهم حقهم الضائع من كيسهم لا من كيس غيرهم لا أن تقتطعهم انغلترا ملك العرب الذي يتصرّف به العرب من 1300 سنة"(2).

ثمّ يؤكد شكيب لقادة الصهيونية وزعمائها و لأنغلترا حاميتهم أنّ" العرب لم يموتوا و لن يتخلوا عن وطن عربي بحت هم سادته من ثلاثة عشر قرنا لأجل عاملكم الديني أو الاقتصادي"(3).وبذلك فإنّ شكيب أرسلان يقرّ بلا شرعية وجود الكيان الصهيوني،من طرف كلّ الدول المحبّة للعدل،والمناصرة

للسلام،لتشكيله خرقا صارخا للشرعية الدولية التي ترفض مبدأ الاعتداء على سيادة شعب حرّ،له وطنه وتاريخه وديانته ولغته وتراثه الحضاري.ولكلّ هذا يؤكدّ أنّه : "..ممّا لا خلاف فيه هو أنّ الصهيونية(أي الوطن القومي الصهيوني) في فلسطين اعتداء محض وتجاوز بحت لا يفترق بشيء على اعتداء لصّ من قطاع الطريق على عابر سبيل يسلبه ماله وثيابه"(4).

وأمام اغتصاب الصهاينة لأرض فلسطين بالقوّة،وتمثيلهم بالأهالي الفلسطينيين– بالتواطئ مع الانغليز–منتهكين بذلك كلّ المواثيق الدولية الخاصّة بحقوق الإنسان في الحياة الحرّة الكريمة،يكتفي العالم العربي–الإسلامي بالتلويح بشعارات الوعيد.وإرسال برقيات الاحتجاج والتنديد الأمر الذي أثار سخط شكيب أرسلان على سلبية العرب و المسلمين لإدراكه مسبقا– شأنه في ذلك شأن الصهاينة و الانغليز– أنّ ردود الفعل هذه لا تثني الغاصب عمّا يقترفه بل و لربّما تكون له بمثابة المشجع على المزيد من تكريس السياسة التعسفية التوسعية.إذ يعتقد شكيب أنّ اللوم من هذا القبيل كثيرا ما يكون بمثابة الإغراء،والتحريض لصهاينة اتخذوا من السلاح لغة تعامل مع غيرهم ووسيلة لطرد العرب الفلسطينيين من أرضهم،و بذلك يعتقد شكيب أرسلان في لا جدوى الوسائل الخطابية والبلاغية التي تميّز موقف العرب والمسلمين من القضية الفلسطينية إذ يرى أنّ انغلترا:"إن وجدت أنّ المسلمين لا ينصرون فلسطين إلاّ بكلمات تنتشر فوق أعمدة الصحف أو أقوال ترتّل فوق أعواد المنابر.فإنّها ستستمرّ على إعانة الصهيونية وستنفذ طوعا أو كرها برنامج التقسيم،فانغلترا لا ترهب إلاّ القوّة وهي في مواقفها الحاضرة أشدّ رهبة من القوّة منها في أيّ وقت مضى"(5).وما يؤلم شكيب أرسلان ألاّ تغيير يذكر في الطرق التي يجنح إليها القادة العرب لمعالجة قضاياهم المصيرية من تنديد ووعيد.إلى الشكوى و الاستعطاف،إلى طلب التوسّط من لدن المنظمات الأممية المختصّة وحتّى الدول الكبرى المتواطئة مع بعضها البعض.

لكلّ هذا يرى شكيب أرسلان أنّه يتحتّم على العرب والمسلمين عامّة والفلسطينيين على وجه أخصّ أن ينتهجوا مجموعة من السبل في كنف الوحدة والحزم تجعلهم يشكّلون قوّة مهابة قادرة على تحرير أرض فلسطين المغتصبة،و أبرزها :

1– التضامن العربي– الإسلامي

يعتقد شكيب أرسلان أنّه لا يمكن لإنغلترا الباعثة للكيان الصهيوني

الحامية له أن تراجع سياستها إزاء القضية الفلسطينية إذا ما بقي العرب والمسلمون على تخاذلهم و صراعاتهم واختلافاتهم وتشتتهم واستنزاف قواهم في حروبهم الدائرة رحاها فيما بينهم،ذلك أنّ هذه الأوضاع المتردية التي تسم الساحة العربية-الإسلامية لن تزيد انغلترا والصهاينة إلاّ عزما على المضي قدما في سياستهما التوسعية الاستيطانية بأرض فلسطين.لذا فإنّ تضامن العرب والمسلمين حتمي وضروري في هذه المرحلة حتّى تعلم انغلترا وحليفاتها من الدول الكبرى واليهود أنّ العرب والمسلمين قادرون أن يضرّوا عند الاعتداء وينفعوا عند السلم،أمّا إذا ما أنست انغلترا من الملوك والرؤساء العرب والمسلمين التخاذل فإنّها ستستمر في نصرة الصهاينة،بينما إذا ما اتّحد العرب والمسلمون فستخشى انغلترا ردّهم،وستجد نفسها مجبرة على إعادة النظر في سياستها الصهيونية لخوفها من تعرّض مصالحها السياسية والاقتصادية في البلاد العربية الإسلامية للخطر.

ويبرز شكيب أرسلان أنّ هذا التضامن والاتحاد العربي-الإسلامي يجب أن يقوم على أساس الاقتناع بأنّ قضية فلسطين ليست مسألة تهمّ الفلسطينيين فحسب بل هي مسألة العالم العربي-الإسلامي قاطبة،وأنّ كلّ اقتطاع من أرض فلسطين إنّما هو حزّ في رقبة العرب و نحر للعالم الإسلامي من وريده.

2 - الإخاء الفلسطيني- الفلسطيني

يعتقد شكيب أرسلان أنّ التضامن العربي-الإسلامي لا يمكن أن يحقّق أهدافه المرجوّة ما لم يجد الأرضية المناسبة التي يجسّدها تضامن الفلسطينيين فيما بينهم بتجاوز خلافاتهم الإيديولوجية و منافساتهم حول الزعامة والرئاسة والقيادة،ذلك أنّ هذه الانقسامات تفيد الانغليز والمحتلّ الصهيوني وتلحق بالغ الضرر بالفلسطينيين وقضيتهم المصيرية،فنبّه الفلسطينيين إلى هذه الحقيقة المرّة بقوله: "..إنّ اختلاف أعيان فلسطين لأنّ الأعيان هم الذين اختلفوا- ومنافساتهم ومزاحماتهم على العضوية والرئاسة وما أشبه ذلك قد قوّت آمال الإنغليز واليهود على إنفاذ البرنامج الصهيوني وأضرّت جدّا بالعرب ويا للأسف".(6)

ثمّ لا يتردد شكيب أرسلان في الإصداع بهذه الحقيقة الجريئة للفلسطينيين والتي تتجسّد في قوله: "إنّ بقاء فلسطين بلادا عربية أو تحوّلها يهودية وطرد العرب أخيرا منها ذلك منوط بالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب و لهذا بلاغ لقوم يعقلون"(7) وبذلك فإنّ شكيب يؤمن أنّ مفتاح تحريـــر أرض

فلسطين يمتلكه الفلسطينيون قبل غيرهم من سائر العرب و المسلمين.

3- الاتحاد العربي- الإسلامي- الفلسطيني

لئن كان اليهود في الدنيا بأسرها لا يبخلون على إعانة إخوانهم بالمال وكلّ ما يقدرون عليه من أنواع التضحية،فهل المسلمون والعرب ناسجون على نفس المنوال؟

يبرز شكيب أرسلان أنّ واقع العرب والمسلمين يعكس نقيض هذا،لما أظهره هؤلاء من تخاذل وتقاعس في إعانة إخوانهم الفلسطينيينَ على دفع مسيرة نضالهم ضد الاستعمار المزدوج: الانغليزي -الصهيوني،بل الأدهى من كلّ ذلك تعمد الكثير من العرب بيع ضمائرهم للأعداء وخيانة قضية فلسطين عن طريق الوشاية أو الجوسسة أو حتّى مقاتلة إخوانهم الفلسطينيين إلى جانب الإنغليز والصهاينة.ويصف شكيب مرارة هذه المفارقة بقوله: "...بينما دماء المجاهدين تسيل لأجل حفظ فلسطين للعرب نجد دماء عساكر عربية في شرق الأردن لأجل إخراج بلاد فلسطين وشرق الأردن نفسها بعد فلسطين من أيدي العرب: فهل يبلغ العدوّ من عدوّه أكثر مما بلغ العرب من أنفسهم؟ لا والله؟(8)

ثمّ يتحسّر شكيب لقعود العرب والمسلمين عن نصرة إخوانهم الفلسطينيين بالمال مفندا كلّ التعلات التي يبّرر بها هؤلاء هذا الموقف المتخاذل بقوله: " إن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين، فالمسلمون أكثر جدًا بالعدد لأنّ اليهود عشرون مليونا و المسلمون نحو400 مليونا،فلو أنّ كلا من المسلمين تبرّع لفلسطين بقرش واحد و هو الذي لا يعجز عنه أحد في العالم مهما اشتدّ فقره لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جينه ونصف.

فلنترك تسعة أعشار المسلمين و نفرض هذه الإعانة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على 35 مليون نسمة لا غير.وهؤلاء 35 مليونا نسمة نجدهم حول فلسطين في لمحة البصر.فإنّ مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم 35 مليونا،و لنتقاض من هؤلاء أداة قرش واحد عن كلّ جمجمة فماذا تجتمع لنا من ذلك؟ الجواب: تجتمع ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه. فالمسلمون قد تبرّعوا عن هذه الأعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه.
أهذا ما تريدون أن تسمّوه تضحية؟
أو بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم؟
أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين و جيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين وأوّل القبلتين؟ أفهـــذه

نجدة الأخ لأخيه؟(9)

وهكذا استنهض شكيب أرسلان العرب.المسلمين على الإسراع لنجدة إخوانهم الفلسطينيين ببذل النفس والمال إقتداء بالنصارى واليهود الذين لا يتوانون عن بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل نصرة بعضهم البعض ودحر البعض كلّ خطر أجنبي يهدّد سلامة جزء من أوطانهم.

ففلسطين السليبة في نظر شكيب أرسلان أضحت الخطر الداهم الذي يهدّد الكيان العربي-الإسلامي في الحالّ والاستقبال. ولذلك فإن ضاعت فلسطين فلن تذهب ضحية الصهاينة بل ضحية تخاذل العرب والمسلمين وتقاعسهم عن نصرتها لإنشغالهم بخلافاتهم وصراعاتهم فيما بينهم.

وفي هذا السياق يدعو شكيب أرسلان العرب والمسلمين إلى نوعين من المقاطعة تجاه اليهود و خاصّة انغلترا حاميتهم:

1- المقاطـــعة السياســية

يعتقد شكيب أرسلان أنّ تجميد أو قطع كلّ العلائق الديبلوماسية بين العرب والمسلمين و انغلترا من شأنه أن يفقد هذه الأخيرة مكانتها البارزة التي تتمتّع بها في منطقة الشرق الأوسط،ويهدّد مصالحها الحيوية. وبالتالي يضعف إلى حدّ كبير من نفوذها على دول المنطقة،وتأثيرها فيما يجد فيها من أحداث. ولا يقف شكيب عند هذا الحدّ بل يدعو الدول العربية و الأسلامية إلى ربط صلات صداقة وتعاون مع أعداء انغلترا في البحر المتوسط وأوروبا بالذات حتى تجد انغلترا نفسها معزولة سياسيا تشكو الاختناق فتضطرّ إلى مراجعة سياستها الصهيونية،وحتّى إلى التخلي عن مساندة الكيان الصهيوني. وإعانته وحماية وجوده لشعورها بتهدّد مصالحها الحيوية في المنطقة.وبذلك لن تقدم أبدا على إغضاب العرب وتحدّيهم لإدراكها مدى حاجتها إليهم أثناء الحرب المقبلة وأنّ انضمامهم إلى أعدائها خلال تلك الحرب سيكون من أسباب اندحارها. واقتناعا بوجوب جعل المصالح الحيويّة الانغليزية بالمنطقة العربية في خطر، يدعو شكيب أرسلان إلى نمط ثان من المقاطعة،يتمثّل في :

2- المقاطعــة الاقتصاديـــة

تتمثل في تجميد البلدان العربية و الإسلامية مبادلاتها التجارية مع انغلترا الأمر الذي ستكون له وخيم العواقب على اقتصادها الذي سيشهد كسادا في مختلف الميادين بناء على أنّ البلاد العربية والإسلامية تشكل الأسـواق الرئيسية –الحيوية التي تروّج فيها انغلترا شتّى أنواع بضائع مصانعها.

ويعتبر شكيب أرسلان أنّ المقاطعة الاقتصادية سواء لأنغلترا أو لغيرها من الدول الاستعمارية الأوروبية يعدّ السلاح الأخطر الذي تخشاه هذه الدول– دون غيره–لأنّه يحدّد مصير اقتصادها،وعليه يتوقف اطراد تقدّمها الحضاري.

هذه جملة السبل التي يراها شكيب أرسلان كفيلة بمقاومة انغلترا والصهاينة،قصد تحرير فلسطين،وألاّ سبيل إلى التجاء العرب والمسلمين إلى المعهود من الوسائل التقليدية التي غالبا ما اقتصرت على الاحتجاج والتنديد في ظروف تزهق فيها أرواح الفلسطينيين ظلما،وتنتهك حرماتهم وتنسف ديارهم والعالم مشغول عنهم بأزماته وتوتّراته.

لكلّ هذا دعا شكيب أرسلان العرب والمسلمين إلى توخي أسلوب نضال حازم يقوم عل القوّة اقتناعا بأنّ الحقّ إذا ما لم يعتمد على القوّة المتينة فهو باطل و أنّ الباطل المعتمد على القوّة المتينة هو الحقّ المتين.

وهكذا فإنّ طرافة هذه السبل التي ارتآها شكيب أرسلان لتحرير فلسطين من العدوّ الانغليزي الصهيوني الغاصب تكمن في معاصرتها،وصلوحيتها للأوضاع الراهنة للعرب والمسلمين،بصفة عامة،والفلسطينيين على وجه أخصّ فالبنسبة لواقع العرب والمسلمين لا يزال على الحال التي صوّره عليها شكيب أرسلان من صراع واختلاف وتناحر وفرقة.بل إنّ هذه الأوضاع قد ازدادت حدّة عمّا كانت عليه في عصر شكيب.وبذلك فإنّ دعوته العرب والمسلمين إلى الاتحاد وتجاوز خلافاتهم الهامشية لتكوين قوّة قادرة على إرهاب العدوّ وإحباط مخططاته التوسعية لا تزال صالحة في عصرنا الحاضر كذلك الشأن بالنسبة لدعوته الفلسطينيين إلى التضامن ونبذ خلافاتهم على القيادة والسلطة والزعامة،إذ أنّ علاقة الفلسطينيين فيما بينهم في العصر الحديث تشكو الانشقاق والتصدّع اللذين بلغا حدّ المواجهة والاقتتال بين الاخوة الفلسطينيين الأشقاء الذي جسّدته أحداث طرابلس لبنان الأليمة التي أريقت فيها الدماء الفلسطينية بأيد فلسطينية،كذلك الشأن بالنسبة لتواطئ جزء من العرب والفلسطينيين مع العدوّ الصهيوني بأرض فلسطين ممّا يسّر تسرّب الدول العظمى إلى عدد من الأقطار العربية الإسلامية المتاخمة للكيان الصهيوني الدخيل وخاصة: القطر اللبناني.

كلّ هذا يؤكد صدق فراسة شكيب أرسلان،وثاقب نظرته السياسية،وقوّة حدسه في استقراء الأحداث السياسية قبل وقوعها لطول حنكته السياسية وعميق خبرته للسياسة تقلّبات وأحداث،وأحوال ساسة.

وختاما كيف تتراءى آفاقا القضية الفلسطينية في وعي شكيب أرسلان السياسي؟ وكيف يبدو له مستقبل الصراع العربي–الصهيوني؟ وهل من بشائر حلّ سلمي يضع حدًّا لمضاعفات هذه القضية،وما تشكله من مخاطر على استتباب الأمن بمنطقة الشرق الأوسط بصفة خاصّة،والسلم العالمية بصفة أعمّ؟

3 – آفاق الصراع العربي الصهيوني في وعي شكيب أرسلان السياسي

لئن دعا بعض الساسة إلى التصالح العربي–الصهيوني لتحقيق سلم دائمة بين الطرفين المتنازعين اللذين يهدّدان الأمن العالمي،فإنّ شكيب أرسلان لم يكن من المتحمّسين لمثل هذه الدعوة،وذلك لانعدام شرعية هذه الصلح في وعيه السياسي،ذلك أنّ الصلح غالبا ما تعقد بين خصمين لكلّ منهما شبهة حق فيما يدّعيه،بينما الأمر يختلف—حسب شكيب أرسلان—في القضية الفلسطينية التي نجد فيها صاحب الحقّ–الفلسطينيين–وقد انتزع هذا الحقّ منه من قبل دعيّ باطل،أصبح لا حقّ له وأضحى المدعي هو صاحب الحق الفعلي،وبذلك فعلى أيّ أساس يمكن لهذه الصلح أن تتمّ بين العرب أصحاب الحقّ في فلسطين وساكنيها منذ قرون و بين هؤلاء الصهاينة الذين استوطنوها غصبا ووفدوا عليها من كلّ الفجاج بعد طول تشرّد وتشتّت.ولهذا يرّد شكيب أرسلان على الدعاة إلى مثل هذه الصلح بقوله: "...والذين يدعون إلى الصلح بين العرب واليهود، هم أشبه بمن يدعون عابر السبيل المسلوب ماله والمجرّد من ثيابه إلى مصالحة اللصّ الذي اعتدى عليه،و ينسون أنّ هناك فرقا عظيما بين المتنازعين في أمور قد توجد فيها شبهة حقّ، و بين المتنازعين فيما لا حقّ فيه إلاّ بردّ المال إلى صاحبه مع تضمينه العطل و الضرر"(10).

وصفوة القول أنّ هذه الصلح التي يدعو إليها البعض تفتقد حسب تصوّر شكيب أرسلان السياسي لجوهر القضية الفلسطينية– إلى المبرّرات التي تبرز شرعيتها،إذ كان العرب–طرفا أولا– هم أصحاب الحقّ فإنّ الصهاينة،طرفا ثانيا–لا حقّ لهم،وبناء على هذا فإنّ المصالحة تكون مستحيلة بينهما لانعدام الأسس التي من شأنها أن تنبني عليها وبذلك يبقى الحلّ الأوحد في وعي شكيب أرسلان السياسي إعادة الصهاينة فلسطين المغتصبة لأصحابها الشرعيين وأن يبحثوا لهم بديلا لها عن وطن آخر يجمع شتاتهم في غير أرضها التي لم تكن في يوم من الأيام الأرض الموعودة منذ عهد داوود كما يدعون.

الهوامــــــش

1) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 236
2) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 110، نقلا عن مقال نشره شكيب أرسلان "بالشورى" بتاريخ 30 سبتمبر 1926
3) نفس المرجع، ص110
4) نفس المرجع، ص111، نقلا عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة "الشورى" بتاريخ 15 أكتوبر 1929
5) المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح، الجزء الثاني، ص310
6) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص110، عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة "الشورى"، بتاريخ 30 سبتمبر 1926
7) نفس المرجع، ص110
8) أرسلان، شكيب: لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، ص59
9) نفس المصدر: ص52
10) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 111، نقلا عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى" بتاريخ 16 اكتوبر 1929.

الفصل الخامس

شكيب أرسلان
و
حركات التحرير في المغرب العربي

"من العبث أن تظنّ دول الاستعمار إخماد
الحركات الوطنية بالعسف والقهر والقتل
والنفي والحبس فكلّ هذا لا يزيد المسلمين
إلاّ عداء وما استصلح عدوّ بمثل العدل"
شكيب أرسلان

شغلت قضايا تحرير بلدان المغرب العربي حيّزا هامّا من اهتمامات شكيب أرسلان السياسية في سيرته النضالية، إذ و قد حصل له الاقتناع بعدالتها تبنّى النضال في سبيلها و الدفاع عنها نشدانا لاستقلالها خاصّة وقد أدرك أهمية موقعها الجغرافي على الخارطة الدولية ووعى وحدة دينها ولغتها وتاريخها وحضارتها فصلا عن تماثل أوضاعها السياسية.

ولعلّنا لا نبالغ عندما نرجع الفضل في بذر البذور الأولى لنشأة الحركات الوطنية بأقطار المغرب العربي إلى شكيب أرسلان الذي ساهم بفعالية في انبثاقها، وكان حريصا على انطلاق مسيرة نضالها ضدّ الاستعمار الأوروبي الغاصب، الإيطالي بالنسبة للقطر الليبي، والفرنسي لكلّ من تونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا فأولاها عنايته إلى أن جعل مسيرتها النضالية تتضح واتجاهاتها تتبلور، وأهدافها تتحدّد بفضل العطف الذي أحاط به زعماءها والنصح والإرشاد اللذين لم يبخل بهما عليهم بحكم طول مراسه للسياسة أحوالا ورجالات، ممّا أهّله ليكون بحق أباهم الروحي الذي يعودون إليه لأخذ مبادئ مذهبه السياسي واستلهامها وتوظيفها في تحديد آفاق مسيرتهم النضالية.

وسنعمد إلى استشكاف معالم هذه العلاقات التي جمعت بين شكيب أرسلان والحركات التحريرية المغاربية بالتفاعل وأوضاع شعوبها المستعمرة من

جهة والتجاوب ومسيرة وزعمائها النضالية ومتابعتها والمساهمة في دفع مسارها من جهة ثانية، قصد تحقيق حرية أقطار المغرب العربي واستقلالها.

1- شكيب أرسلان و حركة التحرير الجزائرية

أولى شكيب أرسلان القضية الجزائرية منزلة هامّة في مسيرة نضاله السياسي ضدّ الاستعمار الأوروبي قصد تحرير البلاد العربية الإسلامية من سيطرته إذ وقد اقتنع بعدالتها وشرعية النضال في سبيلها أخذ نفسه بمناصرتها سياسيا بالدفاع عنها فيما كان ينشره بالصحف العربية من مقالات تصوّر مظاهر السياسة الاستعمارية الفرنسية بالقطر الجزائري وأبعادها، وكذلك من خلال ما كان يقوم به من اتصالات مكثفة في الأوساط السياسية الدولية للتعريف بها و كسب تعاطف الساسة معها.

ولم يكن نضال شكيب أرسلان في سبيل قضية تحرير الجزائر ليكتسب الثبات والفاعلية لولا تلك العلاقات المتينة التي جمعته و أبرز زعماء حركة التحرير الجزائرية الشيوخ منهم والشبّان، وهي العلاقات التي مكنته من معرفة أحوال الشعب الجزائري ومتابعتها بانتظام ومدّ هؤلاء الزعماء بخطط النضال القادرة على التكيّف وتقلبّات الأحوال السياسية ومستجّداتها فضلا عن إقلاق فرنسا و إحراجها.

وحتّى يتسنّى لنا إبراز معالم الدور الذي قام به شكيب أرسلان في دفع مسار حركة التحرير الجزائرية النضالي سنعمد إلى استقراء نماذج من العلاقات التي جمعته و زعمائها، رغم ندرة الوثائق في شأنها قبل أن نتناول أهمّ مواقفه من القضايا السياسية التي حفت بمسيرة هذه الحركة النضالية.

1-1- علاقات شكيب أرسلان بزعماء حركة التحرير الجزائرية

جمعت شكيب أرسلان بزعماء حركة التحرير الجزائرية علاقات ودّ وإخاء جوهرها النضال السياسي في سبيل تحرير الجزائر. فكانت له صداقات مع الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس جمعية العلماء الجزائريين سنة 1905 وزعيم التيار الإصلاحي التجديدي بالجزائر، والمناضل الشيخ صالح فرحات والصحفي المكافح أحمد توفيق المدني والمجاهد الشيخ الطيب القبي الذي تعرّف إليه بالحجاز عند حجته سنة 1929، فيصوّر خصائص علاقته به في قوله: " إنّ علاقتي بالأمير لم تكن روحية فحسب بل كانت حسّا و معنى فهو أخي و صديقي."(1)

وحسب ما توصّلنا إليه من خلال استقرائنا للوثائق النادرة التي توّفرت

لنا فإنّ الزعيم مصالي الحاج(2) يعدّ من أبرز قادة حركة التحرير الجزائرية الذين جمعتهم بشكيب أرسلان أواصر علاقة متينة لوحدة المبادئ والأهداف التي يقوم عليها المذهب السياسي لكليهما.

فقد شهدت مدينة جنيف السويسرية نشأة العلاقة بين المجاهد الأمير شكيب أرسلان والمناضل مصالي الحاج وذلك في غضون سنة 1935، عندما فرّ هذا الأخير من الجزائر والتجأ إلى جينيف وقد وصلته أنباء تفيد عزم السلطات الفرنسية القبض عليه واعتقاله على إثر تنظيمه لاجتماعات شعبية مكثفة في المقاهي وقاعات الأفراح والملاعب البلدية مثيرا همم إخوانه على تصعيد مقاومة الاستعمار الفرنسي، وبهذه المدينة حصل لقاؤه فتعارفه مع شكيب أرسلان الذي أضحت تجمعه به أواصر صداقة متينة دعمتها عديد اللقاءات التي جمعتهما ببعضهما، وتدارسا فيها الأوضاع السياسية التي تمرّ بها الأقطار العربية الإسلامية الخاضعة للسيطرة الأجنبية بصفة عامّة وأوضاع الجزائر والمغرب العربي بصفة أخصّ. ثم التقى شكيب أرسلان مجدّدا بالمناضل مصالي الحاج في غضون شهر فيفري من سنة 1937 أثناء مأدبة نظمها على شرف "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" بباريس، وكان من جملة المدعويين المناضل الحبيب بورقيبة الأمين العام للحزب الدستوري الجديد والمناضل محمد الخلصي نائب لجنة العمل المغربية، واستغلّ شكيب أرسلان فرصة هذا اللقاء الذي جمعه بزعماء حركات التحرير المغاربية لتدارس أوضاع مسيرتهم النضالية والسبل الكفيلة بتحقيق الوحدة المغاربية حتى تصير أقطار المغرب العربي وطنا واحدا وشعوبه شعبا واحدا تجمع بين فئاته العقيدة الإسلامية، واللغة العربية فضلا عن التاريخ والحضارة العربية-الإسلامية.

ولقد ساهم نضالهما السياسي ضدّ الاستعمار الفرنسي خاصّة، والأوروبي بصفة أشمل، وثباتهما على المبدأ-مهما كانت الإغراءات -في اعتزاز كلّ منهما بالآخر و إعجابه به. فيتحدّث شكيب عن مصالي الحاج مثنيا عليه بقوله: "لو كان في العالم الإسلامي عشرة شبان كمصالي الحاج لتحرّر منذ زمن"(3). فقد قاسمه الجهاد في سبيل إعلاء شأن العروبة والذود عن حياض الإسلام أمام أطماع الأوروبيين النصارى، وبالمقابل كان شكيب أرسلان يحظى بمنزلة رفيعة لدى المناضل مصالي الحاج الذي وقد بلغه نعي شكيب أرسلان- وهو في منفاه -أبى إلاّ أن يبعث برسالة إلى هيئة العلماء الجزائريين يشاركهم فيها تأبين شكيب الذي عزّ عليه فقده، ويكشف فيها عن خصائص العلاقة التي جمعته

به قائلا: "..إنّ معرفتي لشكيب أرسلان أعدّها غرّة في فاتح حياتي ودرّة من الدرر التي أبقى فخورا بها مدى الحياة،رأيت هذا الوطني الغيور والعالم الجليل والمجاهد الذي لا يعرف الفتور،نعم رأيته وعرفته فوجدت فيه الشخصية الإسلامية الكبرى التي يستحيل على الإنسان أن يسجّل ما لها من المزايا و المجهودات في سبيل تحرير الأمم العربية الإسلامية.

كاتب قدير،ذو شهرة عالمية،ووطني غيور و مكافح لا يملّ و هب نفسه وماله ونفوذه الأدبي وبصيرته الثقافية،بصيرة السياسين العظماء وهبها كلّها في سبيل خمسمائة مليون من المسلمين موزعين على الأرض"(4)

1-1- شكيب أرسلان و سياسة فرنسا البربرية بالجزائر

اتّسمت علاقة فرنسا بالقبائل البربرية في الجزائر بالعداء العنيف و الصراع الدائب منذ انتصابها بالجزائر،إذ سعت إلى إخضاع تلك القبائل بوادي الساحل ووادي سيبا والجرجورة وغيرها لسلطتها بسلبها استقلالها فدارت بينهما حروب سجال حملت فرنسا في مرحلة أولى على الإذعان لمطالب البربر بحفظ تشكيلاتهم الإدارية وعاداتهم وأعرافهم بتوليتها عليهم رؤساء مسلمين تحت رقابة ضابط فرنسي،وجعلها موظفين عربا في الإدارات،ثمّ لمّا أحكمت نفوذها في البلاد الجزائرية بخضدها شوكة المجاهد الأمير عبد القادر الجزائري ورفاقه المناضلين بادرت إلى التنكّر لعهودها مع البربر ونكث مواثيقها معهم بإلغائها استقلالهم الذاتي،واغتصاب أراضيهم وتسليمها للمعمرين الفرنسيين فضلا عن إثقال كواهلهم بالضرائب والمكوس وضمن هذه السياسة تندرج مسألة تنصير البربر بتعلّة أنّ"الأمّة البربرية أبعد عن الإسلام من الأمّة العربية تكون أكثر قبولا للنصرانية"(5).

وتجسيدا لهذه السياسة التنصيرية للبربر عمدت فرنسا إلى بثّ الدعاة والمبشّرين في كلّ أطراف البلاد البربرية فضلا عن إقامتها الكنائس وتشييدها المستشفيات والملاجئ والمدارس الفرنسية،كما"أصدرت أوامرها بحمل البربر على عوائدهم القديمة وأنشأت لهم محاكم خاصّة قضاتها فرنسيين،وقطعت كلّ علاقة لهم بالشريعة الإسلامية حتّى الأحوال الشخصية،وأخذت تمنع التعليم الديني شيئا فشيئا ممّا كان مآله مروق كثير من ناشئة الجزائر من الدين وتركهم شعائر الإسلام. وأخـذت تمنع تعليم اللغة العربية بين البربر تفتح مكاتب لتعليم اللغة البربرية و بجانبها اللغة الفرنسية لا غير "(6).

كلّ هذا لإخراج البربر من حوزة الإسلام وفصلهم عن إخوانهم العرب الجزائريين بتنصيرهم قصد إدماجهم في الأمة الفرنسية.

ولقد كان شكيب أرسلان من المبادرين إلى الحملة على سياسة فرنسا التنصيرية لبربر الجزائر لأنّه رأى فيها خطرا يهدّد العروبة والإسلام فضلا عن بثّ الشقاق والتناحر بين البربر والجزائريين، فشهّر بها وكشف عن أبعادها التوسّعية العنصرية مبرزا أنّ فرنسا في الحقل الديني تتوخّى سياسة المخادعة إذ إن" كانت غير دينية في بلادها الأصلية فهي في الخارج سائرة على قول غمبتا "عداوة الدين ليست من بضائع التصدير و هذا مرجعه لسببين:

1- أنّها من تعتقد أنّ الدعوّة الدينية قد تكون عضدا للحركة الاستعمارية.

2- أكثر النفوذ في المستعمرات إنّما هو للقوّة العسكرية"(7)

وقد قام شكيب أرسلان بدحض زعمها بأن نسب أهل البربر يعود إلى سلالة أوروبية لا عربية وكذلك لغتهم الأمّ ليست العربية فلا ينبغي عليهم تعلّمها بل هم غرباء عن الجنس العربي الذي جاء غازيا لبلادهم فبسط نفوذه عليهم واستعبدهم بقوله: "البربر ماعدا فئة قليلة جدّا أصلهم ساميون من آسية، ولم بكن منهم نصارى إلاّ قسم ضئيل وبالتالي فهذا الأمر خارج عن صلاحية فرنسا لأنّ الناس لا يسألون عمّا كان عليه آباؤهم بل يسألون عمّا يقوله هم. فالبربر إذا سئلوا يقولون: "إنّهم مسلمون فبأيّ حقّ تعترض فرنسا لأمورهم الدينية"(8)

ثمّ يدحض زعمها بأنّ قصدها من تنصير البربر تحضيرهم حيث يؤكد تناسيها أنّ هذه المدنية التي تدّعي نشرها في أواسط البربر لن تزيدهم إلاّ بؤسا ماديا ومعنويا، ذلك أنّ هذه المدنية التي أنتجتها عقليات معيّنة واحتياجات خاصّة لأقوام لهم بيئتهم الجغرافية وتراثهم الفكري والعقائدي الخاصّ بهم، لن تطابق عقليات البربر واحتياجاتهم، ولن تتماشى وتراثهم الفكري- العقائدي ذلك "أنّ مدنيتين مختلفتين تمام الاختلاف لا تندمجان و أنّه ما رئيت الأمّة المغلوبة مندمجة في الغالبة إلاّ إذا كانتا متشابهتين من الأصل، فالشرقي يندمج في الشرقي أمّا في الغربي فلا. وهذا هو سرّ نفوذ العرب في الشرق وفي الصين وفي الهند وفي إفريقية فإنهم كانوا كيفما تقلّبوا طبعوا تلك الأمم بطابعهم و أعطوها صبغتهم و حيث حلت حضارة الإسلام ظهر أنّها استقرّت و ثبتت"(9).

ولا يتردّد شكيب أرسلان في اتهّام الفاتيكان بمناصرته لهذه السياسة التنصيرية في الخفاء، في بلاد المغرب العربي إذ يكشف في رسالة بعث بها إلى

أخيه السيد محمد رشيد رضا من بلنسية بتاريخ 26 أوت 1930 تورط الفاتيكان في هذه المسألة بقوله: "وقد تحققنا من مصدر اسبانيولي أنّ للفاتيكان مدخلا بقضية البربر والتمهيد لتنصيرهم، بناء على أنّهم نصارى في الأصل- هذا يصحّ على بعض البربر فقط وأنّ الفاتيكان واعدا بالمكاتب والمدارس والمصاريف اللازمة للعمل"(10)، وبذلك يكشف شكيب أرسلان مدى عداوة المسيحيين للإسلام وأهله وشدّة تعصّبهم الديني للنصرانية التي يسعون إلى نشرها في كلّ البلاد الخاضعة لسيطرتهم حتى على حساب العقائد الدينية الأخرى.

وصفوة القول إنّ شكيب أرسلان يعتبر أنّ فرنسا تناقض نفسها بنفسها إذ تردّد من جهة زعامتها الدفاع عن مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان ومن أخرى تمارس العكس بسلبها حرية المعتقد لبربر-الجزائر، بل إنّها لم تكتف بتنصير البربر فحسب بل تجاوزت ذلك إلى تجنيس الجزائريين.

1-2- شكيب أرسلان و سياسة الإدماج الفرنسية بالجزائر

أدركت فرنسا أنّه لابدّ لها لتدعيم سلطتها الكلية والمطلقة على القطر الجزائري من تجاوز حدود سياستها البربرية إلى سياسة أشمل وأنجع تتمثّل في فرنسة الشعب الجزائري واستئصال مقومّات عروبته وإسلامه بإدماجه ضمن الأمة الفرنسية النصرانية. وتنفيذا لهذه السياسة عمدت إلى تمتيع كلّ أفراد الجاليات الأجنبية بحقوق وامتيازات حرمت منها الجزائري المسلم، الذي أضحى ينتمي إلى الطبقة الدنيا المستضعفة. حيث اشترطت عليه ليتمتع بأسباب الحياة الكريمة أن يتجنّس بالجنسية الفرنسية ويقبل الاحتكام في أحواله المدنية والشخصية إلى القانون الفرنسي بدل الشرع الإسلامي رغم أنّه" يصادم الشريعة الإسلامية في كثير من الأحوال الشخصية بحيث لا يقدر المسلم أن يقبل العمل به إلاّ بعد أن ينزل عن إسلامه"(11)

ولقد قوبلت سياسة الإدماج هذه بردود فعل عنيفة سواء داخل القطر الجزائري أو خارجه، ساهم شكيب أرسلان بفعالية في تصعيدها من خلال حملاته الصحفية المستعمرة والمندّدة بسياسة الإدماج الفرنسية والفاضحة لأطماعها التوّسعية، فضلا عن إصدار تعليماته وتوجيهاته لمناضلي حركة التحرير الجزائرية بالاستماتة في مقاومة هذه السياسة الاستعمارية الفرنسية وإحباط كلّ مخططاتها، لأنّ"الأمّة الجزائرية موجودة متكوّنة على مثال ما تكوّنت به سائر أمم الأرض وهي لا تزال حيّة ولم تزل، ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة

كمثل سائر أمم الدنيا،وهذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد أن تصبح هي فرنسا ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا و لو جنّسوها"(12)،لأنّ للجزائر مقومّات ذاتيتها وكيانها،والتي لا يمكنها بحال الانصهار في الكيان الفرنسي.

والحاصل أنّ شكيب أرسلان قد قدّم جليل الخدمات لحركة التحرير الجزائرية قصد تحرير الجزائر من خلال علاقاته المثمرة وزعمائها المناضلين الذين وجّهوا مسيرة نضالهم وكيّفوها حسب ما كانوا يأخذونه عن شكيب أرسلان من مبادئ مراس سياسي ويستلهمونه منه من طرق نضال كلّ ذلك لتحقيق غذ مشرق للجزائر قوامه التحضّر و الرقي في كنف الحريّة والاستقلال.

2- شكيب أرسلان و الحركـة الوطنـية التونسـية

لم يدّخر شكيب أرسلان جهدا في النضال من أجل القضية التونسية التي شغلت حيّزا هامّا من مسيرته النضالية في سبيل قضايا تحرّر البلاد العربية الإسلامية واستقلالها،وذلك بتبنّي خدمتها سياسيا بمناصرتها والدفاع عنها من خلال ما كان ينشره من مقالات صحفية تصوّر أوضاع الشعب التونسي المترديّة في ظلّ الاستعمار الفرنسي،وتندّد في الآن نفسه بسياسة فرنسا الاستعمارية في تونس وبقية أقطار المغرب العربي:الجزائر والمغرب الأقصى وكذلك من خلال حركيته السياسية الدائبة للتعريف بها وكسب التعاطف معها في المحافل الدولية ولدى الهيئات الرسمية،فضلا عن اتصّالاته الكثيفة وعديد ساسة الأقطار الأوروبية قصد كسب المزيد من الدعم لها دوليا.

وينضاف إلى كلّ هذا تبنّيه المبكّر لزعماء حركتها الوطنية من المناضلين القدامى والجدد،الذين جمعته وأبرزهم علاقات وطيدة لتماثل المذهب السياسي مبادئ وأبعادا،سمحت له بالاطلاع عن كثب على أحوال الشعب التونسي المستعمر واتخاذ مواقف واضحة وثابتة من سياسة فرنسا الاستعمارية فضلا عن الإطلاع على أوضاع الحركة الوطنية التونسية والتدارس مع زعمائها السبل الكفيلة بإضفاء سمتي النجاعة والفاعلية على مسيرتها النضالية حسب ما تقتضيه الظروف ومستجدّات الأحداث.

2-1- علاقـــات شكيب أرسلان بروّاد الحركة الوطنية التونسية

لقد جمعت شكيب أرسلان بروّاد الحركة الوطنية التونسية علاقات صداقة وطيدة ومودّة خالصة قوامها العمل من أجل تحرير تونس واستقلالها.ولقد سنحت الظروف له بالتعرّف إلى أبرز هؤلاء الروّاد المناضلين أمثال الشيخ عبد

العزيز الثعالبي،والشيخ علي باش حامبه(1881-1920م)وأخيه محمد والشيخ صالح الشريف التونسي وغيرهم.وتكمن أهمية هذه العلاقات في كشفها لنا عن مدى مواكبة شكيب أرسلان لمسيرة النضال التحريري التونسي منذ نشأتها على أيدي هؤلاء الشيوخ إلى تطوّرها ونضجها على أيدي الجيل الجديد من المناضلين أمثال الحبيب بورقيبة والهادي نويرة والحبيب ثامر وغيرهم ممن كانت لهم وشكيب أرسلان علاقات واتصّالات.

ولقد اضطرتنا ندرة الوثائق في شأن مجموع هذه العلاقات إلى الاقتصار على تناول نموذجين منها يتمثّل أولهما في علاقة شكيب أرسلان بالمناضل الشيخ صالح الشريف التونسي،بينما يتناول ثانيها علاقة شكيب والمناضل محمد باش حانبه.

1 ـ علاقـة شكيب أرسلان بالشيخ صالح الشريف التونسي

انعقدت أواصر الصداقة بين المجاهد شكيب أرسلان والمناضل صالح الشريف التونسي في غضون شهر نوفمبر من سنة 1911،عندما نفت السلطات الفرنسية هذا الأخير إلى البلاد السويسرية عقب حوادث الزلاج،و في جنيف-مقرّ إقامة شكيب-تمّ اللقاء بينهما و التعارف الذي تطوّر ليصبح صداقة متينة خالصة لعديد الجوامع المشتركة التي تؤلف بينهما فكرا وسياسة فتلازما زمنا وحرصا على النضال معا خدمة للقضية التونسية بصفة خاصّة و قضايا تحرّر البلاد العربية-الإسلامية المستعمرة واستقلالها بصفة أشمل،كما اتفقا على الدعوة إلى إحياء مبادئ الدين الإسلامي والعمل بها،والدفاع عنها أمام مناوئيها من ملاحدة الإسلام.والنصارى المتعصّبين،فضلا عن سعيهما للنهوض بالأمة الإسلامية في كنف الشرع الإسلامي بعد توحيدها في جامعة إسلامية قوية تجمع شتاتها،وتكون قادرة على صدّ أطماع الدول العظمى الاستعمارية.

فقد اصطحبا في ديار الغربة،بعد أن وجد كلّ منهما في الآخر أنيس الوحدة ورفيق المنفى في درب النضال السياسي المرير إلى أن اختطف بد المنون الشيخ صالح الشريف التونسي سنة 1920 بجنيف بحضرة صديقه شكيب أرسلان الذي كان عائدا آنذاك من برلين من مهمّة كلفه بها الباب العالي لدى حكومة ألمانيا.وقد" أبى إخلاص الأمير إلاّ أن يصحب جثمان صديقه التونسي إلى مقرّه الأخير بتونس،ولكن ما إن وصلت الباخرة التي تقلّ جثمان الفقيد التونسي الشريف إلى مرفأ تونس حتّى نزل الراكبون جميعا إلاّ صاحب العطوفة شكيب

أرسلان فقد منعته السلطة الفرنسية من النزول إلى أرض تونس فاكتفى بتوديع صديقه الراحل بنظرة عطف ووفاء"(13)

2- علاقة شكيب أرسلان بمحمد باش حامبه

شهدت برلين عاصمة ألمانيا نشأة هذه العلاقة التي جمعت شكيب أرسلان بالمناضل محمد باش حانبه،وذلك في غضون سنة 1920 حيث كان شكيب أرسلان موجودا بألمانيا في مهمّة رسمية كلّفته بها سلطات الآستانة لدى حكومة ألمانيا.وكان المناضل محمد باش حامبه-أحد مؤسسي حزب الشباب التونسي سنة1902- مبعدا من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية لأنّ حركيته السياسية تقلقها و تهدّد سلامة مصالحها.

وتوطّدت بينهما أواصر المحبّة إلى أن أضحت أخوة وجدان وفكر وسياسة.وعندما ترأس شتكيب أرسلان جمعية الشعوب الشرقية (النادي الشرقي ببرلين) اتّخذ محمد باش حانبه مساعدا له و عضوا في الهيئة المديرة.

وكانا أثناء لقاءاتهما يتدارسان أوضاع أقطار المغرب العربي المستعمرة وبالأخصّ تونس،ويتجادلان حول السبل الكفيلة بتحقيق تحرّرها و استقلالها.

و بينما كانت هذه العلاقة تشهد أوج قوتها إذ اختطفت المنية المناضل محمد باش حانبه في خريف سنة 1920" فتألم الأمير لفقدان المساعد الذي لا غنى عنه ، اختطفته علّة قصيرة لا ترحم"(14).

وترك موته في وجدانه عميق التفجع إذ احتضر بين يديه.ويصوّر شكيب أرسلان هذا المشهد في آخر أيّام حياته للمناضل الحبيب بورقيبة بقوله:"مات بين يدي،في برلين،في بيت حقير،وكانت آخر فكرة له:وطنه تونس الذي أجلّه كلّ الإجلال وضحّى بكلّ شيء في سبيله.وللأسف فإنّ أيّامه الأخيرة كدّرتها لا مبالاة مواطنيه وخاصة أصدقائه القدامى من البعثة التونسية التي كانت في ذلك العهد بباريس(على بعد ساعات من برلين)والذين من المحتمل أنهم خوفا من تعريض أنفسهم للخطر لم يجرؤوا أن يكونوا باتّصال معه"(15)

وصفوة القول كان المناضل محمد باش حامبه يشغل منزلة رفيعة لدى شكيب أرسلان لكونه "من أفراد شبان العالم الإسلامي علما وذكاء و علو همّة وطهارة وأخلاق"(16).فكان من مفاخر تونس مات في الغربة ودفن بها وهو يندب وطنه كما أنّ وطنه يندبه لرزئه فيه

2-2- شكيب أرسلان و قضية تجنيس فرنسا التونسيين

منذ أن بسطت فرنسا نفوذها على الإيالة التونسية و هي تسعى لمحو

معالم الذاتية التونسية ومقوّماتها العربية الإسلامية من لغة وتاريخ وعادات وتقاليد وديانة إسلامية،بانتهاج سياسة التجنيس التي تمكنها من إخراج التونسيين من شريعة الإسلام،وسلخهم عن لغتهم العربية وجعلهم ينبتّون عن مقوّمات تراثهم الفكري والحضاري ويندمجون في الأمّة الفرنسية و يصبحون فرنسيين، ذلك "أنّ المتجنّس بالجنسية الفرنسية لا يمكن أن يكون لحكومته الإسلامية ولا لأميره عليه من سبيل وأنّه في أحواله الشخصية من زواج وطلاق وارث لا يحتكم إلى شريعة الإسلام وإنّما يحتكم إلى القانون المدني الفرنسي،والمتجنّس زيادة على ذلك يوجب على نفسه برضا واختيار أن يكون جنديا يقاتل تحت الراية الفرنسية هذا زيادة على كون المتجنّس يخرج طائعا مختارا عن جماعة المسلمين ويوهن قوتهم و يؤيد خصمهم ويسعى بخروجه في تقويض سلطان الإسلام من بلاد الإسلام و إزالة أحكامه"(17).

فعمدت فرنسا إلى فتح باب التجنيس الذي وفّرت له كلّ الإمكانات بعد شرائها ضمائر بعض المفتين والشيوخ بالديار التونسية الذين أفتوا بجواز تجنّس التونسي المسلم بالجنسية الفرنسية وألاّ ضير من ذلك.ولقد قابل التونسيون هذه السياسة التنصيرية الفرنسية بالرفض الذي جسّدته ردود فعل عنيفة جاءت في شكل مظاهرات صاخبة وصدامات دامية مع قوات الغزو الفرنسي،أودت بحياة الكثيرين.

وكان شكيب أرسلان يتابع أطوار هذه القضية ومستجدّاتها من منفاه لتفاعله معها.فكان يصدر تعليماته إلى أبنائه من مناضلي الحركة الوطنية التونسية بوجوب الاستماتة في مقاومة هذه الحملة الصليبية التي تشنّها فرنسا على الإسلام ليس ببلدهم تونس فحسب بل وببقية أقطار المغرب العربي الخاضعة لسيطرتها،كما كان يشنّ حملات عنيفة على سياسة فرنسا التنصيرية هذه بمختلف الصحف والمجلات العربية،مستنهضا همم المسلمين حتّى يتصدّوا لهذه السياسة،ويحبطوا مخطّطات فرنسا التنصيرية،ذلك أنّ قضية تجنيس التونسيين في وعي شكيب أرسلان السياسي لا تنحصر أخطارها على تونس فحسب بل وتتجاوزها لتهدّد الشرع الإسلامي في كلّ الأقطار الإسلامية. فكان يرى أنّه إن تخاذل المسلمون على الدفاع عن الإسلام ومناصرة إخوانهم التونسيين فإنّ بقية الدول الاستعمارية ستنحو منحى فرنسا في ممارسة هذه السياسة التنصيرية فيندثر الإسلام من دياره.و هو ما يؤكدّه في قوله: "إذا ساغ لفرنسا أن تقطع وتصل فيما يتعلق بالدين الإسلامي في شمالي

إفريقية لم تبق دولة أوروبية لها رعايا مسلمون إلاّ حذت حذوها وربّما زادت عليها...فإذا بدأ البثق الديني مثلما بدأ البثق الدنيوي ولم يصدّه المسلمون من الآن بكلّ شدّة، كان الخطر على الأمّة الإسلامية بأجمعها أكثر ممّا يتصوّر المتصورون وذابت ذوبا في الأمم الأخرى بعد أن كان القرآن جامعا مانعا."(18)

ويعلّل شكيب سياسة التجنيس التي تسلكها فرنسا في تونس والجزائر والمغرب "بقايا المبادئ الجنسية القديمة التي لم يتمكن العلم العصري من اقتلاع جذورها من رؤوس الأوروبيين لاسيما الأمم اللاتينية منهم"(19)

2-3- مشروع شكيب أرسلان لاستقلال تونس عن دول المحور غداة الحرب العالمية الثانية

لمّا نزلت جيوش المحور بالتراب التونسي في التاسع من نوفمبر سنة 1942 بادر شكيب أرسلان-وهو بجينيف-إلى الحملة على دول المحور من خلال مقالاته الصحفية المستعمرة واحتجاجاته المتواصلة لدى المنظمات الدولية والهيآت الرسمية وحتّى لدى حكومات دول المحور ذاتها التي أبى إلاّ أن يقترح عليها مشروعا لاستقلال تونس ضمن رسالة بعث بها إلى ابنه الروحي الدكتور المصري الطبيب الناصر المقيم بروما،يقوم أساسا على أن تعلن دول المحور استقلال تونس التام،وفي مقابل ذلك يعقد اتّفاق بين المحور وبين تونس سرّا على شرط الاستقلال التام،وعقد تحالف بين المحور والتونسيين يمتدّ على مدى 20 سنة.

ويكشف شكيب أرسلان عن معالم هذا المشروع الذي ضمنه تلك الرسالة المؤرخة في 21 ديسمبر 1942 بقوله:"...إن أرادت دول المحور أن تنال عضد المسلمين فعلا،وجب عليها أن تعمل في تونس ما عملته في مصر.فكما أعلنت إيطاليا و ألمانيا اعترافهما باستقلال مصر التام و كرّرتا هذا الإعلان مدّة أشهر، واستمالتا به عطف المسلمين وجب أن تعلنا استقلال تونس التام،وتظهرا الفرق بين نيتهما ونيّة أعدائهما لأنّ لا أمل من مداجاة فرنسا،وليس من الفرنسيين واحد من الألف يتمنّى نجاح دولتي المحور.

وعلى فرض أنّه لابدّ من بعض المداراة فيمكن عقد الاتفاق بين المحور وبين تونس سرّا على شرط الاستقلال التامّ وعقد تحالف بين المحور والتونسيين إلى عشرين سنة"(20).

والحاصل أنّ شكيب أرسلان ساهم بفعالية في دفع المسار النضالي للحركة الوطنية التونسية،وإكسابه سمتي النجاعة والفاعلية من خلال تبنّيه المبكر

لزعمائها المناضلين الذين جمعته بأبرزهم علاقات متينة عكست توافق المذهب السياسي من حيث المبادئ والمقاصد، والذين لم يدخر جهدا في إحاطة مسيرتهم النضالية بكلّ عنايته وعطفه، وتوجيهها الوجهة الكفيلة بتحقيق حرية تونس واستقلالها.

3- شكيب أرسلان و حركة الاستقلال المغربية

تستمدّ علاقة شكيب أرسلان بحركة الاستقلال المغربية قوّتها من اقتناعه بعدالة النضال الذي تخوضه هذه الحركة ومشروعيته في سبيل تحرير القطر المغربي من الاستعمار الأوروبي المزدوج: الأسباني والفرنسي، وبذلك فقد تبنّى الدفاع عن القضية المغربية منذ ابتلاء هذا القطر بالحماية الفرنسية في غضون سنة 1911، فبادر بالحملة على فرنسا والتنديد بها لاستلابها حرية الشعب المغربي وانتهاك كرامته ودوس حرماته الأخلاقية والدينية تحت قناع تحضيره وجعله يواكب ركب التمدّن. وكان من أوّل من بادر إلى تأييد ثورة المجاهد المغربي عبد الكريم الخطابي بالريف، عند إعلانه الحرب على الأسبان الغزاة في غضون سنة 1925، حيث كان يستنهض في مقالاته الصحفية همم العرب والمسلمين لمدّ يد المساعدة لإخوانهم مجاهدي الريف بمناصرتهم بالنفس والمال والعتاد حتّى تتواصل مقاومتهم للجيوش الأسبانية التي كانت تفوقهم عددا وعدّة فضلا عن تمجيده الانتصارات التي كان يحرزها المجاهد عبد الكريم الخطابي على الجيوش الأسبانية مشهّرا في الآن نفسه بالاستعمار الأسباني وسياسته التعسفية إزاء و أهالي الريف المغربي.

ثمّ تبلورت علاقة شكيب بحركة الاستقلال المغربية واتضّحت معالمها وقويت عراها نتيجة حدثين أساسين جدّا على الساحة السياسية فأكسبا تلك العلاقة نفسا جديدا وشكّلا لها منعرجا حاسما سيكون له الأثر العميق في دفع مسيرة زعمائها النضالية. ويتمثّل أولهما في استصدار فرنسا الظهير البربري في 16 ماي سنة 1930، والذي سمح لشكيب أرسلان بالتدّخل مباشرة في الشؤون المغربية، بينما يتجسّد ثانيهما في الزيارة التي أدّاها شكيب إلى القطر المغربي نفسه بعد صدور هذا الظهير.

3-1- شكيب أرسلان و قضية الظهير البربري

تتميّز البنية الاجتماعية للمغرب الأقصى بتنوّع الأجناس إذ أننا نجد إلى جانب العرب والمسلمين البربر الذين يعدّون نسبة معتبرة من مجموع عدد السكان المغاربة آنذاك، حيث إذ يناهز عددهم الثمانية ملايين نسمة. ولكن رغم

انتمائهم البربري فقد كانوا مندمجين في المجتمع المغربي يحتكمون إلى الشرع الإسلامي في كلّ أحوالهم المدنية والجنائية والتجارية والعقارات والمنقولات فضلا عن انتشار اللغة العربية بينهم.ولكي يتسنّى لفرنسا تقسيم القطر المغربي حسب العرف والجنس وأصل السكان-تدعيما لوجودها وسياستها الاستعمارية - فقد عمدت إلى إصدار ظهير تحظر فيه على البربر أن يتحاكموا إلى المحاكم الإسلامية في أحوالهم المختلفة بل إلى المحاكم المختصّة الفرنسية وتبطل انتشار اللغة العربية بينهم لتحلّ الفرنسية محلّها إخراجا لهم من الديانة الإسلامية، وضربا للوحدة الجامعة بينهم وإخوانهم العرب المغاربة،ممّا يجعل الشعب المغربي ينقسم إلى قسمين:بربري وعربي،لكلّ منهما نظامه الإداري والاجتماعي وواقعه الديني.كلّ هذا بدعوى ترقية البربر"متناسية أنّه من الحقّ الطبيعي لكلّ شعب أن يترقّى ضمن دائرة ثقافته الخاصّة"(21).ولكن لم يكن لفرنسا الحلّ البديل إذ أيقن ساستها أنّه"لا تتفرنس إفريقية الشمالية وهي مسلمة وأكبر وسيلة لإدماجها في العائلة الفرنسية إخراجها من الإسلام"(22) وبهذه الكيفية يشكّل الظهير البربري تحقيقا لحلم طالما راود المتشدّدة من كاثوليك الفرنسيين منذ زمن طويل،وكذلك روّاد الدعوة التبشيرية أمثال الكاردينال لافيجري والأب فوكو والآباء البيض،ممّا يجسّد مدى تحامل الأوروبيين النصارى على الإسلام و أهله.

ولقد استنكر البربر استصدار فرنسا هذا الظهير إذ قامت القبائل البربرية بإرسال وفودها إلى الرباط لتسجيل احتجاجها بمكتب الوزير الصدر"ولمّا رجعت الوفود إلى القبائل قبض على أفرادها وزجّوا في السجون.ولمّا رأى الفرنسيون أنّ المكيدة ستفتضح وأنّ البربر يحتجون على قانون تزعم فرنسا أنّه وضع حسب رغبتهم جمع المراقبون المدنيون الفرنسيون أهل القبائل التي في نواحيهم وقالوا لهم: إنّ فرنسا أتت هنا لإنقاذ البربر من العرب وهم قوم ظالمون جاؤوا بلادكم فاتحين، و إنّما هي للبربر"(23).

واحتجّت كلّ فئات الشعب المغربي لإصدار فرنسا هذا الظهير الذي يهدّ الشرع الإسلامي الذي تدين به وتحتكم إلى تعاليمه،واللغة العربية التي تتكلمها وخاصّة الوحدة الوطنية التي تجمعها والقبائل البربرية،من خلال المقالات الصحفية الضارية ضدّ السياسة التنصيرية الفرنسية على صفحات جريدة" Le Populaire Marocain"وكذلك في الاجتماعات التي كانت تلتئم بكلّ مساجد المدن الكبرى وجوامعها:كمسجد القرويين بفاس والمسجد

الأعظم بمدينة سلا والتي كان يلقي فيها زعماء الحركة الوطنية المغربية خطبهم السياسية المتحمسة،والحاملة على السياسة الفرنسية الأمر الذي جعل سلطات الاحتلال الفرنسي تجلد بعضهم وتسجن البعض الآخر وتنفي البقية.

ولئن كانت هذه هي ردود الفعل الداخلية فإنّ ذياع أصداء قضية الظهير المغربي في الخارج يعود إلى حملات شكيب أرسلان المستمرة على السياسة الفرنسية الاستعمارية والتنصيرية بأقطار شمال إفريقيا عامّة والقطر المغربي على وجه أخصّ إذ كان يدعو العرب والمسلمين وأحرار العالم بصفة أشمل إلى إغراق الجهات والهيئات الخاصة والمنظمات الدولية ببرقيات الاحتجاج والعرائض المندّدة بسياسة فرنسا البربرية،ذلك أنّه كان يدرك أنّ الظهير البربري نازلة فادحة تتجاوز آثارها حدود القطر المغربي لتشمل كلّ الأقطار الإسلامية لما تتضمّنه من تهديد للإسلام شريعة و للمسلمين شعوبا.

ولئن كان شكيب أرسلان يعتقد في لا جدوى هذه الاحتجاجات الكلامية مع دولة عظمى استعمارية كفرنسا فقد كان يعتبر"أنّ المقصود بنشر هذه الاحتجاجات هو القضية والتشهير بهذا العمل الشنيع ألا وهو المساس بحريّة الأديان"(24)كما ألحّ على الدول الإسلامية باتّخاذ إجراءات عملية يكون لها الأثر السيئ على اقتصاد فرنسا و مصالحها بالمنطقة العربية- الإسلامية وذلك باستعمال سلاح المقاطعة التجارية لها لأنّه"هو اليوم أمضى سيف وأهول قنبلة يخشاها الأوروبي الذي يعبد المال من دون الله.ومتى وصلت مقاطعة المسلمين لتجارة الفرنسيين إلى الحدّ الذي يشعر هؤلاء بضرره ويحسون شواظه رأيتهم ألغوا الظهير البربري وطردوا القسوس الذين بثّوهم في بلاد البربر وردّوا المسيو سان على عقبه وتزلفوا إلى المسلمين في أكثر من مسألة وسادوا المساجد وحفظوا لها أوقافها وتركوا تشييد الكنائس من أوقاف المسلمين وتلقوا إرادة المسلمين بالقبول واحترموا الإسلام وعظّموا وصلّوا على نبيه وسلّموا.

أمّا إذا لم يكن عندنا عمل مقرون بالفعل فلا ينبغي أن ننتظر شيئا،فهل أنتم فاعلون؟"(25)

و يذهب شكيب أرسلان إلى اعتبار فرنسا البربرية مناقضة لتحضّرها، إذ لا يجوز لأمّة بلغت أرقى درجات المدنية أن تنتهك حريّة اعتقاد الغير ممّا جعله يتساءل في استغراب: "من كان يظنّ أنّ حكومة تقول أنّها لا دينية وتدير أمّة راقية من أرقى الأمم كالأمّة الفرنسية ترضى لنفسها ولأمتها السير على خطة دينية تبشيرية مخالفة للنزاهة وللحرية الدينية المقدّسة ولعهود فرنسة

نفسها. وهذا كلّه إنّما هو راسخ من بقايا المبادئ الصليبية القديمة التي لم يتمكن العلم العصري من اقتلاع جذورها من رؤوس الأوروبيين لاسيما الأمم اللاتينية منهم"(26).

ثمّ يكشف شكيب أرسلان عن بطلان التبريرات التي سعت فرنسا من خلالها إلى إضفاء سمة الشرعية على إصدارها هذا الظهير، فيبرز أنّها وإن ادّعت أنّ البربر هم الذين طلبوا منها ذلك إنقاذا لهم من التسلّط العربي عليهم وإرجاعا لما ما اغتصبه هؤلاء العرب منهم فواقع الأحداث يفنّد هذا الزعم لأن البرابرة كانوا في مقدّمة الثائرين على صدور هذا الظهير. ثمّ و إن أكّدت فرنسا أنّها لم تكن تقصد بإصدارها الظهير إخراج البربر من الإسلام وإنّما ألغت المحاكم الشرعية من بينهم لتمسكهم بعرفهم فإنّ المسلم الحقّ لاسيما في الأحوال الشخصية لا يكون مسلما إلاّ إذا اتّبع شريعة الإسلام، وبذلك فإنّ البربر يعتبرون من قبيل المسلمين الصوريين. وإن كانت فرنسا لم تنو إلغاء الإسلام من بلاد البربر فبم تفسّر منعها الشيوخ وحفاظ القرآن الكريم والأئمة والمؤذنين من التحوّل إلى بلاد البربر في حين كانت تسمح للقسوس والمبشّرين من ارتياد هذه البلاد بكلّ حرّية وحتّى إقامة الكنائس النصرانية والمدارس المسيحية بها رغم انعدام وجود سكان مسيحيين. ثمّ إن احتجت فرنسا على سياستها البربرية هذه بإبطال حكومة مصطفى كمال أتاتورك العمل بالشريعة الإسلامية وأن ليس من واجبها أن تحافظ على الشرع الإسلامي أكثر من الأتراك المسلمين فإنّ الكماليين الأتراك وإن خالفوا الشريعة الإسلامية في بعض القوانين التي أدخلوها في حكومتهم فإنّ أهالي تركيا لا يزالون مسلمين ولا تزال لهم رئاسات دينية في كلّ بلدة ولا يزال لهم مفتو شريعة إسلامية.

وكان شكيب أرسلان يدرك جيّدا أنّه وإن لم تعمد فرنسا إلى إلغاء أحكام الظهير البربري رغم ما لقيته من حملات تنديد واحتجاج فلأنّها رأت تراجعها في شأنه لا يخدم مستقبل سياستها الاستعمارية بالمغرب العربي.(27)

وصفوة القول أنّ شكيب أرسلان يعتبر "سياسة فرنسا في القضية البربرية كانت سياسة تهوّر حملها عليها ما جدّ بعد الحرب العامّة من اعتقاد عدد بعض الأوروبيين أنّ سياج الإسلام قد انخرق بتمامه ولم يبق مانع من مدّ اليد إلى دين المسلمين كما امتدت دنياهم. وهذا خطأ عظيم أساسه جهل الأوروبي بحقائق أحوال العالم الإسلامي مهما زعم أنّه مطلع عليها"(28)

3-2- زيارة شكيب أرسلان للمغرب الأقصى

تمثل زيارة شكيب أرسلان للمغرب الأقصى حدثا سياسيا على غاية من الأهمية،لأنّه تمّ في ظروف دقيقة كان يمرّ بها الشعب المغربي على إثر إصدار فرنسا للظهير البربري،ثمّ لأنّه سمح لشكيب بالالتقاء مباشرة بزعماء حركة الاستقلال بالمغرب،وتمتين عرى التواصل معهم فضلا عن الإطّلاع عن كثب على أوضاع الشعب المغربي.

لئن ذكر شكيب أرسلان أنّ زيارته للمغرب تدخل في نطاق السياحة والترفيه،خاصّة و قد كان يجوب في تلك الفترة بلاد الأندلس، فإنّنا لا نشاطره الرأي ليقيننا بوجود حوافز أخرى خفية أبى الإفصاح عنها للحصار المضروب عليه من طرف السلطات الأسبانية و خاصّة الفرنسية التي كانت تراقب بكلّ دقّة مراسلاته لمناضلي حركة "الاستقلال"المغربية،إذ يلتمس من صديقه المناضل عبد السلام بنّونة في إحدى رسائله بتاريخ 12 يونيو 1931 ألاّ يرسل له أيّ شيء إلى إعلام جديد بقوله:"...من المصلحة ألاّ تكتبوا لي بشيء إذا وقع بيد الفرنسيين أو الأسبانيين يكون حجّة عليّ بأنّني على صلة بالحركة الوطنية المغربية"(29).

لذا نرى أنّ شكيب أرسلان وإن ألبس زيارته للمغرب الأقصى ثوب السياحة فقد كان يبطنها سياسة إذ كان يروم تحقيق مقصدين أساسين:

1- الاطّلاع على أوضاع الشعب المغربي إثر ابتلائه بصدور الظهير البربري وما تبعه من أحداث جسام.

2- الاطّلاع على أوضاع الحركة الوطنية المغربية عن كثب و الاتّصال مباشرة بزعمائها،حتى يتسنّى له توجيه نضالهم السياسي ضدّ الوجود الاستعماري الإسباني الفرنسي بالقطر المغربي.

وقد تفطن المقيم الاسباني بتطوان إلى مغزى زيارة شكيب للمغرب في تقرير أرسله إلى حكومته بمدريد بتاريخ 5 سبتمبر1930 أعلمها فيه"أنّ زيارة الأمير لتطوان لم تكن مجرّد سفر من أجل الفسحة وإنّما كانت تخضع لبرنامج وضعه الأمير نظرا للمركز الذي كان يحتّله بصفته المرشد لجميع الحركات الوطنية في البلاد الإسلامية عموما و العربية خصوصا"(30).

وتجدر الإشارة-في هذا الصدد-إلى أنّ السلطات الإسبانية لم تكن تمانع في هذه الزيارة بل رحّبت بها لحيادها في النزاع الفرنسي- المغربي،ولعدم وجود عداوة بينها والأمير شكيب أرسلان،على نقيض فرنسا التي سخطت على هذه

الزيارة التي أثارت قلقها و أحيت مخاوفها لاعتبارها شكيب أرسلان حامل ثورة أينما حلّ،وبذلك فقد تساهم زيارته هذه في تصعيد التوتر السائد في كامل أرجاء القطر المغربي خاصّةٍ وهي تدرك متانة العلاقة التي تجمعه بمناضلي الحركة الوطنية المغربية مما حدا بها إلى الاحتجاج لدى الحكومة الأسبانية وطلب طردها شكيب أرسلان من تطوان للعواقب الوخيمة التي قد تفرزها هذه الزيارة في المناطق الواقعة تحت سيطرتها وذلك للمنزلة الرفيعة التي يحظى بها شكيب أرسلان لدى مختلف الأوساط المغربية.ورغم هذه العقبات التي رامت فرنسا من خلالها أبطال زيارة شكيب للقطر المغربي فإنّ هذه الزيارة قد تمت،وشهدت مرحلتين أساسيتين جدّت أولاهما بمدينة تطوان بينما حصلت ثانيتهما بطنجة.

1- مرحلة تطـــوان

وصل شكيب أرسلان تطوان يوم14 أوت سنة 1930،مصحوبا بزعماء الحركة الوطنية المغربية بالجنوب السادة أمحمد بلافريج ومحمد الزبدي ومحمد العباس الفتاح والحاج محمد بنّونة والشيخ المصمودي من تطوان والسادة الحاج عمر بن عبد الجليل،ومحمد الغالي الفاسي،وعبد الحميد الصفريوي من فاس،وأبو بكر المالقي من سلا.وكان نزوله بمنزل الحاج محمد بنونة الذي وفد عليه أهالي تطوان ترحيبا بالأمير.وقد أبوا إلاّ أن يقيموا له حفل تكريم اعترافا بجليل خدماته في سبيل نصرة القضية المغربية حضرها جمهور غفير من المثقفين وزعماء الحركة الوطنية،وألقيت أثناءها عديد الخطب المحتفية بالأمير والقصائد المجدّة له،ردّ عليها الأمير بكلمة توجيهية افتتحها بإعجابه بالأمّة المغربية وضمّنها وجوب تحقيق نهضة اقتصادية سليمة تحرّر القطر المغربي من التبعية،كما حثّ الشعب المغربي على وجوب مواصلة الكفاح حتّى الاستقلال،ثمّ التأمت حلقة نقاش ضمّت الأمير وجمعا غفيرا من الطلبة المغاربة تناولت أهمّ القضايا السياسية بالمنطقة العربية ومواقف شكيب منها. و في ختام هذا الحفل قدمت هدايا للأمير الذي غادر تطوان متوجها خفية إلى طنجة و قد استقدمه مناضلوها و أهاليها.

2- مرحلة طنجـــــة

نزل الأمير شكيب عند وصوله إلى مدينة طنجة بفيلا دي فرانس محفوفا بثلّة من زعماء الحركة الوطنية المغربية،فهبّ لاستقباله أعيان طنجة احتفاء بمقدمه.

ولمّا كانت زيارته توافق احتفالات المولد النبوي فقد خصّ الأمير باستقبالات حماسية من طرف الجماهير المغربية: "على مختلف طبقاتهم يتقدمون إليه أفواجا أفواجا فمن مقبّل يديه ومن معانق ومن مصافح"(31).ثمّ كانت له لقاءات متعدّدة وزعماء الحركة تناولت أوضاع القضية المغربية في الحال وآفاقها في الاستقبال،وفي هذه الأثناء بلغ حنق السلطات الفرنسية وامتعاضها من شكيب أرسلان أقصاه،فقرّرت طرده و أمهلته 24 ساعة لمغادرة التراب المغربي غير أنّه رفض تسلّم قرار الطرد، مفضّلا مغادرة طنجة عن طيب خاطر.

لقد كانت هذه الزيارة التي قام بها الأمير شكيب أرسلان إلى المغرب الأقصى– على قصرها– خصبة من حيث الآثار الإيجابية التي تركتها حيث ساهمت بفعالية في بلورة مسيرة الحركة "الاستقلالية" المغربية في نضالها ضدّ الاستعمار الفرنسي قصد التحرّر والاستقلال، ذلك"أنّ الأمير لم يكتف بالبحث والإطلاع على أحوال البلاد بل أعطى تعليماته وإرشاداته للوطنيين الذين وفدوا عليه من الرباط و فاس..."(32).

ولا نستبعد أن يكون الطرفان قد قاما بضبط معالم خطة نضالية ،خاصّة وقد تدّعمت أواصر العلاقة التي تجمعهما إذ"أصبح الأمير شكيب أرسلان هو المرشد الروحي لأعضاء كتلة العمل الوطني الذين أصبحوا يتمتعون بتأييده ويعملون حسب إرشاداته"(33)،وبالمقابل أصبح الحاج عبد السلام بنّونه أكبر مساعديه بالمغرب وقد أسّس معه بتطوان القسم المغربي"للجنة السورية الفلسطينية" التي أصبحت بعد ذلك لجنة سورية فلسطينية"(34)،كما أضحت مدنية تطوان تمثل همزة الوصل بين الوطنيين بفاس والأمير شكيب أرسلان بجنيف. وأفرزت الزيارة حركية سياسية برزت مباشرة إثر مغادرة شكيب أرسلان القطر المغربي إذ "لم يمرّ أسبوعان على مغادرة الأمير لمدينة تطوان حتى تأسسّت بها يوم5 سبتمبر 1930 "الهيأة الوطنية الأولى" المعروفة بالهيأة السرّيّة– تتألفّ من السادة الحاج عبد السلام بنونة،محمد داود–أحمد غيلان –محمد طنانة– الحاج محمد بنونة"(35)،ثمّ وفي "يوم 23 نوفمبر 1930 أسس الشاب عبد الخالق الطريس أوّل جمعية وطنية مغربية بالخارج تحت اسم"جمعية الدفاع عن القضية المغربية بالقاهرة"(36) وفي الفاتح من شهر ماي"حرّرت بتطوان عريضة مطالب الأمّة المغربية التي كانت تحتوي على مطالب سياسية هامّة كانت هي الأولى من نوعها بالمغرب في عهد الحماية وتمّ تقديمها إلى رئيس

الجمهورية الأسبانية بمدريد يوم 8 يونيو من طرف وفد كان يرأسه السيد محمد الطيب بو هلال"(37).وفي الرابع من نفس الشهر" نظمت الهيأة الوطنية بتطوان مظاهرة عمّالية كان يتزعمها السادة محمد داود والتهامي الوزاني، فكانت أوّل مظاهرة من نوعها عرفها المغرب في عهد الحماية،و في اليوم التالي حرّرت عريضة المطالب العمالية التي قدمت إلى الصدر الأعظم في الحكومة الخليفية فكانت هي كذلك أوّل وثيقة من نوعها بالمغرب"(38).

كلّ ذلك جعل من زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب فاتحة عهد جديد للحركة الاستقلالية المغربية،إذ تكوّنت الجمعيات الوطنية داخل القطر المغربي وخارجه،ونضج وعي المناضلين المغاربة السياسي،وتكثّف نشاطهم الوطني سرّا وعلنا،عبر المفاوضات السياسية مع المقيم العام الفرنسي والسلط العليا من جهة،والكفاح المسلّح من أخرى فضلا عمّا شهده الإعلام المناصر للقضية المغربية والحامل على السياسة الاستعمارية الفرنسية من حركية سواء داخل القطر المغربي أو خارجه بأوروبا و المشرق العربي.

كلّ هذا ولا نبالغ إن جعلنا الفضل في بعث الحركة الوطنية المغربية إلى شكيب أرسلان الذي توصل إلى جمع شتات المناضلين المغاربة وتوحيدهم و توجيههم التوجيه السياسي الكفيل بتحرير الديار المغربية من الاستعمارين الفرنسي والأسباني على حدّ سواء،بعد أن كان عملهم النضالي في سبيل تحرير المغرب يفتقد إلى المنهج والفاعلية إذ لم"يكن هناك اتجاه معيّن ولا جماعة تنطق باسم المغرب كله وإنّما هناك جماعات وأفراد ما يزالون يتلمسون طريقة للإعراب عمّا يساور أفكارهم و ضمائرهم"(39).

ولقد ظلّ شكيب أرسلان دائب المتابعة لمسيرة نضال الحركة الوطنية المغربية من خلال العلاقات المتينة التي جمعته بزعمائها في الداخل والخارج، و قد كان حريصا على وحدة قولهم و عملهم، إذ عندما جدّ في غضون سنة 1937 خلاف في صلب حركة العمل المغربية بين التهامي الوزاني وعلال الفاسي ينذر بتصعّد الأزمة بادر شكيب أرسلان إلى حسم الموقف و تسوية الانشقاق و إصلاح ذات البين بينهما لما له من منزلة رفيعة لدى كليهما.

والحاصل أن شكيب أرسلان ساهم مساهمة فعّالة في إنشاء"حركة الاستقلال المغربية"،وبلورة اتجاهاتها وتحديد أهدافها من خلال تبنّيه لزعمائها الذين جمعته بهم أواصر علاقات متينة ودفاعه عن قضاياها في ظلّ الاستعمار الفرنسي.

4- شكيب أرسلان و حرب التحرير الطرابلسية

لقد كان غزو الطليان لطرابلس وما تبعه من أحداث جسام أفرزتها السياسة الفاشية مع أهالي طرابلس و برقة أثره العميق في نفس شكيب أرسلان، الذي بادر بمناصرة القضية الطرابلسية، وتبنّى الدفاع عنها سياسيا وحتّى عسكريا لقناعته بعدالة النضال في سبيلها.

4-1- نضال شكيب أرسلان السياسي في سبيل القضية الطرابلسية

ما إن بلغت شكيب أرسلان أخبار إغارة إيطاليا علىطرابلس الغرب حتّى بادر بمكاتبة أصدقائه بمصر لمدّ يد المساعدة للمجاهدين السنوسيين بتسديد حاجياتهم من الإمدادات الغذائية والمالية والعسكرية كما أرسل برقيات إلى ساسة الآستانة يلح عليهم فيها إرسال الإمدادات اللازمة إلى طرابلس لتمكين أهاليه من مجابهة هذا الكرب الذي حلّ بهم والصمود في وجه الغزاة الطليان، واقترح على ناظر الحربية بالآستانة وقتئذ محمود شوكت باشا"وجوب إرسال ضباط كثيرين في زيّهم عن طريق مصر وطريق تونس إلى طرابلس وبنغازي وإرسال ما يمكن من المال و من السلاح تهريبا"(40)، كما قام باتّصالات كثيفة مع جمعية الهلال الأحمر قصد تقديم هذه الأخيرة العون الغذائي والصحي اللازم لأهالي طرابلس و الجبل الأخضر.

وفضلا عن هذه الجهود والمساعي فقد تحرّك بكثافة على الساحة السياسية الدولية بقيامه بعديد الاتصالات بأعضاء جمعية حقوق الإنسان في جنيف معلما إياهم بخطورة ما يجدّ بطرابلس من انتهاكات لحقوق الإنسان المشروعة دوليا، رغم وعد جمعية الأمم له بتدارس القضية الطرابلسية ورغم قيامه بدفع معلوم كراء قاعة الاجتماع من ماله الخاص وتحضيره للخطاب السياسي الذي سيلقيه أمام أعضائها لشرح ملابسات القضية ومعالمها وأخطارها على السلم بالمنطقة العربية الإسلامية، خاصّة، والعالمية عامّة فإنّ جمعية الأمم قد تراجعت في قرارها، والوعد الذي أعطته له، تحت وطأة ضغوط الدول الاستعمارية الكبرى التي تمتلك أهمّ قطع رقعة الشطرنج العالمي.

وفي تلك الأثناء، إدّعى البعض من مناوئي العرب والمسلمين أنّ أحداث طرابلس ليست من مشمولات جمعية الأمم فردّ شكيب أرسلان عليهم في أسلوب لا يخلو من غلظة: "من الغلط أنّ هذه الأمور ليست من صلاحية جمعية الأمم، فإنّ الدفاع عن الأعراض من صلاحية جمعية الأمم، وأنّ حرية الاعتقادات مبدأ مقرّر في جمعية الأمم. وكذلك وصاية الآباء على أولادهم

القاصرين،فهذه كلّها أمور وظيفة جمعية الأمم التدخل لها،و كذلك قتل الناس بدون محاكمة و الإلقاء بهم من الطيارات وأنواع التعذيب كلّ هذا من خصائص جمعية الأمم"(41).

ويتجاوز شكيب أرسلان في دعوته هذه إنصاف أهالي طرابلس وإنقاذهم من الممارسات الفاشية الوحشية حدود جمعية الأمم ليدعوَ الإنسانية جمعاء للتعاطف والقضية الطرابلسية،لأنّ ما يقترف في طرابلس الغرب من جرائم يكتسي أبعادا خطيرة على سلامة الإنسانية جمعاء،ذلك أنّ شكيب أرسلان أدرك جيّدا أنّه في صورة ملازمة الإنسانية الصمت عمّا يحدث في طرابلس وبرقة من إهدار للنفوس البشرية و دوس للقيم الإنسانية فإنّ أمثال هذه الفظائع ستتكرر في أمصار أخرى من المعمورة.

وإلى جانب المساعي السياسية عمد شكيب أرسلان إلى الحملة على سياسة إيطاليا الفاشية من خلال ما كان ينشره من مقالات على صفحات مجلّته الفرنسية اللسان "الأمّة العربية" La nation Arabe" وغيرها من المقالات المستعرة التي كان يرسل بها من جينيف إلى عديد الصحف المشرقية كالشورى والفتح...خاصّة وقد كانت ترد على مقر إقامته أنباء تصوّر مدى تفنّن الطليان في تعذيب أهالي طرابلس وبرقة ونفيهم وتقتيلهم جماعيا بظرق وحشية ونهب بيوتهم وتخريب بساتينهم واغتصاب أعراضهم وحيازة أراضيهم وإثقال كواهلهم مكوسا وتقويض زواياهم الدينية وتشريد مشايخ السنوسية والأيمة والمؤذنين والفقهاء والسدنة أو سجنهم أو نفيهم أو القضاء عليهم دون رحمة بعد الاستحواذ على كامل أوقافهم،مما جعل شكيب أرسلان يعتبر أنّ"الذي حصل في طرابلس لم يحصل إلاّ في القرون الوسطى"(42)،وأنّ "الفرنسيين سادة أشراف بالنسبة للطليان-هؤلاء أوطى شعب في العالم أشرافهم أنذال فكيف أنذالهم"(43).

ثمّ كشف شكيب أرسلان عن التناقض البارز في السياسة الإيطالية بين ادّعاء التمدن والحضارة والدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان وممارسة أبشع أنواع العسف والقهر والوحشية بسلب الشعوب استقلالها وانتهاك حقوقها وحريتها،ممّا جعل"مبادئ الفاشست مناقضة للحرية،في كلّ شيء،مبنية على أنّ كلّ ما يعود بتقوية إيطاليا أو لما يعتقد رجال الحزمة أنّ فيه تقوية إيطاليا فهو واجب الإجراء بدون نظر إلى حق أو عدل أو قانون دولي أو قانون مدني

أو مبدأ اجتماعي إنساني بل كلّ هذه الأمور لا يقام لها أدنى وزن في سبيل مصلحة إيطاليا أو مصلحة الحزمة الفاشية ثانية"(44).

ولم يكن شكيب أرسلان في مذهبه السياسي يفضل القول على الفعل والنظرية على الممارسة العملية. بل كان يزاوج بينهما إذ وقد بلغته أصداء فظائع الطليان في طرابلس وبرقة دفعته حميته على العروبة والإسلام إلى اتّخاذ قرار التوجه للجبهة متطوعا.

4-2- تطوّع شكيب أرسلان في الحرب الطرابلسية

لمّا بلغت أوضاع القضية الطرابلسية حدّها الأقصى من الخطورة من خلال تصاعد الحرب بين جيوش الغزو الإيطاليين والمجاهدين السنوسيين أدرك شكيب أرسلان لا جدوى الاستمرار في الحملات الصحفية المستعرة ضدّ الطليان الفاشست ولا في الخطب الحماسية المشهّرة بالممارسات اللاإنسانية التي يتعرّض لها أهالي طرابلس،ولا في الاتّصالات السياسية قصد كسب مزيد تعاطف رجالات السياسة الأوروبيين مع القضية الطرابلسية ومناصرتهم لها، فأقرّ العزم على التوجه إلى جبهة القتال متطوّعا لشدّ أزر إخوانه المجاهدين السنوسيين في حربهم ضدّ الغزاة الفاشست رغم تفاوت العدد والعدّة بينهم وهؤلاء.كلّ ذلك لأنّ شكيب أرسلان السياسي يؤمن بوجوب مزاوجة السياسي الحقّ بين مبادئ مذهبه النظرية و ممارسته العملية.

بعد أن غادر شكيب أرسلان وثلة من رفاقه المتطوّعين بيروت في اتجاه مصر فالجبهة الليبية،فضّل المرور بدمشق حيث تكلّم مع قيادة الفيلق الخامس في وجوب إرسال عدد من العساكر والضباط إلى طرابلس متنكرين بثياب بدو.ثمّ واصل طريقه إلى القدس فغزّة حيث انتظر مرور طلائع هذه العساكر المتنكرين، التي تمكنت رغم الحراسة الانغليزية المشدّدة للحدود المصرية من دخول مصر والالتحاق بجبهة الجبل الأخضر بدرنة حيث يعسكر القائد العثماني أنور باشا وجيشه،ولكن عندما وصل شكيب أرسلان إلى العريش جاء أمر من القاهرة يوصي سلطات الأنغليز بعدم السماح له بالمرور فرجع ثانية إلى غزّة التي سافر منها إلى يافا أين ركب البحر إلى مصر،التي أقام بها أربعين يوما في انتظار سنوح الظروف المناسبة له للالتحاق ورفاقه بالجبهة.ورغم معارضة الخديوي عباس حلمي له في التوجه إلى القتال فإنّ شكيب أرسلان أبى إلاّ أن يلتحق بإخوانه المجاهدين في جبهة"الجبل الأخضر بدرنه عن طريق السكة الحديدية

إلى الحدود الليبية،فركوب الخيل إلى موقع العثمانيين بطبرق و الذي يشرف عليه أمير اللواء أدهم باشا.

وبينما كان شكيب أرسلان يستعدّ لمواصلة مسيرته إلى الجبهة،بعث القائد العثماني أنور باشا بأمر إلى أدهم باشا يطلب منه فيه إرجاع الأمير من حيث أتى وعدم السماح له بالتقدّم،فما كان من أدهم باشا إلاّ أن راجعه في الأمر وعبّر له عن عدم موافقته له اعتبارا للمنزلة الرفيعة التي يحظى بها شكيب أرسلان في نفوس العثمانيين من الجيش العثماني والسنوسيين،إذ أنّ هذا الطرد سيكون له وخيم العواقب على سير الحرب ولا يستبعد منه حدوث حركة عصيان داخل الجيش العثماني،فتراجع أنور باشا عن قراره وأصدر أمره كي يسمح لشكيب أرسلان بمواصلة الطريق إلى الجبهة.

ويعزو شكيب أرسلان موقف القائد العثماني أنور باشا إلى مكيدة حاكها له الأعداء الذين أرادوا الإيقاع بينه والأتراك حتى يعود من الجبهة ساخطا عليهم وبذلك يتوقف عن مناصرة سياسة حكامهم و خدمة سلطنتهم،وذلك بإذاعتهم أنّ شكيب أرسلان ذاهب إلى الجبل الأخضر لتحريك العرب على الترك.

وعندما وصل شكيب أرسلان إلى درنة حيث معسكر القائد العثماني أنور باشا،بدأ هذا الأخير متحرزًا منه، فأخذ شكيب يحادثه ويحلّل له الأخطاء التي وقعت فيها الخلافة العثمانية بإهمالها طرابلس الغرب،مما غيّر نظرة أنور باشا لشكيب أرسلان إذ تأكّد أنّ ما وصله عنه لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة وإنّما هو من دسائس الأعداء.وبقي شكيب أرسلان مقاتلا بالجبهة لمدّة سبعة أشهر اشترك خلالها في بعض الوقائع.ويصوّر لنا جوانب من إقامته بالجبهة في قوله :"...وبقيت في درنة بالجبل المشرف عليها الذي كان فيه معسكر أنور باشا وكان يقال له معسكر عين منصور مدّة 5 أشهر وذهبت من هناك إلى معسكر عزيز علي المصري الذي كان يرابط أمام مدينة بنغازي.وبقيت هناك نحو شهرين. ولمّا كنت في معسكر حضرت بعض الوقائع الحربية مع الطليان وكان معي خمسة رجال من أتباعي من جبل لبنان،وبقيت في إحدى الوقائع من الصباح إلى غروب الشمس أنا ومصطفى كمال وأنور جالسين وراء متراس وقنابل الشرابل تتساقط علينا و من حولنا"(45).ولكن بقي كلّ فريق في أرضه فلا نحن زحفنا إليهم ولا هم زحفوا نحونا.ولمّا انتصف النهار اشتدّ بنا الجوع وكان مع مصطفى كمال رغيف من الخبز فقسّمه بيننا وكنّا خمسة وراء ذلك المتراس فأصاب كلّ منّا فرزدقه.وبعد الطعام غلب عليّ النعاس لأنّي نهضت

ذلك اليوم من الفجر لحضور الواقعة فأشار عليّ مصطفى كمال بأن أبيت في ظلّ شجرة عفص صغيرة،على مسافة20 مترا من المتراس فذهبت واضطجعت على التراب ومن شدّة النعاس غلب عليّ الكرى برغم قصف المدافع وأغفيت نحوا من عشرين دقيقة،وإذا بكتلة تراب غمرتني وانفجرت فأصابني منها التراب الذي أطارته من الأرض فقمت ورجعت إلى جانب مصطفى كمال وأنور باشا وراء المتراس"(46).

ثمّ حتّى وهو في الجبهة لم ينفكّ يستنهض في مقالاته الصحفية-الأمّة العربية-الإسلامية كي تسرع في تقديم العون للمجاهدين في الجبهة حتّى يتسنّى لهم الصمود أطول مدى في وجه الغزاة الطليان.

ولقد اضطّر شكيب أرسلان إلى مغادرة جبهة بنغازي بالجبل الأخضر والعودة سراعا إلى الآستانة للحيلولة دون إبرام الوزارة الجديدة التي حلّت محلّ حكومة الإتحادين معاهدة صلح مع إيطاليا تهبها فيها طرابلس الغرب وبرقة مقابل تعويضات مالية هامّة مع تعهّد إيطاليا بالإبقاء على السيادة الدينية للسلطان العثماني.

ولمّا أبرزنا مظاهر نضال شكيب أرسلان السياسي والعسكري في سبيل نصرة القضية الطرابلسية و الدفاع عنها، يجدر بنا أن نستقرئ أبعاد موقفه منها.

4-3- أبعاد موقف شكيب أرسلان من القضية الطرابلسية

لئن تحمّس شكيب أرسلان للنضال في سبيل القضية الطرابلسية بالدفاع عنها سياسيا وعسكريا فلقناعته بعدالتها واستقرائه العواقب الوخيمة التي تنتظر العرب والمسلمين بسببها إن هم قعدوا عن نصرتها،ذلك أنّه قد أدرك أنّ الحرب الطرابلسية تهدّد سلامة السلطنة العثمانية واستقلال الأقطار المنضوية تحت لوائها.لهذا عمد إلى توعية العرب والمسلمين بالأخطار المحدقة بهم وحتمية إعانتهم المجاهدين الطرابلسيين بالنفس والمال والعتاد،إذ المسألة لا تتوقف عند القطر الليبي المغتصب من طرف الطليان وإنّما تتجاوز هذه الحدود الإقليمية الضيقة لتصبح قضية قومية إسلامية تنتهك فيها حرمات الإسلام من طرف النصارى وقومية عربية تداس فيها مقوّمات العروبة من طرف الأوروبيين لهذا أكّد شكيب أرسلان أنّ "تسليم طرابلس أو التساهل بها لا يكون سببا فقط لذلّ المسلمين في طرابلس وافريقية فقط واستطالة الأجانب عليهم فيها بل يكون بداية لانهيار السلطنة العثمانية بأجمعها"(47)،ولم يكن شكيب أرسلان العثماني السياسة ليرضى بمثل هذا المصير للسلطنة لوعيه العميق بـ"أنّ كلّ

حركة ضدّ العثمانية تلحق بها ضعفا و تزلزل أركانها وتفيد الإفرنج و تضرّ بالعرب و الترك معا"(48).

وهكذا فإنّ القضية الطرابلسية في وعي شكيب أرسلان السياسي حبلى مخاطر تهدّد الكيان العربي-الإسلامي في الاستقبال، إذ بعد أن يتمّ لإيطاليا طلينة طرابلس، وتنصيرها، فإنّها —حسب فراسته السياسية- ستتوغلّ عبرها إلى باطن إفريقيا حتّى بحيرة التشاد، كما يكشف عن هذه الأطماع أحد الساسة الإيطاليين بقوله: "إنّ ليبيا هي كيس رمل لم يقصدوها لأجل نفسها بل قصدوها بابا لغيرها"(49)، لهذا فإن قعد العرب والمسلمون عن نصرة إخوانهم الطرابلسيين فإنّ النوائب ستعمّ ربوعهم وسيلقون نفس المصير الذي يلقاه الطرابلسيون، فيدعوهم شكيب أرسلان في هذا الشأن إلى مقاطعة الطليان"في كلّ محل فيه طليان ومسلمون هذا يجب أن تكتتب به تعهدات مطبوعة وتمضى كما فعل عرب فلسطين في قرار مقاطعة اليهود"(50).

وفضلا عمّا تقدّم فقد تنبّأ شكيب أرسلان بوخيم عواقب هذه الحرب الطرابلسية لا على المستوى العربي-الإسلامي فحسب بل وكذلك على المستوى العالمي إذ أكّد أنّها"ستكون فاتحة حروب كلّ واحدة منها أعظم من التي سبقتها"(51)ولقد جاءت الأحداث مصداقا لحدسة السياسي هذا، ذلك أنّ هذه الحرب الطرابلسية"أدّت إلى الحرب البلقانية والحرب البلقاينة أفضت إلى الحرب العامّة"(52).

و خلاصة القول فإنّ شكيب أرسلان قد ساهم بفعالية في مناصرة القضية الطرابلسية وخدمتها سياسيا من خلال حملاته الصحفية المستعرة ضدّ سياسة الفاشست بطرابلس واتصالاته برجالات السياسة الأوروبيين لتعريفهم بمعالمها كسبا لتعاطفهم ومناصرتهم لها في المحافل الدولية ولدى الهيئات الرسمية، وحتّى عسكريا من خلال توجهه من لبنان إلى جبهة الجبل الأخضر بدرنة لمجاهدة الطليان مع إخوانه الطرابلسيين، وفي هذا أجلى مظهر لتزاوج النظرية والمراس في سيرة شكيب أرسلان السياسية.

الهوامـــــش

1) الطاهر، محمّد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص 298

2) مصالي الحاج: أحد روّاد حركة التحرير الجزائرية. ولد سنة 1900. ثمّ تحصّل على ثقافة عربية وفرنسية محدودة، وامتاز بمواهبه في التنظيم والخطابة والسياسة، مما أكسبه شعبية واسعة في جميع أوساط المجتمع الجزائري. خاض النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي وهو حدث. فأسّس جمعية "نجم شمال افريقيا"، للدفاع عن مسلمي شمال إفريقيا. دخل السجن وعرف المنفى في عديد المناسبات عندما عمدت فرنسا إلى حلّ جمعية "نجم شمال إفريقيا". ثمّ أسّس سنة 1937 "حزب الشعب الجزائري"، والذي حصر نشاطه في نطاق الجزائر. وقد حلّت السلطات الاستعمارية الفرنسية هذا الحزب سنة 1939، واعتقلت مصالي الحاج بعد أن حكمت عليه بالأشغال الشاقة لمدّة 17 سنة، وبحظر الإقامة في الجزائر لمدة 20 سنة، ولكنّه واصل نضاله من منفاه إلى حين وفاته.

3) الطاهر، محمّد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص 294.

4) نفس المرجع

5) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص330، و انظر كذلك الجزء الثاني، ص175-187-204-359

6) بو عيّاد، الحسن: الحركة الوطنية و الظهير البربري، لون آخر من **نشاط** الحركة الوطنية في الخارج-1348 هـ-1930 م، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، دار الطباعات الحديثة، 1399 هـ/1979، ص 85-86.

7) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج2، ص179

8) بو عيّاد، الحسن: الحركة الوطنية و الظهير البربري، ص 86

9) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج2، ص186

10) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان أمير البيان، الجزء الثاني، ص 714، عن رسائل شكيب أرسلان المخطوطة إلى السيد رشيد رضا، والتي لم يضمّنها شكيب أرسلان كتابه: "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة"

11) الفاسي، علال: الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي، مراكش، اللجنة الثقافية الوطنية لحزب الاستقلال، الطبعة الأولى، القاهرة 1386هـ1948، مطبعة الرسالة ص17-18

12) صالح الشريف التونسي: علم من أعلام الفكر والسياسة في تونس. تعلّم بالزيتونة، ثمّ تولّى التدريس بها. فكان من أبرز شيوخها. امتاز منذ حداثته

بوعيه لواقع تونس الاستعماري،فكان من المناضلين الأوائل في مقاومة الاستعمار الفرنسي،قامت فرنسا بنفيه عقب حوادث الزلاج(1911)،فنزل بسويسرا ومنها سافر إلى الاستانة،حيث أصدر رفقه صديقه الشيخ إسماعيل الصفائحي كرّاسا في "مفاسد الاستعمار الفرنسي بتونس والجزائر" وكانت وفاته بجينيف سنة 1920.

13) طاهر،محمد علي: ذكرى الامير شكيب أرسلان،ص 282

14) Bourguiba (Habib):Un véteran des luttes anticolonia, Chekib Arslan, in L'action Tunisienne,Editional spécial-3 Juin 1937, p 2

15) Ibid:p2

16) Ibid:p2

17) بو عيّاد،الحسن: الحركة الوطنية و الظهير البربري،ص643

18) أرسلان،شكيب: حاضر العالم الاسلامي،الجزء الثالث،ص 339

19) نفس المصدر،الجزء الثالث،ص340

20) عبد الدائم،رمضان: خطّة استقلال تونس في مشروع شكيب أرسلان،مجلّة "العربي"،(الكويت)،العدد 238،ديسمبر 1978،ص49

21) أرسلان،شكيب: حاضر العالم الإسلامي،ج3- 337.

22) بو عيّاد،الحسن: الحركة الوطنية و الظهير البربري،ص 528-529

23) نفس المرجع،ص 216

24) نفس المرجع،ص 283

25) نفس المرجع

26) أرسلان،شكيب: حاضر العالم الإسلامي،ج3،ص 340-341

27) ألغيت أحكام "الظهير البربري"عقب إحراز المغرب الأقصى على استقلاله سنة 1956،وذلك بظهيرين صدرا في أوت1956،ينصّ أولهما على إحداث محاكم للحكام المفوّضين(قضاة)في دوائر المحاكم العربية،وتطبّق عليها نفس القواعد المتعلقة بالنظام والتسيير الجاري بهما العمل بمحاكم المفوضين، ويضاف إلى المفوضين أعضاء مستشارون.أمّا الثاني فينصّ على إحداث محاكم القضاء في دوائر المحاكم العرفية،ويكون لها نفس الاختصاص وذات النظام الذي تخضع له محاكم القضاة في باقي أنحاء المغرب.

28) أرسلان،شكيب: حاضر العالم الإسلامي،ج3،ص 337

29) حكيم، محمد ابن عزوز: وثائق سريّة حول زيارة شكيب أرسلان للمغرب، ص75

30) نفس المرجع: ص20

31) نفس المرجع: ص 29

32) Julien (Charles André):Le Maroc face aux imperialismes, Paris,1978,P 161

33) Julien (Charles André):L'Afrique du Nord en Mache Paris,1953,P25

34) حكيم، محمد ابن عزوز: وثائق سريّة حول زيارة شكيب أرسلان للمغرب، ص66

35) نفس المرجع: ص 66

36) نفس المرجع: ص 67

37) نفس المرجع: ص 66

38) نفس المرجع: ص 66

39) غلاب، عبد الكريم: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الجزء الأول، المغرب، 1976، ص77

40) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 77

41) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص744، عن رسالة بعث بها شكيب إلى السيد رشيد رضا، لوزان 2 أبريل 1931.

42) نفس المصدر: ص 742

43) نفس المصدر: ص 743

44) بو عياد، الحسن: الظهير البربري، ص 528

45) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، ج2 ص 122-123-124

46) نفس المرجع، و انظر كذلك: شكيب أرسلان: سيرة ذاتية، ص 83

47) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 81

48) نفس المصدر: ص 81

49) بو عيّاد، الحسن: الحركة الوطنية و الظهير البربري، ص 528

50) نفس المصدر: ص 528

51) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 81

52) نفس المصدر: ص 81

الفصـــل الســادس

شكيب أرســلان و الوحــدة العربية

إنّ قضية الوحدة سلمية عمرانية مدنية، مبنية على حفظ الديار منعا للقتال الذي أكثر ما يقع على أسلاب الضعفاء.فلتكن كلمتنا دائما: لتحيى الأمّة العربية"

شكيب أرســلان

"أشهد أنّك أوّل عربي تكلّم معي في الوحدة العربية وأراد أن تكون وحدة عملية؟"

الملك فيصل ابن عبد العزيز

يعدّ شكيب أرسلان من الروّاد الأوائل السبّاقين إلى دعوة الأقطار العربية إلى الاتحاد في العصر الحديث حتّى تكوّن وطنا عربيا واحدا لا حدود جغرافية مصطنعة تجزّئه وتفرّق بين شعوبه،بل هو مساحة واحدة تمتدّ من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.

ولقد بادر شكيب أرسلان إلى هذه الدعوة للوحدة العربية الشاملة مباشرة إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى في ظروف دقيقة اتّسمت بالغموض والاضطراب وغياب الرؤى السياسية الواضحة.

ولئن وجّه جميع مساعيه لخدمة هذا المشروع الوحدوي وتجسيده في الواقع رغم ما لقيه من معارضات عديد الأوساط العربية التي اعتبرته مجرّد خيال في خيال يستحيل تنفيذه في دنيا الواقع فسخرت منه ومن صاحبه مستخفّة، فإنّه لم يأبه لكلّ مظاهر الإحباط والتثبيط لعزيمته،لشدّة إيمانه بما تقتضيه أحوال المرحلة الراهنة التي يمرّ بها العرب من وجوب وحدة الصفّ التي تستمدّ مشروعيتها من تفاعل عدّة عوامل حفزت شكيب أرسلان على السعي بحماس لتجسيدها تنظيرا وتطبيقا.

1- حوافز الدعوة إلى الوحدة العربية

إنّ دعوة شكيب أرسلان إلى الوحدة العربية وليدة عدة عوامل متفاعلة ضغطت عليه ودفعته لكي يبادر بالاضطلاع بهذه المهمة الدقيقة في ظروف حرجة كان يمرّ بها العالم الذي أرهقته الحرب خسائر ومآسي لم تضمّد جراحها بعد، وتسبّبت في تغيير خارطة المعمورة، وحصول عدّة أحداث جسام أبطالها الدول التي خرجت منتصرة في هذه الحرب، وضحاياها الدول العربية والإسلامية التي وقع تقسيمها وسلبها حريتها واستقلالها. وتتمثل أبرز الحوافز التي دفعت شكيب أرسلان إلى الدعوة إلى الوحدة العربية في:

1-1- النسب العربي

لئن خطّط شكيب أرسلان لشروع الوحدة العربية، وسعي إلى تحقيقه رغم ما كان يعترض سبيله من عقبات فلعروبته الصميمة رغم ما كان يشيعه عنه أعداؤه من عدم مصداقية نسبه العربي لانتمائه للدروز. فيؤكد أنّ "الدروز أو بني معروف في النسب عرب أقحاح لا يوجد في العرب الجالين عن جزيرة العرب أصحّ عروبةً منهم"(1)، وبذلك فالدروز ليسوا أتراكا ولا خليط أجناس إذْ "مهما يكن من العوامل فإنّه متى انقسم الناس ولحق كلّ فريق بأهله فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ولا من الجامعة الإسلامية ولن يقدر أحد أن يخلّ بهذه القاعدة " فمن نكث فإنما ينكث عن نفسه"(2)

وقد كان نسب شكيب أرسلان مصدرا لافتخاره بعروبته وحافزا لخدمة قضاياها المصيرية، من ذلك ترديده أثناء حجّه سنة 1929: "إنّي عربي حرّ في بلاد عربية حرّة"(3).

وكان لا يتوانى في الردّ على المتحاملين على العرب بالسعي إلى الحطّ من شأن مدنيتهم وإسهامهم الحضاري أمام الأمم الأخرى، بنفي كلّ إبداع عنهم وجعلهم مقلدين لا مبتكرين، فيبرز مناقضة الواقع لمثل هذه الادعاءات من ذلك أنّ فلسفة التاريخ يعود قصب السبق فيها إلى العلامة المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون لا لأرسطو أو الفرابي ممّا أهّل ولي الدين أبي زيد عبد الرحمان ابن خلدون أن يكون: "مفخرة العرب يل مفخرة الإسلام كله"(4)، وكذلك هو الشأن بالنسبة لمذهب أصل الأنواع وطريقة الانتخاب الطبيعي اللذين لا تعود ريادتهما لدروين وإنّما مرّة أخرى إلى ابن خلدون الذي"يذكر أنّ أرقى أفق في الجهاد متّصل بأدنى أفق من النبات، وأرقى أفق من النبات مختلط بأدنى أفق من الحيوان ممّا يؤدي إلى كون المخلوقات سلسلة"(5). هذا إضافة إلى ناموس

الجاذبية وحركة الأرض وقطع المحيط الأطلسي بحرا من المسائل التّي تعود فيها الريادة إلى العرب.

لكلّ هذه المعطيات التي تفرّد بها الجنس العربي يدعو شكيب أرسلان العرب إلى التمسّك بمقوّمات عروبتهم والمحافظة على سمات شخصيتهم المفيدة لما تشتمل عليه من تراث فكري عقائدي،ذلك أنّ "كلّ رجل يتمسك بعوائده ومميزات قومه في روحه شهما حمله على ذلك"(6).كلّ ذلك حتى يحصّن الفرد العربي مقوّمات كيانه أمام الغزو الحضاري الغربي الذي يهدّده ويستهويه ليذوب في أتونه فينبت عن أصوله.

فالعروبة شكلت إحدى قناعات شكيب أرسلان،الأمر الذي حفزه على الدفاع عنها وتقوية شوكتها بدعوة الأقطار العربية إلى وحدة الصفّ،والجهود والغايات قصد بناء غد عربي أفضل سمتاه المناعة و الازدهار،ذلك أنّ الوحدة العربية في وعي شكيب أرسلان السياسي طريق للاستقلال ووسيلة للحفاظ عليه في آن واحد،وهي حافز للعمل في سبيل الرقيّ والازدهار.

2-1 – تنكر الأتراك للجنس العربــي

كان شكيب أرسلان يسعى دوما إلى التوفيق بين سياسته العثمانية والعربية غير أنّه عند ملاحظته تنكّر الأتراك للعرب من خلال صلف حكّامهم وإرهاقهم للأهالي العرب الموالين للسلطنة وقلب ظهر المجن للعرب والإسلام من طرف الغازي مصطفى كمال أتاتورك وجماعته الذين عمدوا إلى قطع كلّ الروابط التاريخية والحضارية التي كانت تصل الترك بالعروبة والإسلام،أخذ يعيد النظر في سياسته العثمانية ويراجع مواقفه الموالية للخلافة العثمانية،فرأى من الواجب عليه إعلان القطيعة بينه وبين حكومة الأتراك وتجميد الدعوة لها، مفضّلا خدمة العروبة بالدعوة إلى وحدة أقطارها.هذه الوحدة التي رآها أقوى و أوثق و أنجع من وحدة الأقطار الإسلامية في ظلّ الخلافة العثمانية التي لم تحقق الآمال المعلقة عليها من طرف العرب.

كلّ ذلك،ومقصده من الدعوة إلى الوحدة العربية إعادة سالف عزّ العرب ومجدهم بعد خسف طال وذلّ امتدّ،وإنصافهم بعد مظالم تعدّدت في حقهم اقترفها الحكّام الأتراك إلى جانب أنواع شتّى من الغبن الاجتماعي كان يضيم العرب ويضرم في أنفسهم الغيرة من الترك والحقد عليهم" لأنّهم كانوا أكثر من هؤلاء عددا ولم تكن لهم الامتيازات التي للترك،وكان الترك يزعمون أنّ العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التّامة مع

الأتراك"(7)، من ذلك عدم قيامهم بالخدمة العسكرية ممّا حتّم على الحكومة التركية استجلاب عساكر أجانب لتعزيز جيشها.

وكان هذا الصراع بين العرب والترك يتصاعد لمّا ازدادت الخلافة العثمانية ضعفا. ولئن لم يطف على السطح ولم ينفجر بركانه فمردّ ذلك "الخوف على بيضة الإسلام لا غير"(8). كلّ هذا دون إهمال دور انغلترا في إذكاء نار الشقاق بين الأمتين ممّا جعل أغلبية العرب تنزع إلى الانفصال عن الدولة التركية حتّى وإن كان عقلاؤها يرون خلاف ذلك اعتمادا على أنّه"إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج"(9).

ولئن كان شكيب أرسلان من بيْن هؤلاء العقلاء الذين سعوا دوما إلى تلطيف التوترات التي تطبع علاقة العرب بالترك من خلال محاولاتهم المتكررة في الصلح بين الجنسين فإنّه–وقد فشلت كلّ تدخلاته لدى حكومة الآستانة لمراجعة سياستها العربية–قد انحاز إلى حزب الأغلبية من العرب الداعي إلى وجوب الانفصال عن الترك الذين أضّروا بالعرب دون أن ينفعوهم بالأنعتاق من قيود الولاء للخلافة العثمانية حفظا لما تبقى من ماء الوجه، ذلك أنّ كلّ هذه المعطيات جعلته يرى أنّ"القضية ليست قضية تاج ولا صولجان وإنما هي قضية الأمة العربية التي ينبغي أن يكون أمرها فوق الإمارات والولايات، وأنّه خير للمرء أن يكون راعي ضأن في عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء و هل من سلطان أعظم وأصغر لمن يسيطر الأجنبي عليه و قاده كما يقاد البعير"(10).

كلّ هذا جعل شكيب أرسلان يتحوّل عن سياسته العثمانية ليتّخذ السياسة العربية بديلا. فبادر بالدعوة إلى الوحدة العربية الشاملة اعتبارا لما ستجلبه هذه الوحدة للعرب من خير، وما ستكفله لهم من أمن واستقرار وتعايش في كنف التناغم بعيدا عن التنافس والاقتتال، ذلك أنّ صراعاتهم وخلافاتهم هي مصدر التوترات المانعة لاستتباب السلم في الشرق الأدنى وأوروبا. ثمّ ينتهي إلى أنّه ولئن كانت ريح العثمانية" قد ذهبت وذهبت وحدتها وانطوى بساطها لن تذهب ووحدتها لا تزال نشيدة آمال العرب"(11).

لكلّ هذا شكّل تنكّر الأتراك للجنس العربي حافزا مهمّا لمشروع الوحدة العربية، الذي حدّد مبادئه ومقوّماته شكيب أرسلان، ودعا العرب إلى تنفيذها، ذلك أنّ الوحدة العربية أمر حتمي ومسألة خطيرة يتوقف عليها مصير البلدان العربية إذ"لا حياة للعرب في هذا العصر وما يليه إلاّ بالحلف والوحدة العربية

يجب تأسيسها منذ الآن و إلاّ ندم العرب و لات ساعة ندم"(12)

1-3 - الجوامع المشتركة العربية

تجمع الأقطار العربية عديد الجوامع المشتركة الكفيلة بأن تجعل منها قطرا عربيا واحدا.فهي تنتمي إلى نفس الجنس العربي،وتتكلم- في أغلبها- نفس اللغة وهي العربية،وتدين-في معظمها بنفس الديانة وهي الإسلام،وتشترك فيما بينها في نفس العادات والتقاليد التي وإن اختلف بعضها من قطر لآخر فإنّها تبقى في صميمها عربية.ثمّ إنّ العرب يجمعهم تاريخ يكاد يكون واحدا.وفضلا عن كلّ هذا "فيهم النجابة والصلابة وخفة الحركة وتمام القابلية لكلّ ما يرقّي الأمم وفيهم مع ذلك العدد الجمّ الذي يجعلهم من أكبر الأمم و بأيديهم أوسع البقاع وأقدمها تاريخا وأذكاها تربة وأكثرها اعتدالا وأفرطها إلى حق المدنية. فالمدينة البشرية إنّما نبتت في البلاد التي هي اليوم مساكن العرب.وفنّ الكتابة الذي لا تتصور الحضارة بدونه قد وضعه العرب.وبلاد العرب من الجنوب إلى الشمال لحافلة بآثار العمران المدهشة التي تنطق بما يقدر عليه الغرب إذا سمت هممهم إلى المجد.ولا يزال العرب في نفس قابليتهم التي كانوا فيها لا يعوزهم سوى الانتهاض و الارتياض والانضمام بعضهم إلى بعض"(13).

وتشكل كلّ هذه العوامل المشتركة بين العرب أحد الحوافز الأساسية التي حثّت شكيب أرسلان على السعي بحماس لتشييد صرح الوحدة العربية.

1-4- أزمة الواقع العربي

كانت تسود علاقات البلاد العربية بعضها ببعض أجواء الاختلاف والصراع والانقسام إلى جانب المكائد والدسائس ممّا جعلها تستنزف قواها في مواجهة بعضها البعض فيسّرت سبل غزوها.

ولقد حزّ تأزّم الواقع العربي في نفس شكيب أرسلان فدفعه إلى الإسراع لإنقاذ الأمّة العربية التي تتآكل،وذلك بدعوة ملوكها ورؤسائها إلى تجاوز خلافاتهم ونزاعاتهم بالتوحّد لصدّ العدوّ الأجنبي المشترك وإحباط أطماعه الاستعمارية.

وكان يتألّم للأوضاع المتدهورة التي بلغتها أمته العربية التي كانت "كثيرة العدد، شديدة البأس،متوقدة الذكاء إلاّ أنّها مع كثرة عددها مفكّكة الأجزاء مقطّعة الأوصال،حتّى أنّ بعضها لا علم له ببعض،وهي أمّة شديدة البأس لكن بأسها واقع فيما بينها و شاغل لها عن الخارج بالكلية.

وهي أمّة متوقّدة الذكاء إلاّ أنّ ذكاءها مصروف إلى كيد بعضها لبعض وغرام هذا بخضد شوكة ذاك وما أشبه ذلك من البلايا"(14).

ولكي تنفرج أزمة هذا الواقع العربي المتدهور لابدّ من اتحاد العرب فيما بينهم،و"هل للعرب نجاة بغير الاتحاد؟ و هل الدولة العربية التي تنزع إليها نفوسنا غير دوله الاتحاد العربي أو الممالك العربية المتحدة Arabes Etats Unis"(15).ذلك أنّ العروبة في وعي شكيب أرسلان السياسي جامعة كليّة يستحيل على العرب التنكر لها والعمل ضدّ ما تقتضيه مصلحتها في الحال والاستقبال، وذلك حتّى يتمكّنوا من درء كلّ خطر أجنبي إذ"لم يعد ممكنا أن يعيش العرب في أوطانهم ما داموا مليونا في هذا القطر وكلّ منهم لا يربطه بالآخر غير النطق بالضاد"(16).فلا قدرة للعرب على الثبات أمام الدول الاستعمارية بدون الاتحاد في جبهة واحدة دون تردّد إذ أنّ" الوقت مخيف جدّا و المستقبل مظلم حالك الظلام و الحرب الأوروبية مهما تأخّرت فهي آتية لا ريب فيها و قد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاوضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية.

فالبلدان العربية تحت الخطر بل الخطر الشديد، إنّي لأعلن للعرب هذه الحقيقة من الآن وليس أمامهم لدرء الخطر إلاّ الاتحاد ظاهرا وباطنا،إنّه إذا شبّت حرب أوروبية،تفلت كلّ من قيده وصار كلّ قوي يستعمل قواه والحقّ بعد ذلك للغالب وقد ينتهي الأمر بالاتفاق لكن على ظهر الضعيف"(17).

فشكيب أرسلان بدعوته الأقطار العربية إلى الوحدة وتجاوز واقعها المتأزّم إنّما يروم إنقاذ البلاد التي لم تستعمر منها بعد،من السيطرة الأوروبية إبقاء على سيادتها وحفاظا على حريتها واستقلالها إذ أنّ الوحدة هي"الوسيلة الوحيدة لصدّ الاستعمار الذي أنشب براثنه بقسم من بلادنا وهو يهدّد القسم الثاني منها.فإذا أنشب براثنه بجزيرة العرب كما أنشبها بسورية والعراق وفلسطين والكويت والبحرين وعمّان وحضرموت وعدن لم يبق عربي على وجه البسيطة حرّا"(18).

وهكذا ينبّه شكيب أرسلان العرب إلى ما يحوق بهم من أخطار خارجية لا سبيل إلى درئها والنجاة منها إلاّ بالوحدة الشاملة إذ أنّ نفاذ بصيرته السياسية جعله يتنبأ بالأحداث قبل وقوعها. هذه الأحداث التي غالبا ما تكون مصداقا لقوّة حدسه السياسي وتكذيبا لمزاعم مناوئيه الذين لا ينصفون رؤاه السياسية إلاّ بعد فوات الأوان،ويؤكد شكيب أرسلان خاصّية أساسية لمراسه السياسي

قائلا" إنّنا و الحمد لله موفقون في آرائنا مستشعرون للأمور قبل وقوعها و إنّنا ثماني مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ثمّ تحققه الأيام و تؤيده الحوادث و يتجلى فيه الصواب كفلق الصبح"(19).

ولما كان إيمانه عميقا بمشروع الوحدة العربية النابع من غيرته على مصير العرب فإنّه لم يتوان في لوم هؤلاء على عدم تحمّسهم للاتحاد وسخريتهم من دعوته ومن جهوده الوحدوية.فيخاطبهم في أسلوب ساخر من ضيق أفق تفكيرهم ورؤاهم المستقبلية دون أن يستثني المسلمين:"لو ندبنا المسلمين إلى البذل في سبيل أقدس قضية وطنية أو قومية لامتنعوا أو تثاقلوا ولكنّهم إذا قيل لهم أنّ هناك مزارا لولي أو قبر لأحد الصالحين لتسابقوا إلى التبرع لأجل بنائه فحبذا لو جمعنا لمشروع الوحدة العربية قبّة أطلقنا عليها اسم أحد المشايخ فكانت تجمع إعانات كثيرة"(20).

و لكن رغم ما اعترضه من عقبات لعرقلة مسار مشروعه الوحدوي فإنّه كان مؤمنا أشدّ الإيمان بأنّ الوحدة العربية ستتحقق إن عاجلا أم آجلا لأنّها حتمية تاريخية لا مفرّ منها إذ أنّ"الأمّة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها و المتفلسفون من أبنائها.وإنّ هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ولو بعد مائة سنة أو أكثر"(21)

2 – صورة الوحدة العربية في وعي شكيب أرسـلان

تجدر الإشارة إلى أنّ شكيب أرسلان لم يتصوّر الوحدة العربية تصوّرا ضيّق الحدود و الأبعاد كأن دعا إلى وحدة جزئية تقتصر على إحدى مجالات الحياة العملية بل إنّ المفهوم الذي حدّد على ضوئه معالم هذه الوحدة وأهدافها يمتاز بالجمع والتكامل.ذلك أنّ الوحدة التي نادى إليها وسعى إلى تحقيقها وحدة كلية متكاملة الجوانب،جدلية العلاقات بين مختلف حقول الحياة العملية السياسية منها والاقتصادية والعسكرية والثقافية حتى تحقّق الأهداف المرسومة لها والجدوى المرجوّة منها لأنّ"جمع الشمل السياسي لا يكون إلاّ بلمّ الشعث الاجتماعي و بثّ روح الوحدة الأدبية"(22).

ففي الحقل السياسي يدعو إلى حتمية توحيد سياسات قادة الدول العربية لما فيه مصلحة أقطارهم في الداخل والخارج بتكثيف الاتّصالات فيما بينهم والتشاور والتباحث حول كلّ المسائل التي تعرض لهم واختيار أنجع السبل الكفيلة بإيجاد الحلول المناسبة لها، هذا إضافة إلى حتمية تجاوزهم لخلافاتهم

وصراعاتهم بحسمها بالطرق السليمة حفاظا على الطاقات العربية ووحدة الصفّ العربي.

ويرى في الميدان العسكري ألاّ بدّ للقادة العرب من توحيد مخططاتهم العسكرية إلى جانب تجنيد كافة طاقاتهم وتوظيفها لمحاربة العدّو المشترك، قصد تحقيق التحرّر والاستقلال، إذ أنّ توحيد السياسة العسكرية يجعل من العرب قوّة يهابها الغرب ولا يستخف بها، قادرة على صدّ كلّ الأطماع الأجنبية في البلاد العربية وإحباط كلّ المخططات التوسعية على حساب أمنها واستقلاله، وليس هذا بمستحيل على العرب الذين"لا يعوزهم سوى الانتهاض والارتياض والانضمام بعضهم إلى بعض"(23).

فكما حقق العرب المعجزات في عصر ازدهارهم كذلك هم قادرون في العصر الحاضر على إحياء مآثر أسلافهم ومواصلة إبداعاتهم في شتّى ميادين المعرفة حتى يكذّبوا مزاعم الأجانب التي تصفهم بالعجز ومحدودية القدرات الخلاّقة.

أمّا في الحقل الاقتصادي فنجده يدعو إلى رسم سياسة اقتصادية عربية متكاملة، تيسّر المبادلات التجارية بين مختلف البلاد العربية قصد تحقيق تكاملها الاقتصادي والحدّ من تبعيتها لاقتصاديات الغرب، الذي ما فتئ يستنزف طاقاتها ومدّخراتها. ولا يمكن حصر المنافع التي يجنيها العرب من هذه السوق الاقتصادية العربية المشتركة، ولن يتحقق كلّ هذا إلاّ إذا ما تمّ "مدّ الخطوط الحديدية بين الشام و جزيرة العرب و العراق و جزيرة العرب على أن تكون هذه الخطوط للعرب بأيدي العرب"(24)

3– منهج شكيب أرسلان السياسي في بناء الوحدة العربية

تكمن أهمية المنهج الذي صاغه شكيب أرسلان قصد إرساء دعائم صلبة للوحدة العربية في أنّه يستمدّ مشروعيته من الظروف الدقيقة التي كانت تمرّ بها سائر البلدان العربية إثر الحرب العالمية الأولى نتيجة الأخطار التي تهدّد مصيرها والناجمة عن تحالف الدول الأوروبية عليها قصد بسط نفوذها على ربوعها، إلى جانب الخلافات الدائمة والصراعات المستمرّة، التي تهزّ كيان الأمّة العربية وتستنزف قوّاه، وأجواء الدسائس والمكائد التي كانت تحوكها لبعضها البعض.

كلّ هذا أكسب هذا المنهج الذي حدّد معالمه ومراحله شكيب أرسلان جانبا وفيرا من المصداقية و الجدوي، لأنّه مستمدّ من واقع أحوال الأمّة العربية المعيشة لا من نزعة تنظيرية تجريدية منبتة عن الواقع.

يرى شكيب أرسلان قبل الدخول مباشرة في المرحلة التطبيقية لمشروع الوحدة العربية ألاّ بدّ من مرحلة تمهيدية تهيئ إرساء أسس صلبة لها لا أثر للإرتجالية فيها. فيكون سير تطبيقها عبر مراحل هي كالآتي:

3-1- المرحلة التمهيدية

يعير شكيب أرسلان هذه المرحلة أهمية قصوى. فعليها يتوقّف نجاح الوحدة، وسلامة تشييد أركانها وإقامة دعائمها. ويحدّد وظيفة هذه المرحلة في نشر دعاية واسعة في أوساط الجماهير العربية المختلفة، حتّى تعي ضرورة هذه الوحدة وجدواها، فيتولّد في ضمائرها شعور بأنّ كلّ البلدان العربية ليست سوى أمّة واحدة وأصلها واحد وأحوالها واحدة وغايتها واحدة حتّى تكون مساندتهم لمشروع الوحدة هذه وليدة اقتناع و تلقائية لا غصب.

ومع حصول هذا الوعي في أوساط الجماهير العربية يدعو شكيب أرسلان إلى وجوب حصول اتّصالات مكثّفة بين الدول والحكومات العربية للتباحث والتشاور حول مسألة الوحدة وتدارس السبل الكفيلة بتحقيقها. ويلحّ على الدوائر المسؤولة في البلاد العربية أن تجعل هذه الوحدة همّها الأقصى، وأن تخصّص لها كلّ المساعي الرسمية فضلا عن المساعي الخصوصية، و إضافة إلى ما تستوجبه من تدابير وتنظيمات ومخططات عسكرية وسياسية، واقتصادية، وثقافية، ذلك أنّ الوحدة إمّا أن تكون كليّة أو لا تكون.

و بعد أن تكون هذه المرحلة التمهيدية قد تمت يرى شكيب أرسلان إمكانية المرور إلى المرحلة الدقيقة الثانية ألا وهي:

3-2 - المرحلة التطبيقـية

انطلاقا من عظمة مشروع الوحدة، واعتبارا لدقته وحساسيته على مصير البلدان العربية في الحال والاستقبال ونظرا لما يكتسيه من أهمية منعرجا تاريخيا وحضاريا حاسما في حياة أقطار الأمة العربية، فإنّ شكيب أرسلان يقرّ بوجوب التحرّي والاتّزان في تطبيقه إذ أنّه غير قابل للتحقيق الفوري، بل وحتّى تضمن له أسباب النجاح، والجدوى المرتقبة منه لابدّ من أن يسير تطبيقه مرحليا حسب ما تقتضيه أحوال البلدان العربية.

ويمكننا أن نستشف خمس مراحل أساسية يمرّ بها بناء الوحدة العربية حسب البرنامج الذي رسم خطوطه ومراحله شكيب أرسلان وإن كان لم يصرّح لنا بهذه المراحل متسلسلة و لا مرتّبة.

1- وحدة العراق و السعودية و اليمن

تمثّل هذه الوحدة بالنسبة لشكيب أرسلان"الحلف العربي" الذي توجّهت كلّ مساعيه لتحقيقه مباشرة إثر الحرب العالمية الأولى،وحتّى موفى الحرب العالمية الثانية أي لمدّة 20 سنة ونيف.ويصف مساعيه هذه قائلا سنة 1940: "ومنذ عشرين سنة كنّا نراجع كلا منّا ملك السعودية وإمام اليمن وملك العراق في هذا الموضوع"(25)ولئن كان الكثير من العرب يحطون من شأن دعوة شكيب إلى مثل هذا التحالف بين الأقطار الثلاثة لأنّه لا يخرج عن دائرة الخيال فإنّ شكيب أرسلان كان مؤمنا بفعاليته في سبيل دعم الصفّ العربي،واستقلالية البلاد العربية عن التبعية الأجنبية. ذلك أنّه يشكل اللبنة الأولى في بناء الوحدة العربية،ويعطي مثلا لذلك العراق الذي"لن يستغني عن مخالفة أنغلترا إلاّ إذا نهضت الأمة العربية،واتّحدت وصارت كتلة عظيمة يؤبه لها ويحترم جانبها، ولهذا السبب لا لغيره-كنّا في مقدّمة من دعا إلى الحلف العربي"(26).

ولأجل هذا التحرّر من التبعية الغربية كان شكيب أرسلان يحرّض ملوك كلّ من العراق والسعودية واليمن على الوحدة رغم ما كان يلقاه من معارضات ومنازعات ومكابرات من أناس هم أولى بمعاضدته في دعوته هذه،ويوصي"بأن يتحالف الثلاثة على عدم إدخال الأجانب في أمور الجزيرة ويترك إلى مؤتمر عربي إسلامي فصل مسألة الحجاز"(27)،ويختم بالدعاء لهم بالتوفيق في مساعيهم الوحدوية بقوله: "أيّدهم الله جميعا لتأييد هذه الأمّة وصيانة ضمارها وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقالة عثارها حتّى يعود أمرها كما بدأ أو ترجع أيام عزّها جددا وما هذا على الله بعزيز"(28).كلّ هذا لكي يفهم العرب وأوربة وكذلك تركيا-المتنكرة لهم-"أنّ الأمة العربية لم تمت وأنّها تقدر أن تجمع شكلها وأنّها تحتوي على عناصر حيّة هائلة"(29)

2- وحدة العراق و سوريا

تعود دعوة شكيب أرسلان إلى اتّحاد كلّ من العراق وسوريا إلى اشتراك هذين القطرين في موقعهما الجغرافي،وفي تاريخهما حيث كانا يشكّلان البلاد التي قامت عليها حضارة البابليين،وكذلك في تراثهما الفكري والعقائدي والحضاري.هذا علاوة على مرورهما بوضعية واحدة تتمثل في خضوع كلّ منهما للسيطرة الأجنبية،العراق تحت النفوذ الانغليزي وسوريا تحت السيطرة الفرنسية.

كلّ هذه الجوامع المشتركة تجعل وحدتهما متأكدة وحتمية إذ عليها

يتوقف مصيرهما في المستقبل وتحقيق مطامحهما قصد الانعتاق من الاستعمار الأجنبي والتحرّر من قيوده.فمثل هذه الوحدة تقوّي إرادتهما النضالية وتوّحد جهودهما وتوجّهها لمقاومة الغاصب الأجنبي بإيمان راسخ بوحدة القضية، والحال أنّ حافزهما هو الدفاع عن ذمار العروبة،والذود عن حياض الإسلام المنتهكين.

3- وحدة العراق- السعودية- و اليمن و مصر

بعد أن تتمّ الوحدة المتكاملة بين الأقطار العربية الثلاثة والعراق والسعودية واليمن،اقترح شكيب أرسلان-بمجرّد إحراز مصر على استقلالها سنة 1936- على هذه الدول العربية الثلاث: "الدخول مع الدولة المصرية في حديث الوحدة العربية حتى تكون مصر في مقدمتهن وينعقد بين هذه الدول الأربع محالفات عسكرية و سياسية واقتصادية وثقافية تجعلهن كتلة واحدة لأجل الدفاع عن ذمار العرب و عن ذمار الشرق بل و عن الإسلام"(30).

4- وحدة أقطار المغرب العربي

لمّا كانت أقطار المغرب العربي الثلاثة تشترك فيما بينها في موقعها الجغرافي الهام الذي يسمح لها بمراقبة سواحل البحر المتوسط و كذلك في لغتها ودينها وتراثها العقائدي والفكري ووقوعها كلّها تحت الاستعمار الفرنسي، فقد وعى شكيب أرسلان أهمية اتّحادها فيما بينها حتّى تشكّل قوة قادرة على التحرّر من الاستعمار و تحقيق الاستقلال و الازدهار.

ولقد سعى شكيب أرسلان مع زعماء حركات التحرير المغاربية إلى تجسيد هذه الوحدة من خلال مراسلاته معهم،و لقاءاته بهم كما كان الشأن مثلا في غضون شهر فيفري من سنة 1937 عند إقامته لمأدبة على شرف طلبة شمال إفريقيا ضمّت كلا من الأستاذ الحبيب بورقيبة الكاتب العام للحزب الدستوري التونسي الجديد،ومصالي الحاج رئيس جمعية نجم شمال إفريقيا ونائب لجنة العمل المغربية،حيث تركز الحديث على وجوب إرساء دعائم الوحدة المغاربية بين الأقطار الثلاث،تونس والجزائر والمغرب،والسبل الكفيلة بتجسيدها على مختلف المستويات السياسية منها والاقتصادية و الاجتماعية والثقافية،حتّى تكون وحدة شاملة متكاملة،تحرّر هذه الأقطار المغاربية من كلّ تبعية غربية.

ولقد ظلّ شكيب أرسلان يحثّ زعماء الحركات المغاربية الثلاثة على تحقيق مشروع الوحدة المغاربية ويراجعهم من حين لآخر ليطلع علي الخطوات العملية التي قطعوها في هذا الغرض،وذلك للأهمية القصوى التي يعلقها عليه.

كلّ هذا وتتويجا لكلّ مراحل الوحدة العربية التي حدّد معالمها و رسم مراحلها وضبط أهدافها شكيب أرسلان نجده يبادر إلى الدعوة لإنشاء جامعة عربية–على غرار دعوته للجامعة الإسلامية–من شأنها توحيد الأقطار العربية فيما بينها والدفاع عن قضاياها المختلفة في مقاومة التخلف والاستعمار لتحقيق نهضة عربية معاصرة قوامها الحرية والاستقلال والرقي الحضاري.

4– شكيب أرسلان و الدعوة لإنشاء الجامعة العربية

لئن كان شكيب أرسلان ضمن روّاد فكرة إنشاء جامعة إسلامية تجمع شتات كافة الأقطار الإسلامية التي جزّأها الاستعمار الأوروبي واقتسمها فيما بينه،وتعمل على توحيد كلمة الشعوب الإسلامية،وتقوية صفوفها حتّى تكون قادرة على مقاومة الاستعمار وصدّ عدوانه عليها،وإحباط كلّ أطماعه التوسعية والاستغلالية.فله يعود فضل الريادة في الدعوة لإنشاء جامعة عربية بعد أن خاب أمله في تحقيق مشروع الجامعة الإسلامية لتنكر الخلافة العثمانية للعرب وللإسلام،خاصّة إثر اعتلاء مصطفى كمال أتاتورك كرسي الملك،وتنكره للمسلمين وجحده للإسلام.فقد رأى في تأسيس مثل هذه الجامعة بديلا لا غنى عنه للعرب في مثل تلك الظروف العصيبة التي تمرّ بها البلدان العربية إثر الحرب الأولى إذ كانت تحيط بها أخطار جمّة مصدرها تهافت البلدان الاستعمارية على اقتسامها واستعمارها واستنزاف خيراتها ومواردها الطبيعية ولن يتسنّى لهذه البلاد العربية الحفاظ على استقلالها إلاّ متى انصهرت في جامعة تجمع جهودها المتفرقة،وتجعل منها قوّة قادرة على الصمود في وجه الدول الأوروبية الغازية.

ويمكننا أن ندّعم ريادة شكيب أرسلان في مشروع تأسيس هذه الجامعة العربية،وذلك اعتمادا على ثلاث شهادات لأصدقاء عاصروه وأقرّوا له بمثل هذا السبق في الدعوة إلى إنشاء هذه الجامعة العربية التي لن تبعث إلى الوجود إلاّ إثر الحرب العالمية الثانية سنة 1945.

يقول صديقه عبد العزيز عزّت في معرض حديثه عن أعماله وريادته في مشروع إنشاء الجامعة العربية: "وهو أوّل من نادى عن عقيدة وإيمان بتكوين جامعة عربية تعمل على تضامن العرب كافة وإسعادهم و استقلالهم"(31) ونجد صديقه حبيب جاماتي يقرّ بسبقه في فكرة الجامعة العربية حيث يصرّح: "وكان شكيب أرسلان أوّل من دعا إلى إنشاء جامعة عربية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة"(32).

ثمّ يخاطبه الشيخ بشاره الخوري عند تأبينه بقوله : "فرحت لبنان وجميع البلاد العربية إذ وجدتها متآخية في جامعة سعيت لها طول حياتك، فتحققت بها أمانيكِ ومساعيك"(33).وبذلك فإنّ شكيب أرسلان لم يرتفع إلى الرفيق الأعلى إلاّ وقد رأى مشروع "الجامعة العربية" الذي نادى إليه قادة الدول العربية يتحوّل من القوّة ليجسّد في الواقع.

الهوامـــــش

1) الشرباصي. أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام،ص 67،عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة: "الشورى"،العدد1 أكتوبر1925
2) أرسلان. شكيب: عروة الاتحاد بين أهل الجهاد(مقالات كتبها الأمير شكيب أرسلان بجريدة "العالم العربي"،في بيونس ايرس بالأرجنتين جمعها و نشرها عبد اللطيف انخشن. صاحب الجريدة،في غضون شهر أوت 1941) الجزء الأول،ص36(لم ينشر شيره).
3) الشرباصي،أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام،ص68
4) ابن خلدون،عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،تعليق الأمير شكيب أرسلان على الجزأين الأوّل والثاني،القاهرة،مطبعة النهضة بمصر،1936، ملحق الجزء الأوّل،ص: ن
5) أرسلان، شكيب: أناتول فرانس في مباذله،هامش ص 72
6) الشرباصي،أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام،ص 68،عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة: "الفتح"،بتاريخ جمادى الأوّل1394هـ-1930
7) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية،ص 69
8) نفس المصدر: ص 69
9) نفس المصدر
10) الشرباصي،أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام،ص39،عن مقال لشكيب أرسلان،بعنوان: "أزفت الساعة أيّها العرب"صدر ب"الشورى" في غضون شهر أوت سنة 1925
11) أرسلان، شكيب: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، ص279
12)أرسلان، شكيب: الوحدة العربية،محاضرة ألقاها في النادي العربي بدمشق بتاريخ20 سبتمبر1937،نشرتها مطبعة الاعتدال بدمشق،الناشر محمد ياسين عرفة 1935،كما نشرت بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد 15
13) نفس المرجع
14) الشرباصي،أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام،ص95،عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة" الشورى" بتاريخ 23 أكتوبر 1929

15) نفس المرجع: ص 93، من مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة "الشورى" بتاريخ 8 أوت 1929

16)نفس المرجع، ص97، من مقال شكيب أرسلان، نشره بجريدة"الشورى"، بتاريخ 3 مارس 1937

17) نفس المرجع، ص 101، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة، "الفتح" العدد 4، شوال 1350 هـ

18)نفس المرجع: ص100، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة، "الشورى" عدد 11 مارس 1931

19) نفس المرجع، ص96، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى" بتاريخ 3 مارس 1937

20) نفس المرجع، ص96، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى"، بتاريخ 23 جويلية 1930

21) أرسلان، شكيب: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، ص 207

22) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص94، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى" بتاريخ 26 مايو 1927

23)أرسلان، شكيب: الوحدة العربية محاضرة، ألقاها في النادي العربي بدمشق بتاريخ20 سبتمبر1937، مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 15

24)أرسلان، شكيب: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ص 207

25) أرسلان، شكيب: عروة الاتحاد بين أهل الجهاد، ..ص67

26) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الفتح" عدد3، ذي العقدة 1350 هـ

27) نفس المرجع: ص 95، من مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى" بتاريخ 20 أوت 1925

28) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. ص6

29) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص95، عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة "الشورى" بتاريخ 20 مايو 1927

30) أرسلان، شكيب، عروة الاتحاد بين أهل الجهاد، ص67

31) الطاهر، محمد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص34
32) نفس المرجع: ص54
33) نفس المرجع.

الفصل السابــــع

شكيب أرســـلان
و النهضة العربية في العصر الحاضر

" كلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم فما هي
إلاّ ساعة و تضمحلّ، فالعلم وحده مفتاح
النهضة وبه الدخول إلى مصاف الحضارة"
شكيب أرسلان

لئن تميز القرن التاسع عشر بظهور الحركات الإصلاحية التي رام أصحابها من خلالها إقامة صرح نهضة عربية معاصرة،كلّ حسب حدود وعيه،والمعطيات التاريخية التي توفرت له،فإنّ شكيب أرسلان–وقد تفرّد منذ حداثته بوعي حاد لهموم أمته العربية–أبى إلاّ أن يساهم في مسيرة الجهود المبذولة لرقي العرب وتحضّرهم في العصر الحديث من خلال تصوّره لمشروع نهضة عربية عصرية تكون حلقة وصل بين ما بلغه الأسلاف من شأو حضاري وما أدركه الغرب الأوروبي من رقي و تمدّن.

ففيم تتمثل الحوافز التي دفعت شكيب أرسلان إلى الانشغال بهذه القضية؟ وما هي خصائص تصوّره للنهضة العربية؟

1- حوافز النهضة العربية المعاصرة في وعي شكيب أرسلان

إنّ العوامل التي حفزت شكيب أرسلان على الانشغال بقضية النهضة العربية في العصر الحديث،ورسم معالم مشروع لها،متعدّدة،سنعمد إلى إبراز أهمّها:

– تردّي أوضاع شعوب الأقطار العربية على مختلف الأصعدة:السياسي منها لما تعانيه من استعمار أجنبي من جهة ومظاهر خلاف وصراع فيما بينهما من أخرى،والإجتما– اقتصادي لما تعيشه من فقر ومرض والثقافي لما يغلب عليها من أمية و جهل وسخيف الاعتقادات.

- اشتداد حملة الغرب العدائية للعرب بتجريدهم من كلّ مدنية حضارية، وإقناعهم بعجزهم عن الخلق والإبداع لمحدودية قدراتهم قصد تثبيت يأسهم من أنفسهم وبقاء أحوالهم على ما هي عليه من تخلف وانحطاط فضلا عن إغرائهم للانبتات عن أصالتهم والاندماج في الأمّة الأوروبية المتحضرة

ولقد كان وعي شكيب أرسلان الحاد بأوضاع العرب وما يتهدّدهم من أخطار الغزو الغربي لذاتيتهم محفزًا على رسم معالم مشروع نهضة عربية معاصرة يكون أمثل وسيلة لتحرير العرب من سيطرة الغرب واستعادة حريتهم المستلبة، وتخلصهم من التخلف الذي ران عليهم لعدّة قرون خلت، والتأكيد على أنّ العرب قادرون على الرقي والتحضر ومواصلة ما بلغه أسلافهم من شأو حضاري و ما خلدوه من مآثر.

2- تصوّر شكيب أرسلان للنهضة العربية المعاصرة

يقوم تصوّر شكيب أرسلان للنهضة العربية المعاصرة على مجموعة من الشروط التي يرى توّفرها ضروريا لجعل شعوب الأمة العربية ترقى حضاريا بعد الركود الذي ران وأورثها التخلف والانحطاط، ويسّر للاستعمار بسط نفوذه على أقطارها.

2-1- الاستقـلال و الاتحـاد

لقد تيقن شكيب أرسلان أنّه لا يمكن لأيّة نهضة عربية عصرية أن تتمّ في ظلّ الاستعمار الذي ينتهج سياسة تقوم على إحباط كلّ البوادر والمحاولات التي تقوم بها النخبة العربية المثقفة لأجل نهضة شعوبها، بوضع كلّ العقبات في طريقها، وتشجيع كلّ أهالي تلك الشعوب على البقاء على جهلهم وتخلفهم وحثّهم على التمسك بالمتوارث من العادات والتقاليد البالية، بعدم تركيز المؤسسات التعليمية التي من شأنها أن تبثّ الوعي بين فئاتها. وبذلك فإنّ النهضة العربية المنشودة في العصر الحاضر لا يمكنها أن تنشأ وتتطور في وعي شكيب أرسلان إلاّ في كنف الحرية والاستقلال، فضلا عن الوحدة إذ لن يتسنّى لها التجسّد والأقطار العربية على ما هي عليه من خلاف وصراع وافتراق كلمة، وتشتت صفّ، واستنزاف قوى، وإهدار طاقات، فلابدّ لها من الاتحاد بنبذ أحقادها وتجاوز خلافاتها وتوحيد صفوفها و توظيف طاقاتها لتصبح قوّة قادرة على إقامة صرحها الحضاري ووصل ما أنبت وحضارة أسلافها. وبذلك يصيب شكيب أرسلان هدفين في آن واحد أولهما استنهاض الهمم لعربية حتى تتحفّز للنضال في سبيل التحرّر والاستقلال، وثانيهما إقناع الشعوب العربية

بحتمية الاتحاد في سبيل بناء صرحها الحضاري.

وهكذا ينتهي شكيب أرسلان إلى الإقرار بأنّ كلاّ من الاستقلال والاتحاد يشكل دعامة أساسية في إقامة صرح النهضة العربية في العصر الحاضر بصريح قوله : "...رأس نهضة العرب هو أن نجزم بالاستقلال و الإتحاد اللذين نريدهما و اللذين لا حياة لنا في المستقبل بدونهما في عصر القوميات هذا"(1)

2-2- التشجيع على التعليم

يعتقد شكيب أرسلان أنّه لن يتسنّى للنهضة العربية المنشودة أن تتحقق في أوساط شعوب عربية يعمّها الجهل وتغلب عليها الأميّة، ممّا يجعل التشجيع على التعليم ونشره بين مختلف فئات المجتمعات العربية- قصد توعيتها بمختلف أوضاعها- حتمية حضارية لابدّ لحكومات الأقطار العربية أن تجعلها في مقدّمة اهتماماتها.

وفي هذا السياق يدعو شكيب أرسلان الحكومات العربية إلى إيلاء التعليم منزلة الصدارة في برامجها و مخططاتها، بتهيئة الإطار الكفء من أبنائها في مختلف مجالات العلم والمعرفة، وبإنشاء المدارس ودور العلم في كلّ المناطق الريفية و الحضرية.

لذا يقرّر شكيب أرسلان ألاّ نهضة عربية في غياب وعي جماهيري عربي يمثّل الأرضية الخصبة لنماء بذورها، ولا يمكن لهذا الوعي أن يتحقق إلاّ إذا ما سلكت الحكومات العربية سياسة تعليمية أساسها ديمقراطية التعليم الذي يجب أن يكون حقّا مشروعا لكلّ الفئات على تباين منازلها و أن يكون مجانيا حتى تتحقق مراهنة الاقبال عليه من طرف كلّ الفئات.

2-3- التوجه نحو العلوم

أيقن شكيب أرسلان أنّ النهضة الشاملة التي حققتها أوروبا وسمحت لها ببلوغ أعلى درجات التحضّر إنّما قامت بالتركيز على العلوم التي تمكّن الإنسان من تجاوز كلّ العقبات التي تحول دون تقدّمه وازدهار حياته. فالعلم في عصرنا الحاضر هو سلطان الحضارة، ومصدر سائر فروع المعرفة الانسانية. لهذا يبوئه شكيب أرسلان منزلة هامّة في عملية تصوّره لبناء صرح النهضة العربية المعاصرة بجعله العمود الأساسي الذي تقوم عليه باعتبار أنّ "كلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم فما هي إلاّ ساعة و تضمحلّ"(2). فالعلم هو الذي يضمن للنهضة العربية الانطلاقة الموفقة فالاطراد والتطور، وهو: "وحده مفتاح النهضة و به الدخول إلى مصاف الحضارة"(3)

ثمّ يؤكد شكيب أرسلان أن"لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية فإذا وجدت هذه النهضة جاءت سائر النهضات من سياسة وعسكرية واجتماعية و اقتصادية آخذا بعضها برقاب بعض"(4).

وصفوة القول أنّ العلوم تبقى مفتاح النهضة العربية المعاصرة في وعي شكيب أرسلان، وبدونها لن يتسنّى للأمّة العربية التخلّص من رواسب التخلف والانحطاط والإقلاع نحو مصاف الرقي الحضاري إذ كما كانت الوسيلة المثلى التي حققت للغرب تحضّره فهي الكفيلة وحدها بجعل العرب يبلغون ما بلغه الغرب من تمدّن حضاري.

2-4 – المزاوجة بين الأصالة و المعاصرة

أثارت قضية الأصالة والمعاصرة الكثير من الجدال في أوساط المثقفين العرب الذين تباينت مواقفهم منها.فمنهم من دعا إلى الأخذ الكلي عن الغرب لعجز التراث العربي–الإسلامي على تحقيق نهضة عربية شاملة تضاهي نهضة الغرب.ومنهم من أنكر هذا الموقف الحضاري التغريبي والجاحد لمقوّمات الذاتية العربية،فرأى في التراث الحضاري العربي–الإسلامي الوسيلة المثلى لنهضة العرب في العصر الحاضر،والتي لا يمكن أن تكون إلاّ مواصلة لما بلغه السلف من شأو حضاري.وبين أولئك وهؤلاء هناك من اختار التوفيق بين هاتين النزعتين المتطرفتين فكان شكيب أرسلان من أنصار هذا المذهب التوفيقي القائم على وجوب المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة تحقيقا لنهضة عربية متكاملة تقوم على مبدأ التلاقح الحضاري بين مقوّمات التراث الحضاري العربي وابداعات الحضارة الغربية المعاصرة التي يحتاجها العرب في العصر الحاضر.

و يحسن بنا قبل أن نحلّل معالم رؤية شكيب أرسلان لجدلية العلاقة بين الأصالة والمعاصرة،وأبعادها أن نستقرئ خصائص فهمه لكلّ منهما والسبل الكفيلة بتحقيق الجدلية بينهما.

1– شكيب أرســلان و مقاربة مفهوم الأصالة

يبرز شكيب أرسلان أن تجارب الأمم من قديم الزمان أثبتت أنّه لا يمكن أن تتحقق نهضة الأمّة إذا ما انبتت عن مقوّمات أصالتها التي يحدّدها في اللغة والتاريخ والعقيدة والشخصية.

ويندرج– في هذا السياق–توجّهه إلى إحياء نفائس من التراث العربي القديم المشتتة هنا وهنــاك في متاحف بــلاد الإفرنج ومكتباتها،مما حفــزه على أن

"يناشد الدول العربية والمجالس العلمية ووزارة المعارف فيها أن تعمل يدا واحدة على جمع النفائس العربية المتناثرة في مختلف خزائن أوربة ومتاحفها ومكتباتها،فإن هذه المخطوطات والكتب والمعاجم التي توجد في خزائن استنبول وألمانيا وباريس ولندن والنمسا والبلقان تؤلف ثروة الأمة الأدبية"(5).

وبذلك يرى شكيب أرسلان أنّ الأمّة العربية لا يمكنها-إن أرادت حقيقة أن تنهض-أن تتنكر لتراثها الحضاري بل عليها أن تستغلّ جوانبه المشرقة في إرساء دعائم نهضتها الحديثة المنشودة إذ الحضارة إن هي إلاّ حلقات موصولة لكلّ جيل نصيبه منها،وفضلا عن هذا يدعو شكيب أرسلان العرب إلى تأصيل كيانهم بمحافظتهم على عاداتهم وتقاليدهم وأذواقهم وأزيائهم حتى لا يذوبوا في غيرهم من الأمم المتحضرة.

ولئن كانت هذه معالم رؤية شكيب أرسلان للأصالة و خصائصها فما عسى أن تكون مميزات فهمه لمعاصرة؟

2- مفهوم المعاصرة في وعي شكيب أرسلان

ينطلق فهم شكيب أرسلان للمعاصرة من رفضه اعتبارها" متابعة الإفرنج في كلّ ما يفعلونه حقا كان أم باطلا ضارّا كان أم نافعا"(6)والتي لن تؤدي بالعرب إلاّ إلى الانبتات عن أصالتهم والذوبان في أتون الحضارة الغربية.لهذا يرى أنّ المعاصرة إنّما تتجسد في"أخذ العلوم والصناعات والإطلاع على كلّ الحقائق الكونية مما لا يزال يتجدّد بتمادي الأيام"(7).ولا تعني التقليد الأعمى للغرب بعيدا عن النضج الحضاري الذي يجعل العرب يعون بحاجياتهم من الحضارة الغربية و يسلكون السبل التي انتهجها الغرب في إقامة صرحه الحضاري يقول:"إذا كنّا نريد أن نتفرنج فلنقتد بهؤلاء القوم في البحث والتمحيص وعدم قبول نظام ولا قانون إلاّ بعد قتل فائدته خبرا.وإذا كنّا نريد أن نتفرنج فلنحذو حذو هؤلاء القوم في عروجهم معارج المدنية كلها وسلوكهم طرق التحقيقات العلمية إلى آخر ما وصلت إليه مع حفظهم لعاداتهم ونزعاتهم وأذواقهم وبقائهم كما كانوا أفرنجا"(8).

وهكذا نصل إلى التصوّر الشامل لمشروع النهضة العربية كما رسم معالمه وحدّد أبعاده شكيب أرسلان.وهو المشروع الذي يقوم في أساسه على المزاوجة بين الأصالة العربية والمعاصرة الغربية والمعادلة بينهما،فيؤكد أنّه:"لكي تكون ثقافة العرب ثقافة عصرية عليها أن تأخذ من التجدّد والمعاصرة بأوفر نصيب مع احتفاظها التام بطابعها الأصيل مثلما كان شأنها زمن العباسين بالمشرق

والأمويين بالمغرب حيث حصل تلاقح الثقافة العربية الإسلامية بغيرها من الثقافات فاستفادت من حكمة اليونان التي قامت بنقلها كذلك الشأن بعلوم فارس وحكمة الهند فجمعوا بين هذه الثقافات الثلاث واحسنوا مزجها بثقافتهم العربية فكان أن تولدت ثقافة عربية جديدة تأهلت لكي تبلغ أقصى درجات الرقي والتحضر.

وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه و الإضافة إليه ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة في التبرئ منه على النحو الذي نحاه الأتراك الكماليون الغالبون على تركيا اليوم بل ستكون ثقافة جامعة بين القديم و الجديد"(9).

وخلاصة القول أنّ النهضة العربية في العصر الحاضر لا يمكن أن تتحول إلى واقع إلاّ متى توفّرت لها الظروف الملائمة من استقلال البلاد العربية وتحرّرها من السيطرة الأجنبية، إلى اتّحادها فيما بينها بتجاوز خلافاتها وصراعاتها، إلى تشجيعها نشر التعليم في ربوعها وبين كلّ الفئات ثمّ تركيزها على استيعاب علوم الغرب مع المحافظة على مقوّمات أصالتها.

الهوامـــــش

1) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص 93، عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة "الفتح". رجب 1350 هـ.
2) أرسلان، شكيب: لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدّم غيرهم، ص 46.
3) نفس المصدر: ص46
4) أرسلان، شكيب: النهضة العربية في العصر الحاضر، دمشق، مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد15، السنة 1937 ص416
5) الطاهر محمد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص 84
6) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص86، عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة "الشورى" بتاريخ 26 أوت 1926.
7) نفس المرجع: ص 86
8) نفي المرجع: ص 69
9) أرسلان، شكيب: النهضة العربية في العصر الحاضر، دمشق، مجلّة "المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 15، السنة 1937 ص 442

الباب الرابع

علاقات شكيب أرسلان بزعماء السياسة في عصره

الفصــل الأول

شكيب أرسلان و الساسة الأصدقاء

كان لطول مراس شكيب أرسلان السياسي مدّة ناهزت النصف قرن أن أثمر عديد الصداقات التي جمعته وعددا وافرا من رجالات السياسة في عصره العرب منهم والأجانب، على اختلاف مذاهبهم السياسية وتباين مراتبهم بحكم أنّ طبيعة العمل السياسي تقتضي من صاحبها التعامل مع غيره من الساسة.

واعتبارا لكثرة الصداقات التي انعقدت أواصرها بين شكيب أرسلان وعددا مهمّا من ساسة عصره، والتي يتعذّر علينا حصرها فإنّنا رأينا -تحقيقا للفائدة- أن نركزّ على اختيار نماذج منها لعب أصحابها أدوارا هامّة في مسيرة شعوبهم السياسية وكانت لهم علاقات متينة، بارزة المعالم. بشكيب أرسلان. وتوفرت لنا في شأنهم بعض الوثائق التي يسّرت بحثنا في ملابسات نشأة صداقاتهم وشكيب أرسلان، وما تميّزت به سمات مفيدة وأبعاد. بينما تعذّر علينا -لندرة الوثائق- أن نتناول بالدرس عديد الصداقات الهامّة التي جمعته -هي الأخرى- وعددا بارزا من ساسة عصره أمثال الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز. والأمير عبد الله ملك الأردن. والأمير عمر طوسون بمصر. والمجاهد عمر المختار بليبيا. والشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية علماء الجزائر. ومصالي الحاج أحد زعماء حركة التحرير الجزائرية، وكلّ من عبد السلام بنونة وعلال الفاسي، وأحمد بلافريج وعبد الخالق الطريس أبرز قادة ومناضلي الحركة الاستقلالية المغربية، وغيرهم كثير ممّا لايسعهم حصر ولا عدّ.

وتكمن أهمية دراسة هذه النماذج من صداقات شكيب أرسلان السياسية في أنّها تكشف جوانب بالغة الأهمية من شخصية المجاهد شكيب أرسلان، بقيت خفية. لعدم توّصل الدارسين إلى إداركها أو حتّى إن تفطنوا إلى بعضها فإنّهم لم يوفوه حظه من التمحيص والدرس والاستنتاج، وإنّما تناولوه عرضا. وفضلا عن ذلك فهي تعكس لنا طبيعة الأجواء السياسية التي كانت تسود العالم عامّة. والمنطقة العربية- الإسلامية بصفة خاصّة، وما تشهده من توترات العلائق بينها وبين الدول العظمى الأوروبية: فرنسا، وانغلترا، وإيطاليا، إضافة

إلى إبرازها مظاهر هامّة من مسيرة الشعوب العربية-الإسلامية النضالية في سبيل التحرر والاستقلال من الهيمنة الاستعمارية الأوروبية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الترتيب الذي توخيناه في تناول هذه الصداقات بالاستقراء والتحليل والاستنتاج ليس ترتيبا تفاضليا بل يخضع لمقياس تاريخي زمني.

1- شكيب أرسلان و القائد العثماني أنور باشا

لقد أثمرت سياسة شكيب أرسلان العثمانية عديد الصداقات ورجالات السياسة بالاستانة.نظرا لاتصالاته المنتظمة- منذ حداثة سنّه-بهم في مسائل تتعلّق بأوضاع سوريا ولبنان في ظلّ الولاة الأتراك أو قضايا مصيرية لها مساس بأمن الخلافة واستقلالها،والتي ما فتئ شكيب أرسلان يقدّم لها جليل الخدمات في الداخل بتدخّله لفضّ النزاعات والتوتّرات التي غالبا ما تجدّ بين أهالي سوريا ولبنان و الحكام الأتراك المتعسّفين لما يتمتع به من هيبة لدى بني وطنه وفي الخارج بقيامه بالسفارة بين الحكومة العثمانية والحكومات الأوروبية التي تربطها بها مصالح أو تلك التي تجدّ معها بعض التوتّرات.وبذلك فقد سمحت له تلك الاتصالات المنتظمة وساستها من ربط أواصر صداقات متينة والكثير من رجالاتها ومن بينهم: القائد العثماني أنور باشا الذي سيصبح فيما بعد ناظر الحربية.

لقد كانت حملة إيطاليا على طرابلس الغرب في غضون سنة1911، المناسبة التي تمت أثناءها نشأة عرى المودّة والصداقة بين المجاهد الأمير شكيب أرسلان وقائد الجيش العثماني بالجبل الأخضر أنور باشا،إذ وقد وصلت شكيب أرسلان أخبار الفظائع الوحشية اللاإنسانية التي اقترفها الطليان في حقّ أهالي طرابلس دينا وكرامة،بادر وثلّة من رفاقه إلى مغادرة لبنان والالتحاق بالجبهة دفاعا عن العروبة والإسلام،وهنا حصل تعرّفه إلى القائد العثماني أنور باشا الذي أرسلته الخلافة العثمانية من الأستانة على رأس جيش لإعانة الطرابلسيين في مقاومة الغزو الإيطالي.

وتميّزت بداية التعارف بين شكيب أرسلان وهذا القائد العثماني باحتراز هذا الأخير منه بسبب أخبار وصلته عنه من القاهرة أو عزّ له فيها أصحابها بأخذ حذره من شكيب أرسلان،الأمر الذي جعله يعتبره شخصية غير مرغوب فيها فرفض السماح له بالالتحاق بالجبهة،ولولا تدخل قائد معسكر طبرق أدهم باشا لدى أنور باشا محذّرا إيّاه من عواقب طرد شكيب أرسلان من

الجبهة على سير مقاومة الجند العثماني ونضال التونسيين-لما يحظى به لدى أولئك وهؤلاء من منزلة رفيعة-لما أذن له أنور بمواصلة السير إلى مركز قيادته بعين منصور،وهنا تبلورت علاقتهما أكثر إذ اكتشف أنور باشا حقيقة شخصية شكيب أرسلان المجاهد في سبيل العروبة والإسلام من خلال اللقاءات التي جمعتهما والقضايا التي تدارساها معا،مما جعله يتّخذه مكمن أسراره،ومحلّ ثقته ومستشاره فيما يعرض له من قضايا،وما يستوجب منه من قرارات،ومواقف،وما تتطلبه ظروف جبهة القتال العصيبة من خطط عسكرية.

وتعمّقت صداقتهما أكثر عند عودتهما من جبهة الجبل الأخضر إلى الأستانة،وقد اندلعت الحرب البلقانية بين تركيا والدول البلقاينة.فقد شهداها معا،شكيب ضمن لجان الإغاثة التابعة للصليب الأحمر الدولي،وأنور قائدا ضمن الجيوش العثمانية المحاربة.

وفي غضون الحرب الأولى سنة1917،اختار أنور باشا الذي أصبح ناظرا للحرب شكيب أرسلان دون غيره للقيام بمهمّة استطلاعية إلى ألمانيا يدرس فيها حقيقة الأوضاع السياسية والعسكرية بها والتي على ضوئها يمكن لتركيا أن تحدّد اختيارات سياستها الخارجية مع الدول الأوروبية عامّة،وألمانيا على وجه أخصّ،وعند توديعه له خاطبه بقوله:"...لايكفيني أن تخبرني بما هو كائن هناك بل أعطني على ما تشاهده رأيك الخاص"(1).وهو ما يكشف أنّ شكيب أرسلان لم يكن سفيرا سياسيا فحسب وإنّما مستشارا لخبرته السياسية الأوروبية أحوالا وساسة.

ولما عاد شكيب أرسلان بعد مدّة وجيزة يحمل تقريرا مفصّلا ودقيقا عن واقع الأوضاع بألمانيا تضاعف تقدير أنور باشا له و إعجابه به،حيث حدّث عنه صديقه أحمد نسيمي بك ناظر الحربية بفخر قائلا:"....كم أنفذنا إلى ألمانيا من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال و أقاموا أشهرا فلم يقم أحد منهم ولا جميعهم بما قام به شكيب أرسلان في 15 يوما"(2)،وبذلك تيقن أنور باشا من أنّ شكيب هو المؤهّل—دون غيره للسفارة بين السلطنة وألمانيا وحلّ المشكلات القائمة بينهما بالطرق السليمة.لذا عندما جدّ الخلاف بين ألمانيا وتركيا من اجل باكو والقوقاس كلفه بالتوسّط لما كان يحظى به لدى الساسة الألمان من تقدير واحترام وخاطبه بقوله:"...إنّ هؤلاء القوم يجلّونك ويعتقدون ميلك الخاص إليهم فأرجو منك أن تذهب إلى برلين و تسعى في نظارة الخارجية فيها في اعتراف ألمانيا باستقلال أذريبجان والطاغستان كما

اعترفت باستقلال كرجستان"(3)، ورغم عزمه التوجه إلى سوريا فإنّه تطييبا لخاطر صديقه أنور قصد ألمانيا في أوائل جوان من سنة 1918 على ألاّ تتجاوز إقامته بها الشهر، غير أنّ مستجدات الأحداث جعلت هذه الإقامة تتجاوز الخمس سنوات سعى خلالها إلى تقريب ذات البين بين ألمانيا و تركيا. ولمّا كان على وشك إنهاء مفاوضاته مع الألمان بإبرام اتفاق تعترف فيه ألمانيا باستقلال كرجستان وأذربيجان وحتى استقلال أريفان الأرمنية حدث ما لم يكن منتظرا بـ" طلب البلغار المتاركة و إرسالهم وفدا من معسكر الحلفاء بلانيك وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الألمانية والنمسوية فطلبت كلّ من أوستريا وهنكاريا و تركيا الهدنة وتبدّلت الوزارة بالأستانة"(4).

ولمّا حصل ما خشي أنور باشا وقوعه بدخول الحلفاء الآستانة واحتلالهم البلاد التركية التي صارت تحت سيطرة الاحتلال الانغليزي الذي أغرى ساستها وعودا ومواثيق سرعان ما نكثها أثناء الحرب في نصّ المتاركة الذي أحبط برنامج ولسن، ولمّا كان معروفا بميله إلى ألمانيا ورغبته في التحالف معها، أصبح بقاؤه في الآستانة يشكل خطرا على حياته فغادرها على متن بارجة ألمانية أقلّته إلى برلين.

وتواصلت علاقتهما بديار المنفى رغم إقامة شكيب أرسلان بجنيف وأنور باشا ببرلين. فقد كانا غالبا ما يلتقيان ويتباحثان في قضية تحرير وطنيهما وسائر الأقطار العربية من الاحتلال الأوروبي، ولكن بينما بقي شكيب أرسلان حرّا في نضاله وحركيته السياسية فضّل أنور باشا الانضمام إلى البلشفيك في مقاومته للحلفاء قصد تحرير تركيا من غزوهم وسيطرتهم"واتفق معهم على العمل يدا واحدة لمقاومة الحلفاء لاسيما انغلترا"(5)ورغم نصح شكيب له بوجوب التحرز من البلشفيك وعدم الثقة بوعودهم وأنّ علاقته بهم لن يجني منها سوى المتاعب الأمر الذي يجعل حياته محفوفة بالأخطار خاصّة وأنّ البلشفيك سيغنمون الكثير على حسابه فإنّه فشل في إقناعه بالعدول عن الانتصاب للبلشفية التي ستكون سبب نهايته في شهر أوت من سنة 1922.

كلّ هذا ولئن تواصلت هذه العلاقة بين شكيب أرسلان وأنور باشا لمدّة ناهزت العشر سنوات طبعها الودّ والصفاء، واتّخذ أثناءها أنور باشا شكيب أرسلان صفيه، وحافظ أسراره ومستشاره في شؤونه السياسية والعسكرية وسفيره لدى دولة ألمانيا عند توتر العلاقات بينها وتركيا فلاقتناعه باتّفاق مذهبهما السياسي نظرية ومراسا. فكلّ منهما كان من الدعاة إلى الجامعة

الإسلامية،وإلى مناصرة الخلافة العثمانية،وكلّ منهما كان يناصب الحلفاء العداء ويميل بالمقابل إلى ألمانيا ويفضل التحالف معها،وكلّ منهما قصر حياته على النضال في سبيل تحرير وطنه المحتل،ولكن يتميز نضال شكيب أرسلان عن أنور باشا بأنّه قومي عربي إسلامي لا إقليميا.

وصفوة القول أنّ السمة المميّزة لهذه العلاقة هي التكامل بين الجانب العسكري الذي يمتاز به أنور باشا،والجانب السياسي الذي ينفرد به شكيب أرسلان الذي يبرز أنّ أنور باشا"كان من أقدر الناس على الإدارة والتنظيم والتدبير والترتيب وأساليب العمارة إلاّ أنّه لم يكن سياسيا كبيرا مع فرط ذكائه"(6).

2- شكيب أرسلان و المناضل احمد توفيق المدني

تتميّز العلاقة التي جمعت بين"أمير بيان المشرق"المجاهد شكيب أرسلان، و"أمير بيان المغرب" المناضل الصحفي أحمد توفيق المدني،بعراقة جذورها، لأنّها تعود إلى عهد حداثة توفيق المدني،وبالتحديد إلى سنة 1915،عندما لم يكن توفيق يتجاوز الخامسة عشر ومع ذلك فقد كان يتميز بوعي سياسي حادّ جعله يتابع الصحف،فيتّتبع أخبار شكيب أرسلان ونضاله السياسي من زنزانته بالسجن المدني بتونس أين كان يقضى عقوبة بأربع سنوات سلطتها عليه السلطات الفرنسية بتهمة بثّ الفتنة والتحريض على الثورة والقيام بأعمال مناوئة للوجود الفرنسي،وبذلك فإنّ هذا السجن لم "يحل بينه وبين تلقي أخبار شكيب و الإطلاع على ما كان يقذفه من شرر الحق،وما يلقيه من الرعب في وجوه المستبدّين"(7).

ثمّ انعقدت بينهما أواصر مودّة وصداقة في غضون سنة 1923 عندما كان المناضل أحمد توفيق المدني يشغل خطة رئيس الدائرة الدستورية بتونس، جسّدتها المراسلات الأدبية والسياسية والاجتماعية التي كانا يتبادلانها.

وفي هذه الفترة كان توفيق المدني يمدّ شكيب أرسلان بغزير المعلومات ودقيقها عن الأقطار المغاربية الثلاث:تونس والجزائر والمغرب،وما تمرّ به من أحوال على كافة الأصعدة،هذا إضافة إلى تحليله له مشاكل هذه الأقطار السياسية وطرق نضالها التحريري في سبيل التحرّر من الاستعمار الفرنسي المتعسف مع مناضلي الحركات التحريرية المغاربية.

وعندما قام شكيب أرسلان باصدار مجلته الفرنسية اللسان" الأمّة العربية" بجنيف،في غضون سنة1930، كان احمد توفيق المدني من مؤيديها

ومناصريها الأوائل بالجزائر، إذ تطوّع بجمع اشتراكاتها وتوزيعها بالقطر الجزائري، الأمر الذي جعل شكيب أرسلان يكنّ له كلّ تقدير ومحبّة ويبوئه منزلة رفيعة من نفسه بقوله متحدّثا عنه: "...وتوفيق المدني هو من أعزّ الناس عندنا وبعد أن صار يقرأ كلامنا شغف بنشر مبادئنا و أفكارنا"(8).

ولمّا أصدر شكيب أرسلان كتابه "لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدّم غيرهم" بادر أحمد توفيق المدني إلى قرضه بمجلة "الشهاب" قرضا لم يخصّه به أحد من العرب والمسلمين، مشيرا على شكيب أرسلان-في الآن نفسه-بضرورة ترجمته إلى اللغة التركية حتى تتّسع فائدته فتعمّ الجانب الأكبر من المسلمين.

إنّ الجوامع المشتركة التي جمعت بين شكيب أرسلان وتوفيق المدني كثيرة و متعدّدة سنقتصر على استجلاء أهمّها:

1- احتداد الوعي السياسي في سنّ مبكرة

فتح كلّ من شكيب أرسلان وأحمد توفيق المدني عينيه ليجد نفسه يعيش في وطن محتّل يعاني أفراده شتّى أنواع العسف والامتهان من قبل المستعمر الفرنسي، إضافة إلى ما يشكوه من معالم تخلّف وانحطاط حضاري، فعايش أحوال وطنه، وخبر ممارسات الاستعمار الفرنسي فضلا عن إقبال كلّ منهما على مطالعة الصحف المحليّة والعربية التي كانت تزخر هي الأخرى بأخبار الممارسات الاستعمارية في شتّى أقطار العالم العربي-الإسلامي.

ولم تكن أحوال هذه الأقطار بأحسن من أوضاع وطنيهما لبنان وتونس، لما اتّسمت به من توتر وصراع وتناحر، وفرقة كلمة وتشتت صفّ، واستنزاف طاقات لغلبة سياسة الأهواء فضلا عن الاستكانة والخضوع للواقع الاستعماري والتسليم بالتخلّف الحضاري، ممّا رسّخ الوجود الاستعماري، وقوّى نفوذه وتسلّطه على الشعوب العربية والإسلامية وحفزه على تكريس ممارسات سياسته الاستعمارية التوسعية بها.

كلّ هذه الأوضاع المتردية المحلية، والعربية الإسلامية عمّقت وعي شكيب أرسلان وأحمد توفيق المدني السياسي وكانت بمثابة القادح لبدء مسيرة نضالهما ضدّ الاستعمار.

2 - مقاومة الاستعمار

اقتنع كلّ من شكيب أرسلان و أحمد توفيق المدني بعدالة الدفاع عن قضية الوطن المغتصب وشرعية مناصرة قضايا سائر الأقطار العربية-الإسلامية المستعمرة، فأخذ نفسه بالنضال في سبيل تحقيق تحرّرها واستقلالها من

الاستعمار الأوروبي والسعي لتجسيد نهضتها و رقيّها الحضاري.
ولقد بدأت مسيرة نضالها ضدّ الاستعمار الفرنسي أوّلا داخل الوطن وفي سنّ الحداثة،حيث حمل شكيب وهو بلبنان على السياسة الاستعمارية الفرنسية وممارساتها التعسفية وأطماعها التوسعية في المنطقة العربية-الإسلامية فعرف المضايقات،وحيكت ضدّه الدسائس، ثمّ كان قرار إبعاده عن لبنان ونفيه إلى أوروبا لما أضحى يشكّله من إحراج ومخاطر للوجود الفرنسي بكلّ من سوريا ولبنان وكذلك كان شأن أحمد توفيق المدني الذي سخط منذ سنّه المبكرة على الاحتلال الفرنسي لتونس عبر كتاباته الصحفية الحاملة على ممارسات السلطات الاستعمارية وأهالي وطنه فعرف هو الآخر أصناف المضايقات والتتبعات فالسجن لسنوات،(1914-1918)ثمّ الإبعاد إلى القطر الجزائري، وبذلك شكّل المنفى لكلّ منهما منطلقا جديدا لمسيرة نضالهما منه يشنان الحملات الصحفية المستعرة على الاستعمار الغاصب الفرنسي بدرجة أولى فالإنغليزي والإيطالي وأساليب قمعه وتعسفه وأطماعه،وفيه يتحركان سياسيا لكسب المزيد من المناصرة والتعاطف مع قضايا التحرير العربية-الإسلامية، وإن كان-والحقّ يقال-مقرّ شكيب أرسلان بجنيف أكثر استراتيجية من حيث الموقع من مقرّ صديقه المدني بالجزائر،التي كان يعيش فيها تحت الرقابة الفرنسية التي كانت تتابع كلّ تحرّكاته إلى حدّ أصبح يرى فيه "أنّ كلّ فرنسي عدوا وكلّ أوروبي شريكا للعدوّ"(9)ممّا حمل فرنسا على مناصبتهما العداء والحملة عليهما في صحفها ومجلاتها قصد تشويه صورة نضالهما السياسي في نظر شهوب الأمّة العربية- الإسلامية.
كلّ هذا فضلا عن جوبهما أقطار العالم من أقصاها إلى أدناها مناضلين،في سبيل تحرّر أقطار البلاد العربية-الإسلامية المحتلة،بالتعريف بقضاياها، وعرض معالم واقعها الاستعماري،وما يتسّم به من ممارسات تعسفية تتنافى وحقوق الإنسان في الحياة الحرّة،الكريمة وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

3- التوجه الاســـلامي

اتفق كلّ من شكيب أرسلان واحمد توفيق المدني في التوجه الإسلامي لفكرهما الديني ومذهبهما السياسي والذي تجسد في مظهرين:

1- الدعـوة إلى الجامعة الإسلامية

بعد أن عايش كلّ من شكيب أرسلان واحمد توفيق المدني الأوضـــــاع

المتردّية التي تعيشها شعوب الأقطار العربية-الإسلامية ويتصدّرها كلّ من الاستعمار والتخلّف ووعيا أخطار هذه الأحوال على حاضر هذه الشعوب ومستقبلها تأكّد لهما ألاّ إمكانية لها في التحرّر والنهضة إلاّ إذا ما اتّحدت في جامعة واحدة تجمع شتاتها،وتوّحد كلمتها،وتكتّل صفوفها،حتّى تضحى تشكل قوة قادرة على إهابة العدو الأوروبي وصدّ سياسته وإحباط مطامعه،وتتمثّل هذه الجامعة في:الجامعة الإسلامية التي تحمّس كلّ منهما للدعوة إليها إيمانا بفعالية أدوارها الوظائفية في صيانة الأقطار العربية الإسلامية:من مخاطر الغزو الأوروبي،والحفاظ على مقوّمات الحضارة الإسلامية دينا ولغة وتاريخا وثقافة وحضارة.واعتقد كلاهما أنّ هذه الجامعة الإسلامية لن يتسنّى لها أن تتجسّد إلاّ إذا ما تحقّقت في كنف هيكل سياسي،تمثّله الخلافة العثمانية المؤهلة أكثر من سواها لاحتواء العرب والمسلمين وفي هذا السياق تندرج دعوتهما إلى الخلافة العثمانية

2- الدعوة إلى الخلافة العثمانية

كان كلّ منهما يرى في الخلافة العثمانية في استنبول الأداة الكفيلة بجمع كلمة المسلمين-والعرب المختلفين،المتصارعين والمتناحرين إذا ما انضووا تحت لوائها،والذود عن حياض الإسلام وديار المسلمين من الأعداء المسيحيين المتربصين بها الدوائر.وشكّل هذا التصوّر لأدوار الخلافة الوظائفية في تحديد مصير العرب-والمسلمين في الحال والاستقبال منطلق نضالهما في سبيل نصرتها والدفاع عن سياستها الداخلية والخارجية،لاعتقادهما الراسخ في أنّها وسيلة إنقاذ المسلمين المثلى من الاستعمار والتخلف إلاّ أنّ وجهة نظرهما قد اختلفت عند إلغاء الحركة الكمالية نظام السلطنة العثمانية وإعلانها استقلال الخلافة عن الدولة.إذ بينما حمل شكيب على الحركة الكمالية لفصلها الدين عن السياسة وفصمها وحدة العرب والأتراك،وفصل هؤلاء عن الإسلام رأى المدني "أنّ إنشاء الخلافة مجرّدة عن السلطة المدنية تسمح للخليفة أن يباشر سلطانه الديني والروحي في كامل بلاد الإسلام دون أن يكون لتركيا كدولة علمانية أدنى تدخل في ذلك فيكون قصر الخلافة عبارة عن فاتيكان إسلامي يجمع المسلمين كما يجمع البابا المسيحيين"(10).ومع ذلك فإنّ كليهما يدعو إلى إحياء تعاليم الدين الإسلامي والعودة إلى العمل بمبادئه حتّى يتسنّى للمسلمين التحرّر والنهضة.ويبرز المدني هذا المنحى بقوله:"إنّ إحياء الإسلام بكلّ قيمه وتعاليمه والجهاد في سبيل الله في كلّ الميادين وبجميع ما ملكت أيدينا من

مال،ذلك هو سبيل إنقاذ وطننا الإسلامي الكبير ممّا تردّى فيه من احتلال وتكبّل به من قيود الظلم و الإرهاق.

لو كنّا مسلمين حقّا،ولو اتّفقت كلمتنا على الجهاد ولو أنّنا فضّلنا الشهادة في سبيل الله،و ـ ينا تحت الثرى على عيش المذلة والهوان فوقها لما حلّ بنا هذا الدمار"(11).

وهكذا فإنّ فلسفة مذهبها السياسي تقوم على وعي عميق مبكّر بواقع الاستعمار والتخلف الذي يعيشه وطناهما لبنان وتونس،حفزهما على خوض مسيرة النضال ضدّ الاستعمار الأوروبي في الداخل ثمّ في المنفى،مستندين إلى فكر ديني إسلامي تمثل قطبيه كلّ من الجامعة الإسلامية،والخلافة العثمانية، إذ كانا يعتقدان أنّ الإسلام هو طريق الشعوب العربية- الإسلامية إلى الخلاص من الاستعمار والتخلف.

ولئن طبع الصفاء هذه العلاقة لتعدّد الجوامع المشتركة التي وحّدت سياسيا بين شكيب أرسلان واحمد توفيق المدني في مسيرة نضالهما ضدّ الاستعمار قصد تحرير قطريهما وسائر الأقطار العربية-الإسلامية فإنّ وحشة عكّرت هذا الصفو في غضون سنة 1935،وتواصلت حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية، يكشف المدني عن ملابساتها في مذكراته بقوله:"...وحلّت سنة 1935 فإذا بي أجد نفسي في خلاف شديد مع الأمير شكيب أرسلان حول مبدأ أساسي أقدّسه وأتفانى في تقديسه ألا وهو مبدأ الاستقلال لكلّ الشعوب مهما كانت وأين كانت ومقارعة الاستعمار مهما كان المستعمر و أين كان المستعمر.

وكان خلافنا يجري في حقيقة أمره بصفة مستترة قبل ذلك، كان الأمير شكيب أرسلان يميل إلى موسوليني وإلى النظام الفاشستي الإيطالي بينما كنت أقارع ذلك الطغيان الإجرامي ضدّ إرادة شعوب وأعتقد أنّ هذا النظام سيؤدي بإيطاليا وبمجموعة الدول العالمية إلى كارثة رهيبة خاصة أنّ الفاشية كانت تنادي في نوع من الهستيريا السياسية الهوجاء بوجوب إرجاع كرسيكا ومقاطعة السافو إليها والمطالبة بالبلاد التونسية كأنّها جزء من ميراث أبيها، فكنا ننقم على إيطاليا هذا الطلب ونقابله بدعاية منكرة،وهل يرضي الشعب التونسي المستميت في سبيل استقلاله والتخلص من أعباء الحماية الفرنسية أن يصبح عبدا ذليلا تحت رحمة موسوليني جلاّد ليبيا وقاهرها وأذنابه من زعانف الفاشست"(12).

وفي هذه الأثناء بلغت سياسة التوسّع والعسف الإيطالية حدّها الأقصى،

بإصدار الزعيم موسوليني أوامره بمهاجمة بلاد الحبشة وإخضاعها لسلطة الفاشست،إذ بقيت الدولة الوحيدة المستقلة في الشرق الإفريقي،كلّ ذلك أملا في تأسيس الإمبراطورية الإيطالية التي تمتدّ أرجاؤها من طرابلس إلى سواحل الصومال والقرن الإفريقي.

وكان المناضل أحمد توفيق المدني من بين الحاملين على سياسة إيطاليا التعسفية هذه من خلال جريدة "الشهاب"مستعطفا ومناشدا دول العالم نصرة القضية الحبشية رغم ما كانت تقوم به الحبشة من ظلم وتقترفه من إثم في حقّ المسلمين الذين يشكلون نصف سكانها ذلك أنّ نصرة دولة مستقلة-في نظره- أفضل بكثير من نصرة الاستعمار وغضّ الطرف عن سياسته بينما كان شكيب أرسلان يرى أنّ دولة الحبشة لا تستحقّ هذا التعاطف،وتلك المناصرة من المسلمين لأنّها -في تصوّره-دولة ظالمة قاهرة،حطّمت المسلمين في بلادها وألحقت سلطنة جمعة في جنوب البلاد الغربي بأقطارها"(13).

ثمّ يذكر المدني أنّه كاتب شكيب يؤنّبه ويعزّره عن موقفه السلبي من القضية الأثيوبية-الإيطالية،والذي يفسّره بأنّه يعتمد حكمة:"إن ساد الظلم في الدنيا فليكثر عدد الظالمين"(14)،ويؤكد معارضته لهذا التصوّر الأرسلاني بقوله "...كنت مخالفا لهذه السياسة على خطّ مستقيم،ولقد أردت مقاومتها فعلا على صفحات القسم الذي كنت أحرّره في "الشهاب"،منذ ظهوره إلى اختفائه إلاّ أنّ أخي و صديقي العلامة العظيم عبد الحميد ابن باديس قد أثناني مكرها عن ذلك مذكرا بأنّ صداقة الأمير الجليل تعتبر كسبا ثمينا لا يمكن الزهد فيه وأنّ دفاعنا عن الحيشة أو تأييدنا لموسوليني ضدها لا يقدّم في الميزان شيئا ولا يؤخر مادامت جمعية الأمم قد عجزت وسقطت ولم تستطع أن تعمل شيئا. وقال موسوليني كلمته الفاجرة:" آخذ الحبشة بتأييد جمعية الأمم أو من غير تأييد جمعية الأمم أو ضدّ جمعية الأمم"(15).

وبقي هذا الخلاف من المسألة الأثيوبية خافتا،وإن تواصلت مراسلاتهما، فقد كانت دون العادة لضعف المودّة بينهما إلى حدود انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث عادت علاقتهما إلى سالف سيرتها و لكن المدني يذكر أنّ هذا الخلاف قد أبقى في قلبه جرحا عميقا.

هكذا فكلّ من شكيب أرسلان وأحمد توفيق المدني كان حادّ الوعي السياسي منذ الحداثة والذي أنضجته أوضاع الأقطار العربية الإسلامية، فكانت ثورتهما المبكرة على الاستعمار الأوروبي،حيثما تكون الثورة يكونان

وتكون ثورة حيثما يكونان،كلّ ذلك بهدف التحرّر السياسي والنهضة الحضارية،مما جعل نضال كلّ منهما يقترن بنضال الآخر إذ يقول المدني: "وما كتب عنّي أحد الأعداء الاستعماريين مقالا في صحيفة أو في مجلّة إلاّ قال عنّي أنني صديق الأمير شكيب أرسلان و مراسله وقد اعتبرني الأمير أخا صادقا وصفيا نجيبا"(16).

3- شكيب أرسلان و الزعيم الإيطالي موسوليني

تكمن أهمّية العلاقة التي جمعت بين الأمير شكيب أرسلان والزعيم الإيطالي الفاشستي موسوليني في أنّها جمعت بين شخصيتين بارزتين في العصر الحديث،لكلّ منهما منهجا السياسي نظرية ومراسا وبذلك فإنّهما تشكّلان طرفي نقيض،إذ في حين كان شكيب أرسلان مناضلا سياسيا نذر حياته للدفاع عن قضايا تحرّر أقطار البلاد العربية-الإسلامية واستقلالها بمقاومة الدول الاستعمارية بالقلم واللسان والسيف والنجد نجد زعيم إيطاليا الفاشستي موسوليني يمارس سياسة استعمارية قهرية،توسعية في طرابلس الغرب،وغيرها من البلاد الإفريقية التي بسط نفوذه عليها كالحبشة والصومال و إريتريا،أملا في تحقيق إمبراطورية إيطاليا العظمى.

وتعود جذور معرفة شكيب أرسلان لموسوليني عندما لم يكن هذا الأخير سوى مدير لصحيفة "شعب إيطاليا" "Popolo d'Italia"(17)وبذلك فإنّ صداقة شكيب أرسلان لهذا الزعيم الإيطالي ترجع إلى ما قبل أن يعتلي هذا الأخير عرش إيطاليا،و يصبح زعيمها الأوّل،ويتسلم حزب الفاشست — الذي يتزعمه- مقاليد الحكم في الثامن والعشرين من شهر أكتوبر سنة 1922.

ونرجّح أن يكون هذا التعارف بين الرجلين قد حصل غداة الحرب العالمية الأولى أو مباشرة عند انتهائها.وهنا لابدّ لفهم جوهر هذه العلاقة من التمييز بين شخصية موسولويني الإنسان وموسوليني السياسي،باعتبار أنّ الذي صادقه شكيب أرسلان ليس موسوليني السياسي وإنّما الإنسان بدليل قوله في الكشف عن نوعية العلاقة التي جمعته بموسوليني: "...نعم إنني صديقه،و لكنني لم أكن أبدا صديق سياسته الاستعمارية"(18)،وبذلك فإنّ علاقة شكيب أرسلان بالزعيم الإيطالي موسوليني وصداقته له وزيارته لإيطاليا للالتقاء به والاجتماع معه ليست سوى علاقة صداقة ومودّة لا تعكس بالمرّة اتفاقه ومذهبه السياسي:مبادئ وأهدافا وممارسات كما ذهب إلى ذلك قسم كبير من العرب

والمسلمين الذين حملوا على شكيب فنعتوه بالخائن لقضايا وطنه والعرب والمسلمين، والعميل لدولة إيطاليا الفاشية بل والجاسوس لأوروبا عامّة.

ولكنّ الواقع يؤكد خلاف هذا حيث لم يكن شكيب أرسلان أبدا نصيرا لسياسة موسوليني وحكومته الفاشية ذات الممارسات القهرية والأبعاد التوسعية بل كان من المبادرين إلى الحملة عليها والتشهير بها-رغم صداقته لصاحبها- إذ يقول: "منذ استولى على إيطاليا حزب الفاشست تحت رئاسة موسوليني بدأ الإسلام في طرابلس الغرب و برقة يؤول إلى الانقراض"(19). وقد ندّد بمبادئ الفاشست التي تتمحور حول "الوصول إلى أغراضهم بكلّ وسيلة و بدون أدنى نظر إلى ما يقال له حقوق الأمم وحقوق الإنسانية بل يعلنون بأنّهم لا يعرفون الحريّة ولا يقدّسون للحقوق العامّة عهدا، وأنّ كلّ شيء يرونه ضروريا لأجل تعالي إيطاليا وبسطها نفوذها في الأرض لأجل توطيد دولة الفاشست"(20)، كما لم يتردد في فضح الجرائم الشنيعة واللاانسانية التي اقترفها أعوان موسوليني في حقّ أهالي طرابلس الغرب الفاشست في طرابلس الغرب وبرقة. فيؤكد: "أنّ المظالم التي أوقعها الطليان الفاشيست في طرابلس الغرب وبرقة هي مما لا يقع نظيره في هذا العصر وقد يكون نادرا حتّى في القرون الوسطى"(21)

و رغم كل مظاهر الاختلاف في المنهج السياسي بين كلّ من شكيب أرسلان والزعيم موسوليني فقد انعقدت بينهما أواصر صداقة متينة و مودّة خالصة، ذلك أنّ شكيب أرسلان أدرك أنّ سلاح القلم والسيف في مقاومة سياسة صديقه موسوليني الفاشية وحكومته لا يكفي وحده لتحقيق ما يطمح إليه من مطالب سياسية باستطاعة موسوليني أن يلعب دورا فعّالا في تلبية ولو جزء منها، كما أدرك أنّ مواصلة التطرف في الحملة على إيطاليا وساستها بالتشهير والتنديد لن يزيد هؤلاء إلاّ تكريسا لمارساتهم الوحشية وأطماعهم التوسعية من خلال بسط نفوذهم على المزيد من الأقطار الإفريقية المتاخمة لطرابلس الغرب، و يؤكد شكيب أرسلان كلّ هذا في قوله متحدّثا عن موسوليني: "إن علم أننا لا نريد أن نقول فيهم إلاّ ما كنّا نقوله من قبل فلا شكّ أنّه لن يفعل شيئا"(22) وبذلك فقد رأى شكيب أرسلان في هذه الصداقة التي تجمعه بزعيم إيطاليا موسوليني وسيلة لتحقيق عديد طموحات الشعوب العربية الإسلامية، ورأى ألاّ بدّ من الممالاة والتجمّل وانتهاج سياسة الترغيب والملاينة إذ على السياسي أن يماشي تقلّبات أحوال السياسة خدمة لما يروم تحقيقه من مصالح، ذلك أنّ مراسه الطويل للسياسة ومصاحبته لرجالاتها وخبرته لنفسياتهم رسخّوا لديه

بأنّ "كلّ سياسي يجب أن ينشد مصلحة قومه لأنّ السياسة تتغيّر من حين إلى حين"(23).

فقد أدرك شكيب أرسلان أنّه إذا ما أراد تجسيد–جزء على الأقل من تطلعات العرب والمسلمين إلى التحرر والاستقلال–لابدّ له من تغيير سياسته تجاه إيطاليا وزعيمها موسوليني إذ يقول: "أنا لي مطالب عند موسوليني تتعلق بمسألية سوريه وبمسألة فلسطين وبمسألة طرابلس"(24).وهكذا فإنّ هذه الصداقة التي جمعته بالزعيم الإيطالي موسوليني تشكل في جوهرها جانبا من نضاله في سبيل خدمة قضايا أمته العربيد–الإسلامية،ذلك أنّه أدرك أنّ اكتساب مودّة موسوليني والإحراز على ثقته ييسّران له سبل نضاله السياسي في مقاومة الاستعمار دفاعا عن حرية البلاد العربية–الاسلامية واستقلالها، وهو ما يفصح عنه في قوله: "..فنصيب الثقة الذي منحني إياه،استخدمته لتحسين وضعية الطرابلسيين ضحايا أصناف القمع الايطالي"(25).

ولذلك فإنّ صافى شكيب أرسلان زعيم إيطاليا موسوليني فلغايات في نفسه– أساءت نسبة كبيرة من العرد والمسلمين تأويلها فرمته بالعمالة لإيطاليا وخيانة قضاياها المصيرية.ويمكننا .ن ںمل الأبعاد التي كان يطمح شكيب أرسلان إلى تحقيقها من خلال صداقته مع ، ولينى فيما يلي:

1– دفع موسوليني وجماعته إلى تلطيف سياسة الإرهاق التي يتبعونها في طرابلس الغرب وبرقة بإقناعهم بما لحق إيطاليا من جرّائها من أضرار مادية و بشرية جسيمة يحدّدها في قوله: "وقد بلغت خسائر الطليان في هذه الحرب مدّة 20 سنة 150 ألف قتيل و300 مليون جنيه ذهبا"(26) فضلا عن الأضرار الأدبية التي شوّهت سمعتها وهي الدولة المتحضرة.

2– حثّ الزعيم الإيطالي موسوليني –لما يتمتع به من نفوذ واسع لدى حكومات الدول العظمى وساستها وخاصّة فرنسا وإنجلترا المستعمرتين لكلّ البلاد العربية– الإسلامية–على التدخل لدى حكومة فرنسا للتعجيل بمنح سوريا استقلالها ولدى إنغلترا لإنصاف عرب فلسطين بالتراجع عن مساندتها الكلية للكيان الصهيوني إضافة إلى منح مصر استقلالها.

وهكذا فقد رام شكيب أرسلان من مصادقته لموسوليني وتقرّبه إليه أن يشجّعه على التعامل معه خدمة لمصالح البلاد العربي الإسلامية المستعمرة ولكن أسيء فهم هذه السياسة المزدوجة ذات الحدّين–من طرف جانب كبير من العرب والمسلمين أدانوه ونددوا به،لجهلهم قوانين لعبة السياسة التي

تقتضي التبدّل والتغيّر والتحوّل حسب ما تمليه مستجدات الأحداث على الساحة السياسية، وبذلك فإن صادق شكيب موسوليني فلكي يحصل على مآرب منه، فإن توصّل إلى ذلك يكون قد وفق فيما حدّده لنفسه من مقاصد وإن خيّب موسوليني ظنّه فإنّه في حلّ من أمره و يكشف شكيب عن هذه الخفايا بقوله: "...وإنّني اعترف أنني كتبت ما كتبته ليكون مسرورا منّي، لا لأجل أن أحظى عنده بشيء لنفسي ولكن لأجل أن يجيب مطالبي في مسائل عديدة ذات أهمية فإن لم يجب مطالبي فأنا طليق اليد، حرّ أن أعود معه إلى العداوة"(27).

كلّ هذا وما يحزّ في نفس شكيب أرسلان أنّ مراسه السياسي غالبا ما أسيء استقراء دوافعه وتأويل أبعاده من طرف نسبة هامّة من الشعوب العربية الإسلامية الجاهلة، التي تحكم على مظاهر الأمور لعجزها عن استنباط جوهرها الحقيقي إذ يصرّح بقوله: "أنا أخطأت في كوني لم أنتبه أمام شعوب جاهلة إلاّ ما ندر والنادر لا حكم له"(28)، وبذلك يؤكد شكيب مرّة أخرى سبقه الفكري السياسي لمعاصريه

4- شكيب أرسلان و المناضل الشيخ سيدي أحمد الشريف السنوسي

لئن تسنّى لشكيب أرسلان ربط صلات ودّ وتعارف والعديد من مشايخ الطريقة السنوسية أثناء إقامته بجبهة الأخضر ببرقة، فلأنّ الظروف لم تسمح له بلقاء صديقه الشيخ سيدي أحمد الشريف السنوسي الذي كان يراسله منذ سنوات كان يشرف آنذاك على قيادة المجاهدين الطرابلسيين بالجبهة.

وكانت مراسلاتهما المنتظمة تتضمّن تبادل الآراء والأخبار والمواقف والخطط التي تقتضيها الأوضاع الدقيقة التي يمرّ بها القطر الليبي خاصّة، والعالم الإسلامي عامّة، ذلك أنّ همومهما السياسية كانت تنحصر آنئذ في تحديد السبل الكفيلة بتحرير البلاد العربية-الإسلامية المستعمرة والذود عن الإسلام ضدّ الحروب الصليبية التي كان يشنها الغرب على بلاد المسلمين تباعا، إضافة إلى اقتناعهما بوجوب إحياء عقيدة الجهاد في نفوس شعوب الأمّة الإسلامية" في عصر اندثرت فيه معالم الجهاد وانطفأت جذوة الإسلام حتّى لم يبق إلاّ الرماد واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتّى حسبوا كلّ مقاومة لدولة أوروبية ضربا من ضروب الحماقة وعمّ ذلك جموعهم الحاضر منهم والباد".(29)

ولقد كان شكيب أرسلان معجبا ببطولات الشيخ في حربه ضدّ الطليان

ومقاومته الباسلة لجيوشهم رغم تفاوت العدد والعدّة.فقد وجد فيه البطل المجاهد الذي ينشده في واقع انعدمت فيه معالم البطولة لذلك بوّأه منزلة معتبرة من نفسه،وكان يرى فضله أعظم جدًا–في الحرب الطرابلسية– من فضل الدولة العثمانية في جهادها إلى جانب الطرابلسيين في هذه الحرب.

وكان الشيخ أحمد الشريف السنوسي يبادله نفس المشاعر إذ يرى فيه رمز المجاهد في عصر فقدت فيه عقيدة الجهاد في نفوس العرب والمسلمين،ورمز العربي الأصيل والمسلم الحقّ الغيور عن عروبته و إسلامه والمدافع عنهما ضدّ كلّ ما يهدّدهما من أخطار.

هذا واضطرت الظروف الاستعمارية السيد أحمد الشريف السنوسي إلى مغادرة طرابلس الغرب ناجيا بحياته على متن غوّاصة ألمانية إلى تركيا أين اختار قرية مرسين مكانا لإقامته،"وكانت الحكومة التركية تجري عليه الأرزاق التي تكفيه كضيف كريم كان حليفا للدولة العثمانية"(30).

ولمّا علم السيد أحمد الشريف السنوسي بقدوم شكيب إلى الآستانة بادر بالكتابة إليه يستقدمه ويلتمس منه السكنى إلى جواره،وذلك للمنزلة المعتبرة التي يحظى بها لدي،ويصوّرها شكيب في قوله:"وكان بعد التجربة الطويلة لا يثق بأحد ثقته بي،وكان يفضي إليّ بكلّ ما في نفسه،وكنت وسيطه الدائم لدى صديقي أنور باشا رحمه الله و هذا كله قبل أن تعارفنا بالوجوه".(31)

وتوطدت بمرسين علاقتهما لتتحوّل إلى صداقة متينة قوّت أواصرها ملازمة كلّ منهما للآخر أطرافا من النهار وآناء الليل،ساعات طوال في قصر السيد الذي أنزلته به الحكومة التركية.فوجد كلّ منهما في الآخر أنيس الوحشة ورفيق الوحدة والغربة بعيدا عن الأوطان والأهل والخلان،وكانا خلال لقاءاتهما يتدارسان أوضاع طرابلس الغرب السياسية و العسكرية،فضلا عن أحوال العالم العربي الإسلامي،دون أن يملّ أحدهما الآخر أو يضجر منه لتناغمهما روحا، واتفاقهما فكرا،واشتراكهما منهجا سياسيا ويصوّر شكيب أرسلان عميق هذه الروابط المشتركة التي جمعته بالسيد بقوله:"...كان كلّ منّا يأنس بالآخر ما لا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل ومن بعد وكانت معارفة بيننا سببا لزيادة الحرمة وتضاعف الاغتباط بالصحبة،وما أمتن الوداد إذا كنت تحترم من تحبّه و تحبّ من تحترمه"(32).

ولئن بلغت العلاقة الجامعة بينهما هذا العمق الروحي والفكري والسياسي فلأنّهما قد وعيا منذ الحداثة هموم الاستعمار والتخلّف،فكان

اقتناعهما بوجوب النضال في سبيل تحرير وطنيهما من الاستعمار الأوروبي الغازي فضلا عن سائر الأقطار العربية الإسلامية الخاضعة لسيطرته ونفوذه، قصد تحقيق نهضة إسلامية معاصرة تتزاوج فها الأصالة والمعاصرة،واعتقدا أنّ هذه النهضة المنشودة لن يتسنّى لها أن تتجسدّ إلاّ بتحقيق وحدة إسلامية جامعة لشتات العرب والمسلمين في ظلّ الخلافة العثمانية،فكانا من دعاة الجامعة الإسلامية،ومن مناصري الخلافة العثمانية.

وصفوة القول فقد جمع بينهما درب النضال السياسي،ووحّدت بينهما مبادئ السياسة ومراسهما،فتعمّقت الموّدة والألفة بينهما إلى حدّ وفاة الشيخ أحمد الشريف السنوسي الذي تفجُع عنه شكيب بقوله: "...منذ انطوى أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما أشعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذي نقل إلى الآفاق نعي الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف الباتر،السائر على هدي الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف السنوسي رضي الله عنه..."(33).

5- علاقة شكيب أرسلان بالمناضل الحبيب بورقيبة

لعبت الصدفة دورها في عقد صلات التعارف والمودّة بين الأمير شكيب أرسلان،والمناضل الشاب الحبيب بورقيبة وذلك في أواخر شهر فيفري من سنة 1937،بالعاصمة الفرنسية باريس أثناء مأدبة غداء أقامتها بعثة من جمعية طلبة مسلمي شمال إفريقيا احتفالا بذكرى عيد الأضحى المبارك،واستدعت إليها عديد الشخصيات التي كان يتصدّرها الأمير شكيب أرسلان الذي قدم من جنيف تلبية للدعوة وتشريفا للحفل.أمّا الزعيم الحبيب بورقيبة فقد كان آنذاك ضمن البعثة التونسية المقيمة بباريس بمعية المناضلين الحبيب ثامر والهادي نويرة.

وأثناء هذه المناسبة تمّ اللقاء التعارف بين أب مناضلي حركات التحرير المشرقية والمغاربية المجاهد الأمير شكيب أرسلان والزعيم المناضل الحبيب بورقيبة الذي يصوّر لقاء التعريف هذا الذي جمعه بمجاهد العروبة و الإسلام الذائع الصيت في كلّ الأوساط العربية والأجنبية بقوله: "...هو ذا الرجل الذي ستضعه الصدفة في طريقي،طيلة إقامتي الأخيرة بفرنسا.وفي واقع الأمر فقد كنت بمنأى عن التفكير في الأمير شكيب أرسلان عندما وجهت له في20

فيفري الفارط بعثة من جمعية طلبة مسلمي شمال إفريقيا الدعوة لحضور المأدبة التي ستقيمها بعد غد بمقرّها المتواضع بنهج رولان احتفاء بعيد الأضحى.

ثمّ قال لي الزميل بن عبد الله-الطالب الجزائري ورئيس الجمعية: "سيحلّ بيننا ضيف آخر،سيسّر كثيرا بالتعرف إليك إنّه الأمير شكيب أرسلان الذي يصل هذا المساء من جينيف"

فأجبته فورا"يمكنكم التعويل عليّ".

وكنت بدوري مغتبطا لرؤية هذا الرجل،للتّحدث إليه،ولأكوّن لنفسي فكرة صحيحة عن قيمته.

ومن الغد كنت في الموعد،وكانت القاعة الصغيرة بنهج رولان تعجّ بالخلق،وما كدت أتخطى الباب حتّى وقع نظري في آخر القاعة-وحول مائدة الشرف-على الأمير شكيب أرسلان،عاري الرأس،يبادر بالنهوض،مادّا ذراعيه ليقبلني كابن والابتسامة تعلو شفتيه.فوجمت لهذه المودّة التلقائية،الطبيعية من رجل كنت أجهله تماما منذ لحظة خلت.

وعلى الإنسان أن يكون قد سافر ليدرك قوّة الرابطة الدينية الخارقة للمألوف التي لا تجعل مسلمين يلتقيان-حتّى في أقاصي العالم-في بلاد غربية-دون أن يتحابّا و يشعرا بروابط تضامن عميقة.

وكأنّه لإبراز هذا التضامن جليّا بين أغلب ممثلي البلدان العربية الذين شرّفوا هذه المأدبة اللطيفة المتنوّعة، في جوّ أخوي لطيف،كان إلى جانب الأمير السيد الصالحي واحد من أفاضل مجاهدي جمعية علماء الجزائر مجاورا للسوري عمر العميري الطالب بكلية الآداب،وكان رفيقنا القلطي يتحدث بابتهاج مع عراقي.

وفي الطرف الآخر مع الطاولة جلس رئيس فرعنا بباريس الدكتور الحبيب ثامر يواصل محادثة جدّ متحمسة مع رفيق مصري.

وبعد أن حييت كلّ الضيوف،وكلّ الرفاق و المدير والطاهية،أخذت مكاني إلى جانب الأمير الذي أثرت معه مباشرة محادثة.

ومن خلال الشروح الأولى اعتقدت راسخا بأنّي أمام رجل جدّ مثقف في العربية والفرنسية،ومتحمّس لنهضة الإسلام،وله موهبة عجيبة للحركة.

وكانت الساعة تشير إلى الثالثة عندما استأذنت من هذا الشيخ الشهير،

بعد أن ضربت معه موعدا للساعة التاسعة مساء.كنت حريصا على أن أحصل منه مشافهة على سيرة ذاتية بقدر الإمكان"(34).

ويصور المناضل الحبيب بورقيبة اللقاء الثاني الذي جمعه بالمجاهد الأمير شكيب أرسلان مساء بقوله: "...وفي حدود الساعة المتفق عليها كنّا أنيسين أمام فنجاني شاي مغربي ويتمهّل،وفي هدوء،تائه النظر إلى بعيد...أخذ الأمير-أمام المندهشين- يفتّت ذكرياته ويبسط تقلّبات حياة طويلة وحركية،حياة جدّ وكفاح متّجهة بإصرار إلى مثل مزدوج يمثّل المبدأ الموجه وعلة الكيان: "إصلاح الإسلام و تحرير الشعوب العربية"(35).

وهكذا فإنّ قيمة هذا اللقاء تكمن في حصول التعارف بين رجلين وعى كلّ منهما منذ الحداثة واقع وطنه المستعمر المتخلف فأخذ نف ، بالنضال السياسي ضدّ الاستعمار نشدانا لحرية شعبه وسيادته،ثمّ إنّ هذا اللقاء أقنع المناضل الشاب الحبيب بورقيبة بقيمة المجاهد الامير شكيب أرسلان الفكرية و خاصّة السياسية،الأمر الذي حفزه على العمل على توطيد أواصر العلاقة التي أضحت تربطه به، للاستفادة من طول نضاله السياسي نظرية ومراسا،وما وفره له من عميق خبرة،وشديد حنكة،ودقيق معرفة بتقلبات السياسة،وتبدّل أحوال الساسة،خاصّة وهو لا يزال في بداية درب النضال في حاجة إلى من يبّصره حقائق الأمور،ويبدي له النصيحة عند التباس السبل،ويساهم بفعالية في إنضاج وعيه السياسي حتّى تتّسم رؤاه السياسية بالوضوح،ومواقفه بالإصابة، ومبادئه بالثبات،فيتسنّى له بذلك بلوغ المرام وتحقيق المرسوم والمرجو من الأهداف السياسية التي حدّدها لنضاله.

ثمّ تجدّدت اللقاءات بين المجاهد الأمير شكيب أرسلان والمناضل الحبيب بورقيبة في مناسيتين:تمّت أولاهما أثناء مأدبة أقامها شكيب أرسلان خلال مدّة إقامته بباريس على شرف أعضاء جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين وكان الحبيب بورقيبة من جملة المدعويين إليها إلى جانب المناضل الجزائري مصالي الحاج رئيس جمعية نجم شمال إفريقيا والمجاهد محمد الخلصي نائب لجنة العمل بالمغرب الأقصى.

وتناول شكيب أرسلان ، الحاضرين أوضاع الحركات التحريرية المغاربية والسياسة التي تقتضيها مرحلة النضال القادمة لضمان مواجهة أجدى للاستعمار الفرنسي،كما وقع التطرق إلى قضية وحدة المغرب العربي لاشتراك الأقطار المغاربية الثلاث: تونس و الجزائر-والمغرب في اللغة والدين والتاريخ مما

ييسر تجسيد هذه الوحدة التي تجعل من هذه الشعوب الثلاث في وعي شكيب أرسلان-قوّة قادرة على المقاومة الفعّالة للاستعمار الفرنسي وإفشال سياسته الاستعمارية التوسعية في ربوعها،إذ أنّ بقاءها مقسمة الحدود، يحدّ من فاعلية نضالها ضدّ المستعمر، الذي لن يتوان عن استغلال هذا التفرّق لتقوية وجوده وتكريس سياسة عسفه و احتوائه.

أمّا اللقاء الثاني فقد حصل قبيل عودة شكيب أرسلان إلى مقرّ إقامته بجنيف وجمعه بالمناضل الحبيب بورقيبة ورفيقه الهادي نويرة.وتمّ أثناءه تدارس مشروع الوحدة المغاربية،وما وصلت إليه جهود زعماء حركات تحرير هذه البلدان المغاربية في سبيل تحويل المشروع من حلم منشود إلى واقع موجود فضلا عن استعراض أوضاع الحركة الوطنية التونسية التي أسدى شكيب أرسلان في شأنها للمناضل الشاب الحبيب بورقيبة عديد النصائح المفيدة وقدّم له خطط الكفاح الكفيلة بتصعيد النضال ضدّ الوجود الاستعماري الفرنسي بتونس قصد تحرّرها واستقلالها وأكّد له فشل سياسة التفاوض والحكومة الفرنسية التي لا تفهم إلاّ لغة القوة.

وإثر بضعة أشهر من عودة المناضل الشاب الحبيب بورقيبة وبعض رفاقه إلى أرض الوطن اندلعت حوادث 9 أفريل 1938 الدامية،والتي شكلت انطلاق شرارة الكفاح التحريري المسلّح الذي قرّر الشعب التونسي خوضه ضدّ سياسة الإرهاق الفرنسية.

وغداة هذه الأحداث وجّهت فرنسا الاتهام إلى المجاهد شكيب أرسلان الذي تعتبره وراء كلّ الفتن و الانتفاضات التي تجدّ بأقطار المغرب العربي.

وهكذا فقد وجدت مبادئ مذهب شكيب أرسلان السياسي الصدى الطيب في نفس الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة ورفاقه المناضلين،إذ شكلت قناعات سعى الحبيب بورقيبة جاهدا إلى تجسيدها في مراسه السياسي في درب الكفاح التحريري ضدّ الاستعمار الفرنسي لتحرير تونس واستقلالها،وبذلك يكون المناضل الحبيب بورقيبة-شأنه شأن بقية رفاقه من زعماء حركات التحرير الجزائرية والمغربية-أحد أبناء مجاهد العروبة والإسلام الأمير شكيب أرسلان الذي خصّ زعماء هذه الحركات التحريرية المغاربية بوافر عنايته،وأصبغ عليهم عميق عطفه و أسدى لهم خالص نصائحه، و سديد إرشاده فكان لهم الأب الموجّه في درب النضال السياسي ضدّ الاستعمار الفرنسي الغاصب.

الهوامـــــش

1) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 255
2) نفس المصدر: ص 261
3) نفس المصدر: ص 262
4) نفس المصدر: ص 262
5) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الرابع، ص 358
6) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص254
7) أحمد توفيق المدني: علم من أعلام العروبة والإسلام والوطنية. وهو سليل عائلة من المجاهدين الجزائريين هاجرت إلى تونس واستقرت بها. ولد بتونس يوم 1نوفمبر 1899، دخل الكتّاب، ثم التحق بالمدرسة القرآنية الأهلية فجامع الزيتونة، والجمعية الخلدونية. تفتّح ذهنه على السياسة العامة فوعى منذ حداثته أساليبها وألاعيبها. فكان من الروّاد الذين كرسّوا حياتهم للنضال في سبيل النهضة ومحاربة الاستعمار، كما كان غزير النشاط النقابي والصحفي حيث ساهم في تحرير جريدة" الفاروق"، وترأس تحرير صحيفة، "الفجر"، ثم "البصائر". عرف السجن في تونس من سنة 1814 إلى سنة 1818، ثمّ النفي والإبعاد إلى الجزائر سنة 1925، فكان له نشاط كثيف ضمن "جمعية العلماء"، واصل نضاله ضدّ فرنسا قصد تحرير تونس والجزائر. اشتهر بكتاباته الصحفية المتحمّسة وخطاباته. وقد توفي يوم 18 أكتوبر 1983. تاركا عددا من المؤلفات تتمثّل في :
   1-تقويم المنصور (5 مجلّدات)، صدر بين سنوات 1922-1930
   2- قرطاجنة في اربعة عصور: تاريخ شمال افريقيا قبل الاسلام 1937
   3- كتاب الجزائر الجغرافيا و التاريخ و المجتمع 1931
   4- حياة كفاح-مذكرات، جزآن، 1973
8) الطاهر، محمد علي: ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص297
9) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص 746-747 عن رسالة بعث بها شكيب أرسلان إلى السيد رشيد رضا، من لوزان بسويسرا، بتاريخ 14 مايو 1931.
10) نفس المرجع، ص 8
11) نفس المرجع : ص324
12) نفس المرجع: ص 7-8

13) المدني، أحمد توفيق: حياة كفاح، الجزء الثاني: ص 233
14) نفس المرجع: ج2، ص 295
15) نفس المرجع: ج2، ص 235
16) نفس المرجع: ج2، ص235
17) نفس المرجع: ج2، ص 233
18) BRUNE (Jean):La tragedie algerienne du F.N.L.A. L'OAS : Chekib Arsalan : L'emir de l'eloquence,in Ecrits de Paris. Revue des questions actuelles, Octobre 1945,P 59.
19) BOURGUIBA (Habib): Un vétéran des luttes anticolonialistes: Chekib Arslan, in L'action Tunisienne. Editorial special Jeudi 3 Juin 1937, P2
20) أرسلان، شكيب: حاضر العالم الاسلامي، الجزء الثاني، ص64
21) نفس المصدر: ص 64
22) نفس المصدر: ص 65
23) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص829
24) نفس المرجع: ص 829
25) نفس المرجع: ص 825، عن رسائل شكيب أرسلان المخطوطة إلى السيد رشيد رضا.
26) BOURGUIBA (Habib): Un vétéran des luttes anticolonialistes:Chekib Arslan,in L'action Tunisienne. Editorial special Jeudi 3 Juin 1937, P2
27) ارسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الثاني، ص117.
28) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص831، عن رسائل شكيب أرسلان المخطوطة إلى السيد رشيد رضا، و التي لم يضمنها كتابه: "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة".
29) نفس المرجع: ص 829
30) ارسلان، شكيب: حاضر العالم الإسلامي، الجزء الرابع، ص398، و انظر الجزء الثاني، ص 164-165، وكذلك الجزء الثالث من ذات المصدر ص 374-376.

31) نفس المصدر: الجزء الثالث، ص 374.
32) نفس المصدر: الجزء الثالث، ص 403.
33) نفس المصدر: الجزء الرابع، ص 397
34) BOURGUIBA (Habib): Un vétéran des luttes anticolonialistes:Chekib Arslan,in L'action Tunisienne. Editorial special Jeudi 3 Juin 1937, PP 1-2
35) Ibid : pp1-2

الفصل الثاني

شكيب أرسلان والخصومات السياسية

* " إنّ الحاسد لا تهمّه الحقيقة
وإنّما تهمّه فرصة التشنيع"

* "يقولون لي أهلا وسهلا * ومرحبا ولو ظفروا بي ساعة قتلوني"
* " ولو كان سهم واحد لاتّقيته * ولكنّه سهم و ثان و ثالث"
شكيب أرسلان

إن لقيت سياسة شكيب أرسلان التأييد و المناصرة من قبل عديد الأوساط السياسية، والشعبية في ربوع العالم العربي-الإسلاميّ وحتّى الأوروبي، لقيامها أساسا على مبادئ الشرعية الدولية والقيم الإنسانية، فإنّها قد أثارت-من جهة أخرى-سخط العديد من ساسة عصرها ونقمتهم واستنكارهم، فناصبوا صاحبها العداء، بإثارة حملات عنيفة مشّهرة بسياسته ضدّ الدول الاستعمارية العظمى، دفاعا عن قضايا العروبة والإسلام وكلّ الشعوب المظلومة، المضطهدة في المعمورة.

فقد قام هؤلاء الأعداء بإلصاق عديد التهم بشكيب أرسلان السياسي وجعلوا الكثير من الشبهات تحوم حول مصداقية وطنيته، وقوميته العربية-الإسلامية وحتّى نسبة العربي لانتسابه إلى دروز جبل لبنان، كلّ ذلك لتشويه معالم صورة نضاله السياسي وتقليص شعبيته الواسعة التي يحظى بها لدى معاصريه العرب وحتّى الأجانب الذين وفق إلى كسب تعاطف جانب منهم

ولمّا كان شكيب أرسلان مقتنعا بمصداقية المبادئ التي أقام عليها نضاله السياسي لم يرتض أن يلازم الصمت وأن يسلك اللامبالاة إزاء ما أثاره ضدّه خصومه من حملات عدائية بل عمد إلى الردّ عليها قصد تفنيد ما تضّمنته من تهم الخيانة والغدر والخداع والتواطئ بالحجة المقنعة والبرهان الساطع.

فخاض بذلك عديد الخصومات مع عدد من ساسة عصره تبرئة لشخصيته السياسية من كلّ ما رميت به من تهم و حام حولها من شبهات، ومحافظة

منه-في الآن نفسه-على منزلته الرفيعة لدى جانب كبير من ساسة عصره العرب، و شعبيته الواسعة لدى أغلب المجتمعات العربية-الإسلامية.كلّ ذلك ليقينه أنّ السكوت عن هذه الحملات العدائية يعدّ في نظر معاصريه إقرارا بصحة التهم التي أدانه بها خصومه،وتثبيتا للشبهات التي جعلوها تحوم حول نضاله السياسي.وكان يعتقد جازما-في قرارة نفسه-براءته منها،و لكنّه-في الآن نفسه -يعتبرها ظاهرة طبيعية يجب أن ينتظرها سياسي في مثل منزلته وحركيته النضالية بل يعدّها تدخل ضمن طبيعة عمله السياسي،وما تقتضيه من جدال ومقارعة وخصام،خاصّة وأنّه يعسر على السياسي أن يحرز على رضى جميع الناس التباين فهم هؤلاء لمعالم سياسته واختلاف استقرائهم لأبعادها،فضلا عن تضارب مصالح رجالات السياسة أنفسهم،لأنّ العمل السياسي يقوم في جوهره على خدمة السياسي لمصالح معينة ينشد تحقيقها من خلال مراسه السياسي ويصوّر شكيب طبيعة العلاقة التي تجمع بين رجل السياسة ومعاصريه بقوله: "..من طبيعة البشر أنّهم يقعون في رجالات السياسة ورؤساء الأحزاب أكثر مما يقعون في غيرهمذ،وذلك لأنّ هؤلاء قضوا حياتهم في الخصام والمقارعة والجدال والمصارعة.وفي تأييد فريق على فريق وإعلاء كلمة على كلمة فتمتلئ ضدّهم صدور أعدائهم وعزا حتّى لا يكتفوا بتخطئة آرائهم وانتقاد أفكارهم فقط بل إنّهم يتجاوزون ذلك الطعن في أخلاقهم و البحث عن أثلاثهم ويرمونهم بما لم يعملوا بل قد يكونوا ماتوا ولم يسمعوا به وقد صادفني هذا في حياتي الشيء الكثير..."(1).

وبذلك يعيد شكيب أرسلان خصوماته وعددا من ساسة عصره إلى مراسه السياسي،وما تميّز به من سمات عملية أضفت عليه سمة التفرد في عصره.فقد كان شخصية قوية لا تضعف،عنيدة لا تستكين ولا تهادن من يبادرها بالإساءة بقوله: "...إنّ جميع الناس ومن جملتهم أعدائي يعترفون بأنني لا أطأطئ رأسي لخصم ولا أدنو منه إلاّ إذا دنا منّي طالبا التفاهم و في كثير من الأحيان إذا كنت قاطعا الأمل من استصلاح الخصم لا أرضى بمواجهته ولو التمس ذلك منّي"(2) وتتميّز شخصية الأمير شكيب أرسلان-فضلا عمّا ذكرنا-بجرأتها على الإصداع بالرأي دون خشية ما عسى أن يترتّب عنه من عواقب أو يثيره من حساسيات لدى الساسة وأهل العصر.ويقول شكيب أرسلان في هذا الصدد مدعما استقلالية سياسته وقراراته: "نحن لا نحابي أحدا ولا نخشى أحدا وما جرت لنا العادة في كلّ حياتـــنا أن نتوقّف عن ابراز أفكارنـــا خشية أن

يغتاظ منها زيد أو عمرو"(3).

ولعلّ هذه السمات التي ميّزت مراس شكيب أرسلان السياسي، تحمل في طياتها جانبا من الأسباب الجوهرية التي أثارت عليه حفيظة جانب من ساسة عصره، وبعض الفئات من معاصريه، وحفزتهم على السخط عليه والنقمة، والحملة على سياسته والتشهير بنضاله وحتّى ثلب شخصيته، ففيم تتمثل ملابسات الخصومات السياسية التي خاضها شكيب أرسلان وعددا من ساسة عصره؟وكيف تتجلى معالمها؟وما كانت أثارها على منزلته السياسية وشعبيته لدى معاصريه؟

1- مساندة سياسة الإرهاق العثمانية و التواطؤ مع القائد جمال باشا ضدّ أهالي سوريا و لبنان

كانت سياسة شكيب أرسلان العثمانية المنفذ الذي استغلّه أعداؤه لاتّهامه بمساندة سياسة الارهاق التي يسلكها الحكّام الأتراك بالبلاد العربية الخاضعة لنفوذهم، ويندرج-في هذا السياق-نعتهم له بالتواطؤ مع القائد العسكري العثماني أحمد جمال باشا في أعمال القهر والاستبداد التي اقترفها في حقّ الآلاف من الأبرياء من أهالي سوريا و لبنان الذين عرف الكثير منهم السجن والتعذيب والنفي وحتى الشنق في الساحات العامة.

واعتبارا لعلاقة شكيب أرسلان بهذا القائد فإنّ أهالي سوريا ولبنان أرجعوا هذه الأعمال الوحشية إلى شكيب أرسلان الذي عرف بمناصرته للأتراك العثمانيين وتعدّد صداقاته ومتانتها وساستهم فنعتوه بالمخادع والمنافق، والخائن لبني وطنه سوريا ولبنان والعميل للأعداء الأتراك.

ولقد بادر شكيب أرسلان بدحض هذه التهمة وتبرئة ذمته منها لأنّها تمسّ من وطنيته وعروبته وإسلامه ومنزلته بين بني قومه العرب عامّة و بني وطنه من أهالي سوريا ولبنان على وجه أخصّ بقوله: "إنّ جمال باشا قد حرّر مذكرات أوضح فيها سياسته في سوريا وأشار إلى أكثر ما قام به من أعمال وذكر قضية الذين شنقهم والذين نفاهم وذكر أسماء الذين أخبروه بحوادث أدّت إلى تلك المحاكمات في الديوان العرفي في عالية ومن جملتهم الشيخ الشتيري صديقه الحميم.ولم يقدر أن يذكرني بكلمة واحدة في كلّ هذه المذكرات لأنني طول مدّة وجوده في سورية لم أذكر كلمة سوء بحق أحد حتّى بحقّ الذين أعتقد خيانتهم أو سوء أحوالهم و ذلك خشية من أن يبطش بهم ويستند على كلامي فيهم وأكون أنا سببا في سفك الدماء والحال أنّ ذلك خارج

عن عهدتي وغير متعلّق بي فضلا عن منافاته لطبيعتي...وكان دأبي أن أدافع عن الجميع حتّى عن الذين لا اعتقد فيهم الخير"(4).

ثمّ جعله أعداؤه السبب في ممانعة القائد جمال باشا في إرجاع المنفيين من أهالي سوريا ولبنان إلى وطنهم وأنّه لو أراد ذلك و طلبه من الحكومة العثمانية أو القائد العثماني جمال باشا لكان له ذلك للإجلال الذي يحظى به لدى كليهما وخدماته الجليلة لسياستهما،إذ غالبا ما استعمل القائد جمال باشا نفوذ شكيب في التأثير على الأهالي وتطييب خواطرهم وإخماد فتنهم احتجاجا على عسف جمال باشا ويردّ شكيب أرسلان على هذه التهمة بقوله:"وهذا الكلام محض تعنّت وسفسطة فإنّه يجوز أن يسمع جمال باشا رجائي في اثنين ولا يسمعه في عشرين شخصا.وإذا كارمتني أولياء الأمور في مسألة أو مسألتين فلا يكون معنى ذلك أنّها لابدّ أن تكارمني في جميع المسائل وأنّه يجب أن يكون الأمر بيدي من الباب إلى المحراب وأيّ شخص مهما عظم نفوذه لا يقدر أن ينفذ كلمة في كلّ ما يريد و في أي وقت أراد."(5)

ويكشف شكيب أرسلان في أثره "سيرة ذاتية" الذي ألّفه خصيصا للردّ على جانب من تهم الأعداء بإيراد مراحل حياته الخصبة أحداثا و تقلبات على علّتها أنّه كان من أوّل المقاومين لسياسة جمال الإرهابية الوحشية في معاملة أهالي سوريا ولبنان لما كان يرى فيها من أخطار على مستقبل السلطنة العثمانية عامّة وعلى علاقة العرب بالترك على وجه أخصّ.ويذكر أنّه شكاه في عديد المناسبات إلى سلطات الإشراف بالآستانة مصوّرا سياسة قهره وعسفه ومحذّرا من عواقبها،الأمر الذي جعل القائد جمال باشا يحقد عليه،ويطلب من سلطات الباب العالي الإذن له باتخاذ التدابير الصارمة في حقّه،وبلغ به الأمر حدّ التهديد بقتله،قائلا:"إذا وقع هذا في اليد"(6)،ويقصد بـ"هذا" شكيب أرسلان الذي يصرّح أنّه لم يكن يأبه بوعيده قائلا:"لم أكن مباليا بخطر مقاومة جمال باشا" (7)ثم يردف:"لو كنت أفكر بأمور كهذه ما كنت أقدمت على عمل من الأعمال"(8).

ويمكننا أن ننصف شكيب أرسلان و نبرئه من هذه التهم التي نسبت له بإيراد حديث لجمال باشا نفسه في مذكراته يصوّر فيه معالم علاقته بشكيب أرسلان:"...ما وقع بيني وبينه (أيّ شكيب أرسلان) شيء ذو بال بل كان جلّ شكواي منه أنّه يتوسط للخائنين ويشفع للذين عندي وثائق على دسائسهم بحقّ الدولة.وهو يندفع في هذا الأمر بسائق رقة عواطفه والحال أنّ

السياسة شيء والرأفة شيء آخر،وإنّني مع اختلاف نظري ونظره في هذا الموضوع،أنا أعترف لما أبداه من علوّ النفس في شفاعته لدي بأناس كنت تحققت يقينا أنّهم كانوا ينوون قتله لو قدروا"(9).

وفضلا عن شهادة جمال باشا نفسه ببراءة شكيب أرسلان فإنّنا علمنا مدى حرص شكيب أرسلان على الحق وحثّه عليه،وكرهه للظلم والطغيان مهما كان مأتاهما ودفاعه عن المظلومين دون تمييز جنس.وقد تأكّدت براءته وتدعمت إنسانيته بصريح قوله: "...إنّي أغضب لظلم يقع على عابد الصنم وتفيض دموعي لأيّ غدر يقع ولو على زنجي من قبيلة نيام نيام و يحترق فؤادي لمجرّد تصوّر رضيع يقتل أو إمرأة يصرعها السيف من أيّة أمّة كانوا"(10)

2- العمالة لإيطاليا الفاشية و التواطؤ مع موسوليني

جاءت هذه التهمة في شكل تزوير رسالة حرّرت باسم شكيب أرسلان موّجهة إلى الزعيم الإيطالي موسوليني،وقامت بنشرها إحدى الصحف العربية وتضمّن محتواها نوعا من التواطئ بينه وبين الزعيم موسوليني على الحبشة مقابل ترضيات مالية ضخمة تمكن شكيب من الإيفاء بمصاريفه المالية الضخمة التي تستوجبها إقامته بجنيف،وقد أثار هذا الخطاب ردود فعل عنيفة في الأوساط العربية والإسلامية التي نعتت شكيب بالعمالة لإيطاليا وخيانة قضايا تحرّر أقطار أمته العربية الإسلامية واستقلالها،بمساندة السياسة الفاشية التوسعية الاستعمارية ممّا وضع مصداقية نضاله السياسي موضع شكّ،وشبهة. وإنصافا للحقيقة سنستجلي موقف شكيب أرسلان من صحّة هذه الاتهامات، ثمّ نتناول استقراءه فالردّ عليه.

لقد استغرب شكيب أرسلان من هذه الإتهامات التي ألصقت به نتيجة علاقته بايطاليا الفاشية وزعيمتها موسوليني،واستنكر كلّ الحملات العدائية المستعرة التي أثارها ضدّه جانب كبير من العرب المسلمين و أحدثت له صدمة نفسية إرتّج لها كيانه وكادت تودي به بصريح قوله: "..نعم عندما تأملت ذلك وتأملت فيما بلغ إليه العرب من قلّة التدين كدت أصعق وأموت فيحرم أولادي الصغار والدهم و أهمّ من هذا أن أموت قبل أن يتيسّر البرهان على براءتي ونشر البيانات اللازمة لإثبات تزوير الكتاب المنسوب إليّ فكنت أموت حينئذ موتا أدبيا و بدنيا معا"(11)

وهكذا فقد أنكر شكيب أرسلان تلك التهم التي حولته من مجاهد في سبيل العروبة والإسلام في نظر شعوب الأقطار العربية-الإسلامية إلى مجرّد عميل

يبيع مصالحها ويتاجر بقضايا تحرّرها واستقلالها ويتجسس على أوضاعها مقابل ما تغدقه عليه إيطاليا من مبالغ مالية هامة، فيردّ الافتراءات —حسب رأيه— في لهجة انفعالية ضمّنها عددا من البراهين الشهادة على براءته:

"...كيف اسكت أوّلا ولا أكتب إلى كلّ جهة ببراءة نفسي من فضاعة كهذه: إنّنا صرنا دعاة لإيطاليا! لا أصير داعيا لإيطاليا ولا موسوليني يطلب منّي أن أكون داعيا لإيطاليا و لا موسوليني هو ولد صغير يراني بهذه العين أو يجرؤ أن يقول لي: نرجوك أن تثبت هذه الدعاية لإيطاليا.

أمّا قولهم: إنّ هذا الذي كتبته إنّما هو دعاية لإيطاليا فليس بصحيح. أنا لي مطالب عند موسوليني تتعلق بمسألة سوريا وبمسألة فلسطين وبمسألة طرابلس وليست بالهينة أن اكتب عن الايريترية شيئا يسرّ موسوليني حتّى يجيب مطالبي لأنّه إن علم أنّنا لا نريد أن نقول فيهم إلاّ ما كنا نقوله من قبل فلا شكّ أنّه لن يفعل شيئا ولكنه قد فعل قسما و أنا استنجزه البقية.

أنا أخطأت في كوني لم أنتبه أمام شعوب جاهلة إلاّ ما ندر والنادر لا حكم له. أمّا القضية من حيث هي فهي صحيحة، كلّ سياسي يجب أن ينشد مصلحة قومه لأنّ السياسة تتغير من حين إلى حين.

ولنفرض جدلا أنني قائم بالدعاية لإيطاليا أفيحـ ّ لبعض الناس أن يزوروا كتابا علينا؟ هم يقدرون أن يظهروا بطلان قضيتنا بالبرهان والدليل. فأمّا بالتزوير فهذا شيء فضيع جدّا ندر وقوع مثله و أنّك لا تعلم إلى أي درجة هذه المسألة أضرّت بالعرب.

إنّني أدفع بكلّ قوتي اتهامي بالدعاية لإيطالية وإنني اعترف أنّي كتبته ليكون مسرورا مني لا لأجل أن أحظى عنده لشيء لنفسي ولكن لأجل أن يجيب مطالبي في مسائل عديدة ذات أهمية فإن لم يجب مطالبي فأنا طليق اليد، حرّ أن أعود معه إلى العداوة.

أنا ما سمعت حتّى الآن منطقا كهذا، الروسية البلشفكية التي كانت فرنسا لا تجد دولة أشدّ منا عداوة قضت السياسة عليها بأن تحالفها الآن برغم كلّ ما هناك من اختلاف المبادئ؟ لماذ؟ الجواب لأنّ المصلحة جمعت بينهما فكلّ منهما ضدّ ألمانيا أما أنّ الناس لا يفهمون هذا و يظنون أننا نعمل دعاية لإيطاليا ضدّ الحبشة متى عملنا هذا؟ لكنهم هكذا فهموا "(12).

ويكشف شكيب عن مبادئ موقفه من الحرب الأثيوبية بقوله: "وعلى ذكر الحرب الأثيوبية فلقد احتججت دوما ضدّ عملية استعمارية ستدمّر دولة

مستقلة،ولكنّي كنت أقدّر أنّه لا يجب الوقوف عند ذلك الحدّ.فقد قلت: على المسلمين أن يستغلوا الأحداث لتحسين مواقفهم في العالم: فالأثيوبيون منهم لإفتكاك الحريّات الأساسية التي كانوا محرومين منها النجاشيون والمصريون و السوريون لنيل استقلالهم" (13)

واعتمادا على هذه الردود التي صاغها شكيب أرسلان لدرء تهمة عمالته لإيطاليا و تواطئه وزعيمها موسوليني يمكن أن نسجل عدّة ملاحظات تكشف عن براءة شكيب:

1- إذا ما عنّ لإيطاليا الاستحواذ على الحبشة وبسط نفوذها عليها فهي قادرة على تجسيد هذه الرغبة بحدّ السلاح،ولن يتوقف عملها العسكري هذا على دعاية شكيب أرسلان.

2- إذا ما واصل شكيب أرسلان انتهاج سياسته العدائية تجاه إيطاليا بالحملة على سياستها الفاشية في طرابلس الغرب وبرقة–والتشنيع بفظائعها المقترفة ضدّ أهاليها،وفضح أطماعها التوسعية على حساب أمن دول المنطقة واستقلالها فإنّ عناد إيطاليا الفاشية سيتضاعف.وستكرّس سياستها التعسفية التوسعية خاصّة وهي مساندة من طرف كلّ من فرنسا وانغلترا لذا فضلّ شكيب أن يهادنها لسببين رئيسيين:

أ- التوصّل إلى اقناعها بتلطيف سياسة إرهاقها في طرابلس الغرب وبرقة بمنح الأهالي بعض الحقوق المدنية المحرومين منها كخطوة أولى على درب الاستقلال التام.

ب- استغلال منزلة ايطاليا دولة عظمى مهابة و صداقة موسوليني و نفوذه السياسي والعسكري للتدخل لدى كلّ من فرنسا وانغلترا لفائدة استقلال كلّ من سورية ولبنان من جهة،وفلسطين ومصر من أخرى.

وهكذا فقد أساء العرب و المسلمون فهم سياسة شكيب مع دولة إيطاليا الفاشية وصداقته لزعيمها موسوليني.

لئن صحّ ما اتّهم به العرب والمسلمون شكيب أرسلان بتحصله على مبالغ مالية ضخمة مقابل العمالة لإيطاليا و التواطئ وزعيمها موسوليني،فضلا عمّا ذكرته عديد المصادر الأجنبية في هذا الشأن كهذه المذكرة الإعلامية التي تشير إلى"أنّ الحكومة الإيطالية كانت تنزّل 2500 ليرة سنويا لشكيب أرسلان" (14)،وتقدّر حاجياته المالية بقرابة النصف مليون من الفرنكات في السنة حسب تقديرات سنة 1935،فضلا عمّا جاء في تقرير آخر للأركان العليا

البريطانية في القاهرة، والذي نصّ على أنّ "شكيب أرسلان قد يكون تسلّم-في أواخر 1939-من السيد بوفا سكوبا"M.Bova Scoppa"القنصل العام لإيطاليا بجينييف مبلغ 5000 فرنكا سويسرية منزّلة من طرف الحكومة الإيطالية"(15)، بالإضافة إلى ما أوردته مذكرة إعلامية من أنّ "شكيب أرسلان كان متحصلا في سويسرا على حساب تموّله ألمانيا-ايطاليا-تشيكوسلفاكيا ورومانيا"(16)فإنّ واقع شكيب أرسلان المادّي يناقض كلّ ما ورد في هذا المذكرات التي لا نستبعد حبكها من قبل أعدائه الأجانب حتى يشوهوا صورة نضاله وجهاده السياسي في نظر قومه العرب والمسلمين، ويحطوا من المنزلة التي يحظى بها لديهم.ففي رسالة بعث بها إلى أخيه السيد محمد رشيد رضا نقف عند حقيقة واقعه المادي وما كان يعانيه من فاقة وبؤس إذ يشكو إليه ضيق ذات يديه بديار الغربة وخطأ الناس في تصوّرهم لواقعه المادي بقوله: "...ضاقت عليّ مذاهبي وضيق ذات اليد أشقها ولكن اتكالي على الله لا ربّ سواه وبينما أنا في هذه الحالة أجد الناس لا يرحمون ولا يشفقون ولا يحسبون حسابا لحالة جسمنا ولا لتقدّم سنّنا ولا لضنك معيشتنا وهم يقدرون لنا القوة والصحّة والثروة و الراحة أضعاف الحقيقة"(17).

وتتدعم شكوى البؤس هذه في الكثير من مراسلاته لأخيه الشيخ محمد رشيد رضا وغيره من إخوانه الأوفياء.ولكن كلّ هذا لا يمنع من التساؤل عن مصادر الموارد المالية التي كان شكيب أرسلان يسدّد بها حاجيات معيشته إلى جانب نفقاته أسفاره المرتفعة، إضافة إلى غزير مراسلاته، وما تتطلبه هي الأخرى من أموال، وإجابة عن هذا التساؤل فإنّنا نرجّح أنّ صداقات شكيب أرسلان العديدة في العالم العربي-الاسلامي كانت تمكنّه من مبالغ مالية تكفل له مجابهة متطلبات حياته ببلاد الغربة، وبالتالي مواصلة نضاله السياسي في سبيل القضايا العربية-الإسلامية من أجل التحرّر والاستقلال والنهضة.

3- الدعاية لألمانيا في الأقطار العربية- الإسلامية

أثارت علاقة شكيب أرسلان المتازة مع الحكومة الألمانية وصداقاته الودية وعديد ساستها موجة من التنديد والسخط من قبل أغلبية الشعوب العربية الإسلامية، فاستغلّ أعداؤه هذا الموقف لاتّهامه بالدعاية لدولة ألمانيا في الأقطار العربية-الإسلامية ودعوة ساستها إلى موالاتها وتوثيق عرى التواصل والتعاون معها بدلا من دول الحلفاء: فرنسا وانغلترا، حتى يتسنّى لها تجسيد حضورها وتوسيع دائرة نفوذها بالمنطقة العربية وكسب صداقة دولها وتحالفها معها

سياسيا وعسكريا.ومقابل خدمات شكيب هذه،كانت الحكومة الألمانية تغدق عليه المبالغ المالية الهامة إضافة إلى حظوته لديها والتي تتجسد في تبجيلها له واحتفائها به عند كلّ زيارة له لربوعها.

ولم تقتصر الحملة على شكيب على أعدائه من العرب والمسلمين فحسب بل تجاوزتهم لتشمل الأجانب الذين يناصبونه العداء لمقاومة سياسة دولهم الاستعمارية،من ذلك الكاتب جون برين(Jean Brune) الذي واعتمادا على مذكرة إعلامية—يؤكّد أنّ شكيب أرسلان قد"تسلّم بالعملة الاسبانية من بنك سلفادور حسن مبلغا ماليا معتبرا محوّلا باسمه من طرف مراسل ألماني.وأنه أثناء إقامته بالمغرب الإسباني نزل ضيفا على أحد الرعايا الألمان يدعى لانقون هايم « Langonheim » الذي أصبح فيما بعد قائدا نازيا هامّا"(18)

ففيما يتعلّق بتسلم شكيب أرسلان هذا المبلغ المالي الهام المرسل من قبل أحد الألمان إليه، فإنّ الدليل القاطع يعوزنا ولكننا نتساءل عن حاجة شكيب أرسلان إلى مثل هذا المبلغ الهام و هو في صيافة إخوانه وأبنائه المغاربة الذين تكفلوا بكلّ لوازم إقامته و تنقلاته؟

أمّا نزوله ضيفا على احد الألمان عند زيارته لمدينة تطوان المغربية فإن تتبعنا للأنشطة التي قام بها الأمير أثناءها يجعلنا نستبعد احتمال وقوع هذه الزيارة ذلك أنّ الأمير شكيب أرسلان وطيلة الأيام الأربعة التي قضاها بهذه المدينة كان محفوفا بإخوانه وأبنائه المناضلين المغاربة الذي قدموا من كلّ الجهات المغربية للترحيب به والتسليم عليه بدار صديقه عبد السلام بنّونه التي لم يغادرها إلاّ عند توجهه إلى مدينة طنجة.

واتهم شكيب أرسلان بربطه علاقات مع عديد القادة النازيين البارزين — من ذلك التقاؤه في غضون سنة1937 ببلدرفون شيراخ "Baldur Von Schirach" قائد الشباب الهتلري وبذلك ألصقت به تهمة الانتماء إلى النظام النازي و التعامل معه و خدمة مصالحه بالمنطقة العربية الإسلامية.

ولئن وجدت مثل هذه العلاقات في دنيا الواقع فنعتقد أنّها لا تتجاوز حدود الصداقة والمودّة التي لا تعني بالضرورة الإتّفاق الكلّي في المبادئ والاختيارات.وبذلك فإنّنا نستبعد وجود مثل هذه النزعة النازية في مذهب شكيب أرسلان السياسي الذي انبنى أساسا على النضال في سبيل التحرّر والاستقلال لكلّ شعوب المعمورة وهو ما يؤكده في قوله: "...لا نرضى باستعمار دولة غريبة لدولة شرقية بل لا نرضى بتسلط شعب على أي شعب—هذا مبدأ

مقدس لا نحيد عنه"(19).

ثمّ نجد الصحف الشرقية تجعل من زيارة شكيب أرسلان لألمانيا في غضون سنة 1939 لا لبيع منزلة ببرلين كما ذكر، بل لـ"بعث مجلة بعنوان "الحقيقة للعرب" La vérité pour les arabes "باللغة العربية بالتعاون مع قوبلس Goebbels ".وهذه الجريدة مخصّصة كي تنتشر بواسطة الدول المحايدة وهدفها معاضدة الدعاية لألمانيا بالبلدان العربية وإضعاف التحالف الفرنسي-الإنغليزي بانتفاضات في مناطق ما وراء البحار الإسلامية.

ومّما لاشك فيه أنّ هذا المشروع لم يبرز إلى الوجود لجزع شكيب أرسلان من ردود الفعل في الشرق الأوسط .ومع ذلك بقي لهذا أثر في تقرير للسيد فرنسوا بونسي" François Poncet"السفير بروما بتاريخ 19 فيفري 1940 يقول فيه : "استنادا إلى معلومات حسنة الإطلاع فقد يكون حصل اتفاق ببرلين بين وزير الدعاية للرايش والأمير شكيب أرسلان أثناء الإجازة التي كان يقضيها هذا الأخير بألمانيا و قد يكون الأمير التزم بأن يخوض عمل دعاية يهدف إلى إثارة أذهان العالم العربي ضدّ انغلترا وفرنسا ومن المفروض أن يكون محور حركته قد حدّد بروما"(20)

و ما يضعف ما ذهبت إليه الصحف العربية من جعل هدف زيارة شكيب أرسلان لألمانيا في غضون سنة 1939 بعث جريدة تكون وسيلة دعاية لألمانيا في الأقطار العربية-الإسلامية اعتمادها في ايراد هذا الخبر على الصحف الفرنسية والانغليزية التي عرفت بعدائها الشديد لشكيب أرسلان وحملاتها الدائبة لغاية تشويه صورة نضاله لدى الرأي العام العربي- الإسلامي.

كلّ هذا،ونحن لا ننكر صداقة شكيب أرسلان لعديد ساسة ألمانيا البارزين ولكن لا يعني هذا عمالته لهم وخدمته لصالحهم الاستعمارية التوسعية بالأقطار العربية-الإسلامية.فعلى سبيل المثال،وأثناء الحرب الأولى،رغم اعتقاد شكيب أرسلان واقتناعه بوجوب دخول تركيا في هذه الحرب إلى جانب ألمانيا لتحمي نفسها من أطماع دول الحلفاء التي تضمر تقسيم الأقطار المنتمية إليها فيما بينها،فإنّه لم يصرّح بموقفه هذا،ثمّ عندما تراجع الجيش الألماني من فرنسا في واقعه"المارن" أخذ سفير ألمانيا يلح على شكيب أرسلان كي يتدّخل لدى الحكومة التركية،ويؤثر عليها لعلاقته الوطيدة ورجالات سياستها فتخرج عن حيادها وتتحالف مع ألمانيا،الأمر الذي أوقع شكيب أرسلان في موقف محرج صوّره بقوله : " فوقعت في حيرة لأنّني من جهة لم أكن أريد تحمّل هذه

المسؤولية الثقيلة، ومن جهة أخرى خشيت أيضا أنّي إن لم أبلّغ رجال الدولة ما قاله لي السفير الألماني تكون عليّ مسؤولية أيضا إذ لا يعلم أحد كيف تكون النهاية. فذهبت إلى أحمد نسيمي بك وكان بيني وبينه صلة الأخ مع أخيه فرجوته أن يقول لطلعت ما قاله لي سفير ألمانيا فقال لي نسيمي بك: لماذا لا تقول له أنت رأسا؟ فقلت له: لا أريد أن يظنّ بي طلعت أنّي راغب في الحرب وأنّي أريد أن أؤثر هذا الموضوع شيئا"(21).

وهكذا فإنّ مثل هذا الموقف يعكس لنا مدى تحرّز شكيب أرسلان في سياسته وتعقله في تحديد اختياراته لخبرته السياسية التي اكتسبها من طول مراسه للسياسة أحداثا ولرجّالاتها معايشة واحتكاكا. ثمّ أنّنا نرى أنّ شكيب أرسلان أرفع من أن ينحدر إلى هذا الدرك من خيانة قضايا أمته العربية- الإسلامية مقابل مبالغ مالية تدّرها عليه الحكومة الألمانية، وإنّما نعتقد أنّ غاية ما في الأمر هو أنّ أعداءه عمدوا إلى استغلال صداقته وعددا من الساسة الألمان وحظوته لدى الحكومة الألمانية مطيّة لدسائسهم وهم في ذلك إمّا محرّضين من أطراف عربية تتعارض مصالحها وسياسة الأمير أو أطرافا أجنبية استعمارية ترى في مراسه السياسي خطرا يهدد حيوية مصالحها بالبلاد التي تحتلها.

كلّ هذا ويعتقد شكيب أرسلان جازما، أنّ هذه الحملات العدائية التي أثيرت ضدّه، لم تلحق الضرر بنضاله السياسي ولا بمنزلته بين ساسة عصره الأصدقاء ولا بشعبيته الواسعة في أوساط مجتمعات البلاد العربية الإسلامية، بقدر ما ألحقته بالأمة العربية الإسلامية التي بتهجم بعض أوساطها عليه وتعرّضها له ساهمت -عن قصد أو غير قصد- مع الاستعمار في العمل على إحباط حركيته النضالية، بتأكيده قائلا: "..ولم تكن هذه الحملات علينا بالتي نقصت من مقدارنا بل على العكس على خط مستقيم، ويكفي أنّ جميع الصحف الوطنية في جميع الأقطار الإسلامية كانت إلى جانبنا وأنّ الصحف التي كابرت في المجال هي بعض جرائد معدودات منها ما هو أذناب فرنسة ومنها ما هو أذناب اليهود أو ممن أدّى إليه اليهود سرّا بدل الطعن بنا...وأمّا بقية الناس فكانوا مع شكيب أرسلان لا لأهمية بنفسه بل لأنّه مظلوم و لأنّه بيده سيف من الحقيقة يصدّ كلّ ما يواجهه"(22).

وصفوة القول كان شكيب أرسلان ظاهرة سياسية متميزة في عصرها لما كانت تتفرّد به من سبق فكري جعل جانبا من أهل عصرها لا يفهم جوهر سياستها ولا يفقه أبعادها.

الهوامـــــش

1) أرسلان شكيب: سيرة ذاتية، ص18، و انظر كذلك ص 205
2) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام، ص207، عن مقال لشكيب أرسلان نشره بمجلة: "الشباب"، بتاريخ 24 مارس 1934
3) نفس المرجع: ص257، عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة: "الفتح"، بتاريخ 6 صفر 1354 هـ
4) أرسلان شكيب، سيرة ذاتية، ص204
5) نفس المصدر: ص 151
6) نفس المصدر: ص 199
7) نفس المصدر: ص 195
8) نفس المصدر: ص 199
9) نفس المصدر: ص 213-214
10) الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص207، عن مقال لشكيب أرسلان نشره بجريدة: "الشورى"، بتاريخ 9 جانفي 1920
11) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان الجزء الثاني، ص826، عن رسائل لشكيب أرسلان المخطوطة إلى السيد رشيد رضا، لم يضمنها شكيب كتابه: "الشيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة"
12) نفس المرجع: ص 829
13) نفس المرجع: ص 831
14) نفس المرجع
15) BRUNE (Jean):La tragedie Algérienne du F.L.N.A. L'OAS:Chekib Arslan:L'émir de l'eloquence..,p 59
16) Ibid :p 59
17) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص820-821، نقلا عن رسالة بها شكيب أرسلان إلى السيد رشيد رضا، بتاريخ 18 ذي الحجة 1352 هـ
18) BRUNE (Jean):La tragedie Algérienne du F.L.N.A. L'OAS:Chekib Arslan:L'émir de l'eloquence..,p 59

19)الشرباصي، أحمد: شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص209، نقلا عن مقال نشره شكيب أرسلان بجريدة: "الفتح" بتاريخ6 صفر 1954.

20) BRUNE (Jean):La tragedie Algérienne du F.L.N.A. L'OAS:Chekib Arslan:L'émir de l'eloquence..,p 59

21) أرسلان، شكيب: سيرة ذاتية، ص 126

22) الشرباصي، أحمد: أمير البيان شكيب أرسلان، الجزء الثاني، ص835-836، نقلا عن رسائل شكيب أرسلان المخطوطة إلى السيد رشيد رضا. لم يضّمنها شكيب كتابه: "السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة".

الخـــاتمة

إنّ استقراء الفكر الأرسلاني ودرسه مصادر ومعالم و أبعادا، وكذلك السياسة الأرسلانية مبادئ نظرية وممارسة عملية، يجعل من المفيد أن نفرد هذه الخاتمة لمحاولة نقد فكر شكيب أرسلان وسياسته باستجلاء السمات المفيدة التي أكسبته سمة التفرد عن مفكري عصره وساسته وقد نتحسس من خلال كلّ ذلك بعض المآخذ التي تستبين لنا فنعيب بها شكيب أرسلان المفكر والسياسي على حدّ سواء.

فمفكرا يعدّ شكيب أرسلان نمطا متفردا بين أعلام الفكر والأدب في عصره، لما تميّز به من ثقافة موسوعية أخذت من كلّ فنّ بطرف، فلم يترك علما ولا فنّا لم يخض فيه ولم يبدع، فتعدّدت كتاباته وتنوّعت دون أن يختصّ بفنّ. فكان لا يمارس فنّا أدبيا إلاّ وانتابه نوع من الملل فيتخلّى عنه إلى غيره. فكان شاعرا وناثرا ومحققا، ومصلحا اجتماعيا وصحفيا وبحاثة لغويا ورحّالة ومترجما. فكانت تجربة الكتابة لديه إبداعا متجدّدا، وكأنّه في كلّ ذلك مسؤول عن صيانة تراث العربية وإحيائه أدبا وفكرا وحضارة ومطالب بالحفاظ عن مواريث الإسلام والدفاع عنها وإحيائها دينا وعقيدة وأمجادا ومفاخر، ومكلّف بالعناية بشؤون العرب والمسلمين والارتقاء بهم إلى مصاف المدنية العصرية.

ولعلّ ما أضفى سمة التفرد على كلّ هذه الإسهامات الأدبية والفكرية والحضارية–التي لعبت دورا حاسما في يقظة الفكر العربي–الإسلامي المعاصر وتحريره من أصفاد تقوقعه وجموده، ودفع مسار نهضته–أنّها جاءت في فترة دقيقة من التاريخ المعاصر كان فيها العالم العربي الإسلامي يعاني الاستعمار والتخلّف في حين بلغ العالم الغربي أرقى درجات الحضارة والتمدن، فكان تحريك شكيب أرسلان للعرب والمسلمين واستنهاض هممهم وتوعيتهم بوجوب إصلاح أوضاعهم وتغييرها في كنف الوحدة والتعاون الكفيلين وحدهما بتحقيق الاستقلال والنهضة، ثمّ إنّها لم تتوفر لغيره من أعلام الأدب والفكر في عصره الذين تلقّى عن مشاهيرهم ثمّ لأنّها تحققت رغم ما مكان يقوم به من نشاط سياسي زاخر بالحركة التي لا تنقطع: من اتصالات و اجتماعات إلى ملتقيات وأسفار وكتابة صحفية و جهاد عملي في جبهات القتال.

ثمّ لم تكن هذه الإسهامات الأرسلانية في حقول الفكر العربي- الإسلامي لتتحقق لو لم يصرف شكيب حياته إلى المطالعة و الكتابة بجلد لا ملل معه. وصبر لا نفاد له على حساب صحته التي لم يراع حدودها، وعائلته التي لم ينصفها حقوقها، وحياته التي لم يوفها نعمها.

وامتاز شكيب أرسلان ظاهرة فكرية متفردة في العصر الحديث بغزارة علاقات المودّة والصداقة التي أنشأها منذ حداثته ومشاهير عصره من أعلام الأدب والفكر الذين تلقى عن بعضهم ولازمهم أو امتدح البعض الآخر متقرّبا وراسل آخرين منهم متودّدا، حرصا منه على أن يكوّن له منزلة تضاهي مكانة هؤلاء المشائخ العظماء، والعلماء الأجلاء والأدباء الأفذاذ. والشعراء الفحول من معاصريه. ولقد كان له ذلك بما أحرزه منذ بواكير عمره من مجد أدبي، وشهرة فكرية زادهما تقادم الزمن رسوخا، حفز المثقفين العرب أن يخلعوا عليه لقب "أمير البيان" في القرن العشرين.

كلّ هذه الخصائص التي تفرّد بها الفكر الأرسلاني تجعل قارئ آثار شكيب أرسلان الأدبية، والتاريخية والحضارية، يرى فيه علما بارزا من أعلام الفكر العربي-الإسلامي المعاصر، قدح فيه الحركية بعد الجمود، والتفتح بعد التقوقع، والإرادة بعد العجز، فتحفز للتغيير والإصلاح نشدانا لإقامة صرح نهضة عربية إسلامية حديثة. ولم يكن ليتسنّى لشكيب أن يدفع مسار هذا الفكر في درب الرقيّ الحضاري المعاصر لو لم يكن غزير الثقافة، واسع العلم، متنوّع الإطلاع شامله، ولكن كلّ ذلك لا يجب أن يمنعنا من الكشف والتنصيص على بعض المآخذ التي تراءت من خلال اطلاعنا على حقول فكره المتنوّعة واستقرائها، والتي يمكن أن نعيبه عليها، من ذلك أنّ نزعته الموسوعية كانت مانعا لتعمّقه في البحث، والدقة في الاستقراء والاستنتاج في دراسة القضايا التي يختار طرحها بكلّ دقائق الموضوع المدروس والمسألة المطروحة بتوظيفه فيها كلّ ما يعرفه في شأنها وله صلة قريبة أو بعيدة بها، ممّا جعله يسقط في عدد من تآليفه الأدبية، ودراساته التاريخية وأبحاثه الفكرية الحضارية في الاستطراد الممل و التعليق المضجر الذي يشتّت تركيز القارئ في مسائل فرعية تنسيه المسألة الأصل فتضيع لذلك الفائدة المرجوّة ويكون قد أساء من حيث لم يقصد.

ثمّ رغم دعوته بـ"أمير البيان" فإنّ أسلوبه تقليدي لا يتماشى وأسلوب الخطاب الحديث ممّا يجعل القارئ لا يستسيغه في كلّ الأحوال لما يسم لغته من مسحة بدوية، وإيقاعه من ديباجة مصطنعة قد لا نبعد عندما نقول عتيقة.

وقد يكون بذلك حنّ إلى إحياء الأسلوب العربي القديم،في صفاء لغته،وإعجاز بيانه،وعذوبة إيقاعه ممهّدا به لتطوّر الأسلوب في العصر الحديث الذي طغت عليه الصبغة الصحفية.

أمّا شخصية شكيب أرسلان السياسي فقد امتازت هي الأخرى بعديد السمات المفيدة التي جعلت منه نمطا متفردا بين ساسة عصره.وأهّلته ليلعب الأدوار الأولى في دفع المسيرة النضالية لشعوب البلاد العربية الإسلامية في سبيل تحقيق وحدتها و تحرّرها و نهضتها.

فقد تفرّد شكيب أرسلان منذ حداثته بوعي سياسي حادّ بما يجدّ في الساحة العربية- الإسلامية والعالمية من أحداث جسام، لانحداره من عائلة زعامات سياسية ونشأته في أحد البيوتات السياسية الفاعلة في ذلك الحين- إذ كان أبوه حمود مدير ناحية الشويفات.وعمّه مصطفى قائم مقام قضاء الشوف- فضلا عن مطالعته المنتظمة للصحف العربية الواردة على بيروت من مصر والشام والعراق ممّا كوّن له اطّلاعا واسعا،ومعرفة دقيقة بخصائص واقع المنطقة العربية السياسي،الذي تفاعل مع أحداثه وتحمّس للمساهمة في تغيير معالمه.

ثمّ إنّه تميّز بتوقه-منذ سنّه المبكرة-إلى المجد السياسي،المتأصّل في العائلة الأرسلانية التليدة المفاخر في التاريخ العربي-الإسلامي منذ عهد الخلفاء حتى العصر الحديث وذلك من خلال سعيه الدائب إلى الاتصال بزعماء السياسة في عصره وربط عرى التوادّ والتصادق معهم،وبدء مسيرة النضال ضدّ الاستعمار لتحرير وطنه لبنان وسائر الأقطار العربية الإسلامية بل سائر الشعوب المستعمرة وحتّى الأقليات المستضعفة دون اعتبار للجنس أو اللغة أو الدين، ودون رهبة من أي كان،ليقينه أنّ الإنسانية هي رأس السياسة وأنّ الذي يأخذ بسياستها لا يعثر وإن عثر مرّة تسدّدت خطواته مرّات،ممّا جعل كفاحه السياسي يتجاوز حدود الاقليمية الضيقة،والقومية العربية الإسلامية إلى رحاب الإنسانية.

ثمّ إنّ ما أهّله للعب الأدوار الأولى في مسيرة نضال الشعوب العربية-الإسلامية-التي اعتبرته زعيما قوميا لعروبتها واسلامها تفرّده عن ساسة عصره بمزاوجته بين النظرية والمراس،إذ لم يقم مذهبه على مجرّد نظريات منبته عن أحوال عصره ومستجدّاته،ولا على أقوال يروم من ورائها إحراز استحسان مستمعيه،وعلى مقالات ينشئها طمعا في كسب تعاطف قرائه ومودّتهم بل عمد إلى المزاوجة في سياسته بين القول والعمل،الكلمة والفعل،ولعلّ تطوعه سنة

1911 في الحرب الطرابلسية،ومشاركته في السنة الموالية في لجنة الإعانة ولجنة الإعانة ولجنة الهلال الأحمر لإغاثة مسلمي الروملي (البلقان) عند اندلاع الحرب بين السلطنة العثمانية والدول البلقانية الأربعة: بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود،كذلك تطوعه في حرب السويس عند اندلاعها بين مصر و انغلترا، فضلا عن سفاراته العديدة بين حكومته الباب العالي والمانيا بين سنوات 1917 و1921 تقوم أفضل دليل علىحركيته السياسية المصاحبة لنظرياته التي أقام عليها نضاله.

وقد تميّز مراسه السياسي ببعد النظر وصدق الفراسة لطول خبرته السياسية ورجالاتها ومعاركته الزمن،فكان غالبا ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها وجاءت الأحداث مصدقة لتنبؤاته.من ذلك تنبؤه بأنّ سقوط طرابلس الغرب بأيدي الطليان سيكون إيذانا بانهيار السلطنة العثمانية و كذلك كان،إذ ما إن خضعت طرابلس لحكم الفاشست حتّى تمكّنت دولتا فرنسا وانغلترا من تقسيم بقية البلاد العربية-الإسلامية المستقلة بينهما.وبسط نفوذهما عليها،كذلك تنبّأ بنشوب الحرب الكونية الأولى قبل إندلاعها.وذلك في 21 مارس 1913حيث أكّد أنّ الحرب الطرابلسية ستكون فاتحة حروب كلّ منهما أعظم من التي سبقتها وكذلك كان إذ أدّت هذه الحرب إلى الحرب البلقانية التي أفضت هي الأخرى إلى الحرب العامة.

وبناء على بذلك فقد تميّز شكيب عن ساسة عصره بقوّة حدس.وعمق حنكة جعلتاه يتنبّأ بجلائل الأحداث السياسية قبل حدوثها.ولكن ما كان يؤلمه ويحزّ في نفسه تجاهل بني قومه العرب،و بني ملته المسلمين له ولا مبالاتهم بما كان يبديه لهم من نصائح،وتوصيات ولعلّ هذا يعود لما تفرّد به من سبق فكري لأهل عصره ساسة وشعوبا.

واتّسم نضاله السياسي بتكيّفه وما يجدّ على الساحة السياسية من تحولات وتغيرات وما يطرأ على مواقف الساسة من تقلّبات يقتضيها تبدّل رياح السياسة فكان اقتناعه بوجوب المداراة والمصانعة خدمة للأهداف التي رسمها لكفاحه و المصالح التي أخذ علىنفسه تحقيقها لإدراكه العميق أنّ الصراحة الدائمة تعدّ عيبا في السياسي الذي عليه ألاّ يصرح بكلّ ما يعلم بل يتحرّز ويحذر مراعاة لمستجدات الأحداث ولما تمليه عليه مصالح كفاحه التي تشكل محور العمل السياسي.

كلّ هذا. يجعل الباحث في نشاط شكيب أرسلان السياسي ودارس حركيته النضالية التي تواصلت على مدى نصف قرن، يرى فية أحد كبار زعماء السياسة في العصر الحديث لجليل الخدمات التي أدّاها لوطنه لبنان، وللعروبة والإسلام بتبّنيه الدفاع عن قضايا تحرّر البلاد العربية- الإسلامية واستقلالها. بمناصرتها في المحافل الدولية ولدى الهيئات الرسمية، وبدعوة شعوبها إلى الإتّحاد الكفيل وحده بعتقها من السيطرة الاستعمارية الأوروبية، وتحقيق نهضتها الحضارية المنشودة في العصر الحديث.

ومما لا شك فيه أنّ الكثير من الأقاويل قد ذكرت في شأنه، والعديد من الشبهات قد حامت من حوله. لعلّ منها ما كان من قبيل التأويلات المغرضة التي سعى أصحابها من خلالها إلى تشويه صورة نضاله السياسي والتقليص من شعبيته. والحط من منزلته الرفيعة التي يحظى بها لدى مختلف المجتمعات العربية الإسلامية وعديد الأوساط الأجنبية، باتّهامه بالعمالة لدولة إيطاليا الفاشية. والتواطئ وزعيمها موسوليني وأعضائه، بتمرير سياستهم الاستعمارية التوسعية بالبلاد الافريقية. وكذلك بالدعاية لدولة ألمانيا النازية بالبلاد العربية الإسلامية. بربط علاقات ودّ وصداقة وزعمائها النازيين الذن كانوا يكنّون له كلّ تقدير واحترام.

والحقيقة. أنّه ما كان لكلّ هذه التهم أن تلحق به، ولا لهذه الشبهات أن تحوم حوله لو عرف كيف يلوّن مراسه السياسي ويكيّفه في بيئة "عربية- إسلامية يدرك جيّدا خصائص عقلية مجتمعاتها و محدودية وعيها.

ولعله كان في بعض نشاطه السياسي أقرب إلى التسرّع منه إلى إعمال العقل وتدقيق النظر وتحليل القضايا واستقرائها، مما جعل العديد من مواقفه السياسية تتّسم بالتذبذب و عدم الاستقرار وحتّى التناقض ناهيك و انّه بعد أن كان من مناصري خلافة آل عثمان. والداعين إلى الولاء لسلطانهم بالطاعة، والمدافعين عن سياستهم. يتخلّى عن نزعته العثمانية فيتنكر للخلافة والأتراك بقدر ما كان متحمّسا لخدمتهم والدعوة لهم. كذلك بعد أن كان من المتحمسين للدعوة إلى الجامعة الإسلامية والمدافعين عنها دفاعا صامدا، يتخلّى عنها هي الأخرى لفائدة الدعوة إلى الوحدة العربية و جامعتها، ثمّ وبعد أن كان من ألدّ أعداء دولة إيطاليا الفاشية ومن أبرز الحاملين على سياسة زعيمها موسوليني، يتخلى عن الحملة عليها والتشهير بسياسة زعيمها الوحشية بطرابلس

والتوّسعية بالسودان وبلاد الحبشة ليصبح صديقا ودودا له يزوره بانتظام بروما ويلتقي به و يجتمع بأعضاء حكومته و يتبادل معهم التوادّ و التصادق.

ولكن لم يمنعه هذا من لعب الأدوار الأولى في دفع مسيرة الشعوب العربية- الإسلامية النضالية نحو الوحدة و الاستقلال و النهضة.

وصفوة القول أنّ شكيب أرسلان رجل من الرجال القلائل الذين جمعوا بين الفكر والسياسة ما جمعه،وتعمّقوا في الفكر والسياسة ما تعمّقه.والتزموا للفكر والسياسة ما التزمه،ولاقوا من المضايقات ما لاقاه.ومن التهم والترهات ما ناله هو،ولعلّ هذا ما دفعه إلى أن ينشئ بقلمه كتابه"سيرة ذاتية" دفاعا عن حياة كفاحه،والذي شاء نكد الحظ ألاّ ينشر إلاّ بعد موته.

الملاحق

الملحق الأول

التعريف بآثار شكيب أرسلان مرتبة حسب تاريخ ظهورها

I - الكتب

1) باكورة: نظم الأمير شكيب أرسلان- المطبعة الأدبية-بيروت-1887- في 92 ص.

2) الدرّة اليتيمه: لعبد الله ابن المقفع ،حقّقها وصحّح النسخة الخطيّة ووضع مقدمة لها الأمير شكيب أرسلان-المطبعة الأدبية: بيروت. 1893. ط2: مطبعة الجامعة 1897،القاهرة 1910- في 110 صفحة.

3) آخر بني سراج: رواية من تأليف شاتوبريان- عرّبها الأمير و أضاف عليها ملحقا من ثلاثة أقسام.

* خلاصة تاريخ الأندلس إلىسقوط غرناطة- بقلم الأمير.
* أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر-لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس- تحقيق الأمير.
* إثارة تاريخية سلطانية: أربعة كتب سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبس الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة -تحقيق الأمير-المجموع في415 ص،الأهرام1897-المنار- 1925

4) المختار من رسائل أبي اسحاق ابراهيم الصابي: الجزء الأوّل.تحقيق الأمير شكيب أرسلان-نقحه وعلّق على حواشيه وصدّره بترجمة الصابي. وتعريف أدباء زمانه-دار النهضة الحديثة-بيروت لبنان-1898-286

5)مظفر باشا: الإسكندرية: 1907 منسوب إلى الأمير من عدّة مصادر معاصرة.

6) أعمال الوفد السوري الفلسطيني: البيانات والمذكرات والمطالب التي قدّمها الأمير مع إحسان الجابري إلى جمعية الأمم في جينيف- المطبعة السلفية بمصر- جانفي 1923 في 152 ص.

7) حاضر العالم الاسلامي: تأليف المؤرخ الأمريكي لوثروب ستودار و ترجمة عجاج نويهض-تعليقات الأمير شكيب أرسلان-أربعة أجزاء-الطبعة الأولى: المطبعة السلفية بمصر1925-في 1588 صفحة-الطبعة

الثانية: مطبعة عيسى البابي وشركاؤه بمصر 1933-الطبعة الثالثة-مطبعة دار الفكر بيروت 1974.

8) مطالعات في اللغة و الأدب: مقالات خليل السكاكيني وردود الأمير عليه- القدس- 1925.

9) المسألة السورية: المحادثات مع دوجونفيل في باريس، نشر اللجنة التنفذية للمؤتمر السوري الفلسطيني- القاهرة 1926.

10) أناتول فرانس في مباذله: تأليف جان بروسن- مع كتاب لنقولا سيفور في أناتول فرانس-ترجمة وتعليقات الأمير، المطبعة العصرية بمصر-1926

11) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟: مطبعة المنار1930، الطبعة الثانية: مجهولة التاريخ: الطبعة الثالثة: مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر-1939 الطبعة الرابعة مزيدة ومنقحة: منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت لبنان 1975.

12) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف: مطبعة المنار 1931 تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا.

13) محاسن المساعي في مناقب أبي عمر الأوزاعي: نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه والتعليق على حواشيه وتصديره بمقدمة عن الإمام الأوزاعي للأمير شكيب أرسلان الطبعة الأولى: مطبعة عيسى البابي الحلبي 1933 في 166 ص الطبعة الثانية-منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت1967

14) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: مطبعة عيسى البابي وشركاؤه-القاهرة-1933-1934. الطبعة الثانية- منشورات دار مكتبة الحياة بيروت- لبنان 1966.

15) ديوان الأمير شكيب أرسلان: وقف على ترتيبه وتصحيحه وطبعه السيد محمد رشيد رضا- مطبعة المنار بمصر-1935.

16) روض الشقيق في الجزل الرقيق: هو ديوان أخيه نسيب حققه و قدّم له شكيب أرسلان — مطبعة ابن زيدون- دمشق 1935.

17) تاريخ ابن خلدون: تعليق الأمير على الجزء الأول و الثاني، مطبعة النهضة بمصر 1936

18) الحلل السندسية في الأخبار و الأندلسية: ظهر منها 3 أجزاء حتّى سنة 1939 من جملة 10 المطبعة الرحمانية في مصر1936-1939.

19) شوقي أو صداقة أربعين سنة، مطبعة عيسى البابي و شركاؤه بمصر 1936

20) السيد رشيد رضا أو أخاء أربعين سنة، مطبعة ابن زيدون، دمشق 1937

21) سيرة ذاتية. دار الطليعة للطباعة والنشر. الطبعة الأولى-يوليو 1969

II- المقـــــــالات:

1) إلى العرب بيان إلى الأمة العربية عن حزب اللامركزية: 1914 الأستانة.

2) لا يمكن لأية دعاية في العالم أن تشوّه صورة انسان: بالفرنسية- المطبعة الوطنية في آن ماس 1936 في 36 صفحة. و هي ردّ على مهاجمي أرسلان في تلك الفترة من عملاء الفرنسيين و الانجليز.

3) مجلة الأمّة العربية: صدرت بالفرنسية في جينيف من مارس1930 حتى جانفي 1939 محرّرها الرئيسي الأمير شكيب أرسلان ويعاونه إحسان الجابري و رياض الصلح في 38 مجلدا وتضمنّت الجانب الأوفر من مقالات شكيب أرسلان المتنوعة المضامين.

4) عروة الاتحاد بين أهل الجهاد: مقالات كتبها الأمير لجريدة العالم العربي في بوينس ايريس بالأرجنتين جمعها و نشرها عبد اللطيف الخشن صاحب الجريدة أغسطس أوت 1941 الجزء الأول- لم يصدر غيره.

5) رسالة البلاشفة أو رحلة روسيا

6) رسالة رحلة المانيا

7) رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق.

ولعلّ المقالات التي أوردنا ذكرها أو أشرنا إليها في محاولة استقصاء آثار شكيب أرسلان-لا تمثل إلاّ جزءا بسيطا من مقالات الأمير التي كتبها ونشرها في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ويمكننا أن ندعّم هذا الحكم الذي ذهبنا إليه بإيراد بعض الأمثلة:

* كتب شكيب أرسلان في جريدة الأهرام المصرية عام 1887أولى مقالاته الإصلاحية.
* عندما زار شكيب أرسلان مصر سنة 1911 في طريقه إلى الجبهة الليبية مكث في القاهرة أربعين يوما كتب خلالها أربعين افتتاحية يومية لجريدة "المؤيد" التي كان يرأسها الشيخ علي يوسف.

- كتب عديد المقالات عند رئاسته جريدة" الشرق" لعدّة شهور في دمشق عام1914.
- كتب مقالات أسبوعية كثيرة في جريدة "الشورى" المصرية لصاحبها محمد علي الطاهر.
- كتب في مجلّة" الفتح" ومجلة "الشباب" لصاحبها محب الدين الخطيب.
- كتب في جرائد: "الجهاد"،و"الزهراء"،و"البلاغ"،و"مرآة الايام"،و"المنار" و"المفيد".و"المقتطف".و"المقتبس"،و"المقطم"؛و"السياسة"،و"الرسالة"، ومجلة "المجمع العلمي العربي"،و في غيرها من الجرائد والمجلات في العالم الإسلامي و في المهجر الأمريكي و كندا.

III- المحاضــرات

1) المجاعة في سوريا: محاضرة ألقاها شكيب أرسلان بمونيخ سنة 1917، أبرز فيها حالة المجاعة التي يعانيها أهالي سورية نتيجة سدّ دول الحلفاء جميع الطرق البحرية للحيلولة دون وصول الاغاثات و الإعانات الغذائية من عديد الدول.

2)الوحدة العربية: محاضرة ألقاها شكيب في النادي العربي بدمشق في 20 سبتمبر1937. ونشرتها مطبعة الاعتدال بدمشق.الناشر محمد ياسين عرفه 1937.

3) النهضة العربية في العصر الحاضر: محاضرة ألقاها أرسلان في المجمع العلمي العربي بدمشق أكتوبر1937. نشرتها إدارة جريدة "الجزيرة" بدمشق 1937.كما نشر قسم منها بالمجلة الزيتونية- المجلد الثالث- 1936 ص ص 45-48.

ولئن اقتصرنا على تسجيل هذه المحاضرات الثلاث فلا يعني ذلك أنّ شكيب لم يلق غيرها، بل لأننا لم نعثر في بحثنا عن وثائق تضيئ لنا موضوعات محاضرات أخرى ألقاها شكيب أرسلان.فمن المؤكد أنّ شكيب أرسلان ألقى عديد المحاضرات وفي مناسبات مختلفة ولكن نأسف لعدم توصلنا إلى استكشافها لعسر منالها.

الملحق الثـــاني
مراجع البحث

I- المراجع العربية:

1-1- الكتب الخاصة بشكيب أرسلان:

1) البستاني(بطرس): "الأمير شكيب أرسلان" سلسلة مناهل الأدب العربي. الكتاب رقم 28 بيروت1952.

2) حكيم(محمد ابن عزون): "وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب"أسبابها- أهدافها نتائجها-مؤسسة عبد الخالق الطريسي للثقافة و الفكر. تطوان 1980

3) الدهّان(سامي): "محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان"ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية و اللغوية- نشر معهد الدراسات العربية العالية – جامعة الدول العربية القاهرة 1958.

4) الدهّان(سامي): "الأمير شكيب أرسلان: "حياته وآثاره". دار المعارف. القاهرة، 1960.

5) الشرباصي(أحمد): "أمير البيان شكيب أرسلان". جزآن. القاهرة–1963

6) الشرباصي(أحمد): "أدب أمير البيان"الدار القومية للطباعة والنشر 1964.

7) الشرباصي(أحمد): "شكيب أرسلان: دار العروبة والإسلام". دار الجيل بيروت، الطبعة الثانية 1978.

8) الطاهر(محمد علي): "ذكرى الأمير شكيب أرسلان". يضمّ كلّ ما قيل أو كتب عن الأمير شكيب في تأبينه بعد وفاته، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاؤه بمصر، الطبعة الأولى 1947-526 ص.

9) المولى (سعود): "شكيب أرسلان: مختارات نقدية في اللغة والأدب والتاريخ"، الطبعة الأولى، 1982-244 صفحة، دار الكلمة للنشر، بيروت.

2-1-الكتب العامّة:

1) أحمد (محمد الحبيب): " نهضة الشعوب الإسلامية"، دار النيل للطباعة والنشر القاهرة الطبعة الأولى 1952.

2) بوعياد(الحاج حسن): "الحركة الوطنية و الظهير البربري" لون آخر

من نشاط الحركة الوطنية في الخارج 1348هـ/1930 الطبعة الأولى 1399هـ/1979م،دار الطباعات الحديثة،البيضاء 660 صفحة.
3) رضا (محمد رشيد): "تاريخ الأستاذ الإمام" مطبعة المنار بمصر- الجزء الأول-سنة 1350هـ/1931 الجزء الثاني سنة 1354هـ/1935م الجزء الثالث سنة 1367 هـ/ 1947 م.
4) الشرباصي (أحمد): "وسائل تقدم المسلمين"مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة.
5) عبّود (مارون): "رواد النهضة الحديثة"بيروت 1952-مقال عن شكيب أرسلان: ص ص 110-116.
6) غلاّب(عبد الكريم): "تاريخ الحركة الوطنية المغربية"الجزء الأول-المغرب 1973.
7) فرّوخ (عمر): "الإسلام على مفترق طرق" ترجمة عن فاليس ليوبولد.
8) الفاسي (علال): "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال-مراكش-الطبعة الأولى-القاهرة-1368هـ/ 1948 مطبعة الرسالة.
9) الكرد(علي): "المذكرات"الجزء الثاني.ص ص418-423.دمشق 1949
10) المدني(احمد توفيق): "حياة كفاح" جزآن،المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1973.
11) الندوي(أبو الحسن علي): "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" القاهرة 1950.

1-3- الدوريـــات:

-أبو عزالدين،محمد: رزء العروبة في الأمير شكيب أرسلان،مجلّة: "الثريا"،المجلد الثالث،السنة 1946،العدد12،ص88-90
-بسيس،محمد الصادق: علاقة الأمير شكيب أرسلان بتونس،مجلّة: "الثريا"،المجلد الثالث،السنة 1946،العدد12،ص31-32
- الدقاق،عمر: شكيب أرسلان رمز جيل،مجلة "العربي"،العدد 253، ديسمبر 1979
-جابور،جان: الأمير شكيب أرسلان مجلة "أبحاث"،السنة 1957،ص 33-88

- رمضان عبد العظيم: وثيقة و تعليقات حول مشروع الأمير لإستقلال تونس، مجلة "العربي"، العدد 238، ديسمبر 1978
- شمس، عبد المنعم: شخصيات في حياة شوقي: أمير البيان شكيب أرسلان. مجلة "الكاتب" العدد 202، جانفي 1978، ص 8-17
- الشملي، منجي: مراجعات في ترجمة أحمد شوقي، حوليات الجامعة التونسية، العدد 8، السنة 1971
- شيّا، أحمد: مدخل إلى سياسة الأمير شكيب أرسلان، مجلة "الفكر العربي"، أيلول-سبتمبر، تشرين-أكتوبر، العدد22، السنة الثالثة، 1981
- مجلة المستقبل العربي: عمر المختار حدث مهم في السينما العربية، عدد 48، فيفري، 1983، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، لبنان.
- مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق:
  المجلد الرابع، السنة 1924 الجزء 12 ص ص 531-554.
  المجلد الرابع، السنة 1925- ص ص183-275
  المجلد الخامس، السنة 1925 ص ص 235-239
  المجلد العاشر، السنة 1930 ص ص 439-443.
  المجلد الحادي عشر، السنة 1931 ص ص 436-440
  المجلد الخامس عشر، السنة 1937
  المجلد الثالث و الثلاثون، السنة 1947.
- الوزير، أحمد المختار:
- أدب الأمير شكيب أرسلان: دراسة تحليل، "المجلّة الزيتونية" المجلّد الثامن الجزء الثاني، ص86-89
- أدب الأمير شكيب أرسلان: دراسة تحليل، "المجلّة الزيتونية" المجلّد التاسع الجزء الأول، السنة 1955، ص26-29
- أدب الأمير شكيب أرسلان: دراسة تحليل، "المجلّة الزيتونية" المجلّد العاشر، الجزء الثاني، ، ص80-82

1-4- المعاجـــم:

1) البستاني، فؤاد أفرم: دائرة المعارف الإسلامية، مادّة أرسلان، الجزء الأوّل، ص 163-167.
2) الزكرلي، خير الدين: معجم الأعلام، المجلّد الثالث، مطبعة كوستا توماس وشركاؤه بالقاهرة 1957، ص 251-252

II- المراجع الأجنبية:

1- الكتـــب:

- BROCKELMAN (Karl) :Geschisfe der arabischen Literatur » Dritte Supplement Band.Leiden E.J BRILL pp 394.399-1942.
- JULIEN (Charles André): « L'Afrique du Nord en Marche» Paris 1953
- JULIEN (Charles André) : « Le Maroc face aux impérialisme » Paris 1978.

2- الدوريــات:

- BESSIS (Juliette) :l'Emir Shakib et le mouvement national marocain » in « revue historique n°526 Avril-Juin 1978 pp467-489
- BRUNE(Jean) : « La tragédie Algerienne du F.L.N à L'O.A.S » dns Ecrits de Paris.Octobre 1955- pp 49-62.
- PROVENCAL (Evrayste lévy) :Vie SAKIB ARSELAN in Cahiers de l'Orients contemporain 4ème année n° 9-10, 1947 1er semestre pp 5-19 notice détaillé.

3- الصحـف:

BOURGUIBA (Habib): Un vétéran des luttes anticolonialistes:Chekib Arslan,in L'action Tunisienne. Editorial special Jeudi 3 Juin 1937, PP 1-2

الملحق الثـــالث

أسماء الأعلام مرتبة أبجديا حسب الألقاب

(الألــف)

الفهـرس



المغاربيــة للطباعــة والإشــهــار

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+

د. بوشوشة بن جمعة

أستاذ الأدب الحديث والنقد بالمعهد العالي للغات بتونس، خرّيج كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية عام 1979، متحصّل على شهادة الكفاءة في البحث عام 1981، وعلى شهادة التعمّق في البحث 1985، ثمّ على دكتوراه الدولة في الآداب من كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة عام 1998. يهتمّ بالسرديات حيث تمثّل الرواية إبداعا ونقدا، وبالأساس الرواية المغاربية المكتوبة بالعربية، مجال تخصّصه، ومدار مباحثه، ومداخلاته في الملتقيات والندوات الوطنية والدولية التي يشارك فيها. أستاذ محاضر وزائر لعدّة جامعات ومؤسسات ثقافية وفكرية عربية وأجنبية.

شكيب أرسلان مفكرا وسياسيا

...ولئن أثارت شخصية شكيب أرسلان كلّ هذا الجدل في حياتها، وشغلت كلّ أوساط معاصريها: الفكرية منها والسياسية، العربية والأجنبية على حدّ سواء لحركيتها الدائبة الفعّالة، فإنّ جذوة ذكراها قد خبت، واكتنف الإهمال والنسيان سيرة صاحبها من قبل الجيل الجديد من المثقفين عامّة، والباحثين على وجه أخصّ. لذا وفاء منّا لما أسداه الأمير شكيب أرسلان للفكر والسياسة العربية الإسلامية في العصر الحديث مشرقا ومغربا من جليل الخدمات، سعينا إلى إيفائه حقّه علينا باختيار شخصيته الفكرية والسياسية موضوعا لبحثنا عسانا نرفع عنه ما أصابه من غبن، خاصّة وأنّ الكتب التي ألّفت حوله، هي إجمالا قليلة لا تتماشى بالمرّة والمنزلة التي كان يحظى بها في عصره وبين معاصريه العرب منهم والأجانب.



الثمن : 12.000 دت

ISBN : 978-9973-0-0257-0